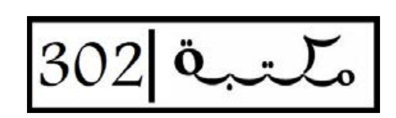


كارلوس زافون
سجين السماء
مكتبة ٣٠٢
ترجمة: معاوية عبد المجيد
منشورات الجمل
روايـة



كارلوس زافون، **سجين السماء**، رواية

معاوية عبد المجيد: مترجم سوري من مواليد دمشق عام ١٩٨٥. درس الأدب الإيطالي في جامعة سيينا الإيطالية. علّم اللغة الإيطالية في كلية الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبية الأوروبية عن قسم الترجمة الأدبية من جامعة بولونيا الإيطالية وجامعة مولوز الفرنسية. نشر عدة مقالات عن الشعر الإيطالي في عدد من المجلات. ترجم إلى العربية: **ضمير السيد زينو**، إيتالو سفيفو، ٢٠١٣؛ **تريستانو يحتضر**، أنطونيو تابوكي، ٢٠١٣؛ **بيريرا يدعي**، أنطونيو تابوكي، ٢٠١٤؛ **اليوم ما قبل السعادة**، إري دي لوكا، ٢٠١٤؛ **آخذك وأحملك بعيدا**، نيكولّو أمانيتي، ٢٠١٦؛ **ظلّ الريح**، كارلوس زافون، ٢٠١٦؛ **لعبة الملاك**، كارلوس زافون، ٢٠١٧.

كارلوس زافون: **سجين السماء**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: معاوية عبد المجيد

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Carlos Ruiz Zafón: *EL PRISIONERO DEL CIELO*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



كارلوس زافون

سجين السماء

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل

مقبرة الكتب المنسيّة

يشكّل هذا الكتاب جزءًا من سلسلةٍ روائيّةٍ، ترتكز على «مقبرة الكتب المنسيّة» باعتبارها ثيمةً أدبيّةً أساسيّةً. ترتبط هذه الروايات بعضها ببعض عبْر الشخصيّات والمواضيع المتعدّدة؛ إلّا أنّ كلّ رواية منها مستقلّة عن الأخرى ومكتفية بذاتها.

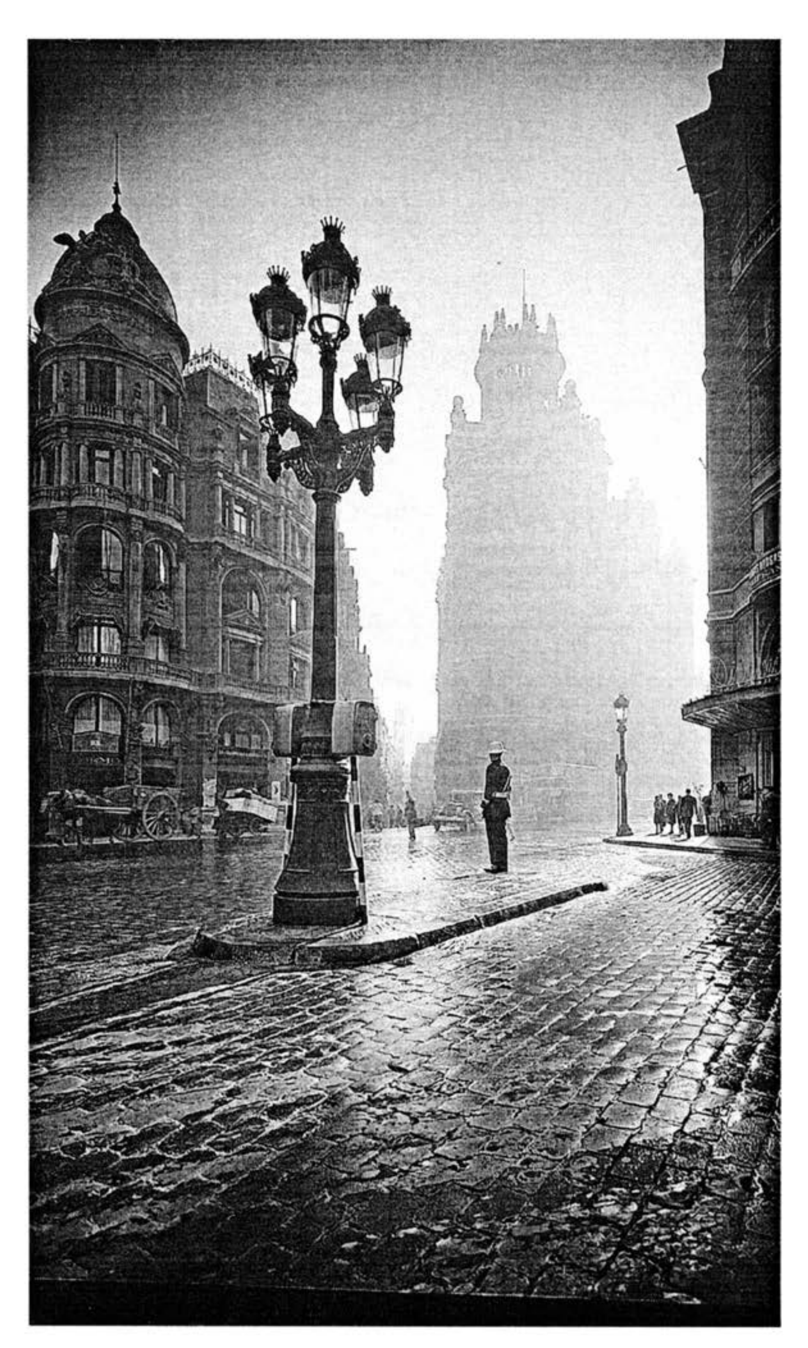
لذا ننوّه بإمكانيّة قراءة روايات السلسلة بغضّ النظر عن تسلسلها، ما يسمح للقارئ باكتشاف هذه المتاهة وولوج ألغازها من أبواب ومسالك مختلفة تقوده عمومًا إلى قلب الحكاية.

لطالما كنتُ متيقّنًا من أنّني سأعود يومًا ما إلى هذه الطرقات كي أروي حكاية الرجل الذي ضيَّع روحه واسمه بين ظلال برشلونة الغارقة بنومٍ مُقلِقٍ في زمن الصمت والرماد. هذه الصفحاتُ مكتوبةٌ بالنار اتّقاءً من أهوال مدينة الملاعين؛ كلماتٌ منقوشةٌ في ذاكرة مَن عاد مِن عالم الأموات بوعدٍ محفوظٍ في قلبه وثمنِ اللعنة. يُرفَع الستار، ويسكت الجمهور، وقبل أن يهبط الظلُّ - الذي أثقل على مصيره - من المنصّة المعلّقة، تتصدَّر المشهدَ مجموعةٌ من أشباحٍ بيضاءَ، والملهاةُ على شفاهها، بتلك البراءة المبارَكة التي يتّسم بها الواهمُ أنّ الفصل الثالث هو الأخير، فيأتي ليقصّ علينا حكايةً من أجواء الميلاد، وإذ يطوي الصفحة الأخيرة لا يدري بأنّ حبرَ أنفاسه يجرُّه - ببطءٍ وبلا هوادة - إلى قلب الظلمات.

خوليان كاراكس، «سجين السماء»
(منشورات النور، باريس، ١٩٩٢)

الفصل الأوّل

حكايةٌ من أجواء الميلاد



١

برشلونة، ديسمبر ١٩٥٧

في ذلك العام، قبل أعياد الميلاد، مرّت علينا أيّامٌ مصبوغةٌ باللون الرصاصيّ ومكسوّةٌ بالضباب. وكانت العتمة النيليّة تطغى على المدينة، فيما يمشي الناس على عجالة متدثّرين بالثياب حتّى آذانهم، وزفيرُ أنفاسهم يرسم ستائرَ من بخارٍ في أجواء الطقس المتجمّد. قلّتْ أعدادُ الذين توقّفوا عند واجهة مكتبة «سيمبيري وأبناؤه» في تلك الأيّام. ونادرًا ما غامر بعضُهم بالدخول ليسألوا عن كتابٍ ضائعٍ انتظرهم طوال الحياة، والذي كان بيعُه - فلنضعِ الشعر جانبًا - سيساهم حقيقةً في ترقيع الماليّة المزعزعة للمكتبة.

- أشعر أنّ هذا اليوم سيكون اليوم الصائب. سيتبدّل مصيرُنا هذا اليوم. - أعلنتُ على أجنحة أوّل فنجان قهوةٍ في ذلك النهار، تفاؤلٌ نقيٌّ بتلك الحالة السائلة.

رفع والدي عينيه عن المصطبة، إذ كان منذ الثامنة صباحًا يصارع سجلّ المحاسَبة ببراعة الممحاة وقلم الرصاص. ألقى نظرة على طابور الزبائن الغائبين الذين كانوا يختفون عند المنعطف.

- فلتسمعك السماء يا دانيال. لأنّنا والحال وهذه، إذا فشلت

إعلاناتُ الأعياد، لن يكون لدينا من المال ما يكفي حتّى لدفع فاتورة الكهرباء. لا بدّ لنا من فعل شيءٍ ما.

- البارحة، لمعت فكرةٌ في رأس فيرمين. - قلت - إنّه يرى خطّته عظيمة لإنقاذ المكتبة من الإفلاس الوشيك.

- فليُدخِلنا الربّ في رحابه مُعترِفين ومبلَّغين.

اقتبستُ حرفيًّا:

- *ربّما، إذا زيَّنتُ الواجهة بالسراويل، أقول ربّما، قد تدخل بعضُ الإناث المتعطّشات للأدب والعواطف الجيّاشة، وينفقن النقود، لأنّ مستقبل الأدب - كما يقول الخبراء - متعلَّقٌ بالنساء. وربّما لم تولد بعد تلك الفتاة القادرة على مقاومة الإغراء الريفيّ لهذا الجسد الجبليّ.* - ألقيتُ.

سمعتُ وقوعَ ممحاة والدي على الأرض خلف ظهري، فاستدرتُ.

- الكلام لفيرمين - أضفتُ.

ظننتُ أنّ والدي كان سيبتسم لبدعة فيرمين، لكنّني حين أدركتُ أنّه كمن استيقظ من صمته، رحت أنظر إليه خلسةً. لم يكن سيمبيري الأب مستمتعًا بذلك الهذر فحسب، بل ارتسمتْ على وجهه تعابير التمعُّن، كما لو أنّه حمل الفكرة محمل الجدّ.

- انظرْ أنت! قد تكون فكرة فيرمين صائبة. - غمغم.

رمقتُه مشدوهًا بما سمعتُ. لعلّ المصاعب المادّية، التي أصابتنا في الأسابيع الأخيرة، أثّرت في عقل والدي بشكلٍ خطير.

- لا تقل لي إنّك ستسمح له بالتجوّل بسراويله داخل المكتبة.

- لا، ليس هذا. بل الواجهة. خطرت ببالي فكرة بينما كنتَ تتحدّث... أعتقد أنّ الوقت لم يَفُتْ بعد لإنقاذ أعياد الميلاد...

رأيتُه يختفي في المستودع الخلفيّ ليظهر ثانيةً، مجهَّزًا بزيّه الرسميّ المُعَدِّ للشتاء: المعطف نفسه، الشال نفسه، والقبّعة نفسها التي أذكرها منذ أن كنتُ طفلًا. كانت بيا تقول إنّها تشكّ في أنّ والدي لم يشترِ ثيابًا منذ العام ١٩٤٢، كما أنّ كلّ الدلائل تشير إلى أنّ زوجتي محقَّة. ابتسم والدي بطريقة مريبة، وهو يوغل يديه في القفّازين، وكانت عيناه توحيان بلمعةٍ صبيانيّةٍ لا تومض فيهما إلّا عند المغامرات العظيمة.

- سأتركك بمفردك بعض الوقت. - أعلن - سأخرج لإنجاز إحدى الطلبيّات.

- هل لي أن أسألك أين أنت ذاهب؟

غمز والدي بعينه.

- مفاجأة. سترى عمّا قريب.

لحقتُ به إلى الباب ورأيته ينطلق بخطًى واثقة، نحو بويرتا دل آنخل/باب الملاك، طيفًا بين الأطياف الكثيرة في موجة الزحام الرماديّة التي كانت تتراكم كالثلج طوال شتاءٍ طويلٍ من ظلٍّ ورماد.

٢

اغتنمتُ فرصة بقائي وحيدًا، فقرّرتُ أن أشغِّل الراديو لأتذوَّق قليلًا من الموسيقى، بينما كنت أعيد ترتيب الكتب برويَّةٍ على الرفوف. كان والدي يرى أنّ تشغيل الراديو في حضرة الزبائن في المكتبة أمرٌ معيب؛ أمّا إذا شغّلتُه بوجود فيرمين، تراه إمّا يباشر الدمدمة على الألحان أيًّا تكن، أو - وهو الأسوأ - يشرع في الرقص على ما يصفه بـ«الإيقاعات الكاريبيّة الشبقة»؛ فيثير أعصابي في غضون بضع دقائق. وعندما بتّ أعي تلك المصاعب العمليّة، توصّلتُ إلى نتيجةٍ مفادُها أنّه ينبغي استنفاد كلّ السرور الذي تؤمّنه الموجات الميغاهرتزيّة خلال اللحظات النادرة التي لا يوجد فيها أحدٌ داخل المحلّ، ما عداي أنا وعشرات آلاف تلك الكتب المختلفة.

كانت إذاعة برشلونة، في ذلك الصباح، تبثّ التسجيل المقرصن - الذي أجراه أحد هواة التجميع - للحفلة الخالدة التي أحياها عازف البوق لويس أرمسترونغ مع فرقته، ثلاثة أعياد ميلادٍ خلت، في فندق هوتيل ويندسور بالاس ديلا دياغونال. وكان المذيع، خلال الفواصل الإعلانيّة، يتعذّب في تصنيف تلك الألحان عامّةً على أنّها «جيز»، وينوّه بأنّ بعض التشديدات السنكوبيّة لهذا النمط من

الموسيقى السفيهة لا يمكن أن تناسب آذان المستمع المحليّ، الذي تصدَّع رأسُه بأنغام التوناديّا والبوليرو ومستهلّ حركة اليه-يه التي كانت تهيمن على البرامج الإذاعيّة إبّان تلك الأعوام.

اعتاد فيرمين على القول إنّ الدون إسحاق آلبينيث، لو وُلِد زنجيًّا، لكنّا قد شهدنا ابتكار الجاز في كامبرودون، مثل البسكويت المعبّأ في العلبة، وإنّ تلك الألحان - أسوةً بحمّالة الصدر المدبّبة التي تختال بها معبودته كيم نوفاك في أحد الأفلام التي حضرناها في العروض الصباحيّة لسينما فيمينا/الأنثى - كانت تشكّل أبرز الفتوحات النادرة للبشريّة اعتبارًا من مطلع القرن العشرين. قضيتُ بقيّة الصباح بين سحر تلك الموسيقى وعطر الكتب، وأنا أتنعّم بالصفاء والرضا الناجم عن عملٍ بسيطٍ ومُنجَزٍ على أتمّ وجه.

بحسب مزاعمه، أخذ فيرمين إجازةً في الصباح لينهي ترتيبات زواجه ببرناردا، المتوقّعة إقامته في أوائل فبراير. وعندما تكلّم بالأمر قبل أسبوعين، قلنا له جميعًا إنّه كان يتسرَّع، وإنّ العجلة لا تُحمَد عقباها. حاول والدي أن يقنعه بتأجيل الزواج شهرين إضافيّين على الأقلّ، مبرهنًا كلامه بأنّ حفلات الزفاف تقام في الصيف عادةً؛ لكنّ فيرمين أصرّ على ذلك التاريخ مدّعيًا أنّه - وهو المتأقلم النموذجيّ مع الأجواء القاسية والظالمة التي تخيِّم على هضاب الإستريمادورا - كان يتسيّل عرقًا أثناء صيف الساحل المتوسطيّ، شبه الاستوائيّ حسْب أحكامه؛ ولا يعتقد أنّ الأعراف الحميدة توافق على احتفاله بالزواج ملطَّخًا ببقعٍ من العرق - كالطواجن من حيث الحجم - تحت إبطيه.

كنتُ قد فكّرتُ أنّ ثمّة ما يبعث على الاستغراب من ذلك الاستعجال على الزواج، الذي يبديه فيرمين روميرو دي توريس،

وهو الذي كان رايةً خفّاقةً للمقاومة المدنيّة في وجه قداسة أمّنا الكنيسة، فضلًا عن المصارف والعادات الطيّبة التي اجتاحت إسبانيا خلال الخمسينات، ملؤها صلواتٌ ونشراتُ أخبار. ففي أثناء همِّته السابقة للزواج، وصلتْ به الحالُ لتمتين صداقة مع الخوريّ الجديد لكنيسة سانتا آنّا، الدون ياكوبو، القسّ المتحدِّر من بورغوس، صاحب الفكر المنفتح والأساليب التي تجعله أشبَه بملاكمٍ سابق؛ وقد نقل إليه فيرمين عدوى الولع اللامحدود بلعبة الدومينو. كانا في أيّام الأحد، بعد الصلاة، يتواجهان في مبارياتٍ تاريخيّة في مقهى أدميراي، وكان القسّ يضحك من كلّ قلبه عندما يسأله فيرمين، بين كأس وأخرى من مشروب أعشاب مونتسيرات، عمّا إذا كان يعرف يقينًا أنّ للراهبات أفخاذًا، وعمّا إذا كانت - في حال وجودها - طريّةً وقابلةً للعضعضة كما كان يشكّ منذ أيّام مراهقته.

- أنت تسعى إلى الحرمان الكنسيّ. - كان والدي يؤنّبه - لا ينبغي النظر إلى الأخوات ولا لمسهنّ.

- وماذا لو كان الخوريّ أشدّ فجورًا منّي. - يعترض فيرمين - آهٍ لو كان الأمر لا يتعلّق بالرداء. . .

وبينما كنت أتذكّر ذلك النقاش وأدمدم على أنغام بوق المايسترو أرمسترونغ، سمعتُ الجرس المعلّق على باب المكتب يُصدِر رنينه العذب. رفعتُ نظري متوقّعًا أن أرى والدي عائدًا من مهمّته السرّيّة، أو فيرمين مستعدًّا للبدء في دور الظهيرة.

- صباح الخير - قال الصوت، الثقيل والخامل، من عند العتبة.

٣

في انعكاس الضوء، بدا مظهره مثل جذع شجرة جلدتْها الريحُ بسوطها. كان الزائر يرتدي لباسًا غامق اللون ذا طرازٍ بائد، ويرسم ملامح عابسةً متّكئًا على عكّاز. تقدّم خطوةً إلى الأمام، وهو يعرج بشكلٍ واضح. أوضَحَ ضياءُ المصباح على المصطبة وجهًا أتعسه الزمان. حدّق إليّ الزائر بضع لحظات، يفحصني بلا تعجُّل. كانت نظراته تذكِّر بالطير الجارح، صبورةً ومحسوبة.

- حضرتك السيّد سيمبيري؟

- أنا دانيال. السيّد سيمبيري والدي، لكنّه ليس هنا في هذه اللحظة. أيمكنني القيام بشيءٍ ما لحضرتك؟

تجاهل الزائر سؤالي وأخذ يتجوَّل في المكتبة، يتفحَّص كلّ شيء، شبرًا شبرًا، باهتمامٍ لا يتعدّى الشراهة. كان أسلوبه في العَرَج يوحي بأنّ الأذى المتواري تحت تلك الثياب أذًى خطيرٌ بحقّ.

- ذكريات حرب - قال المجهول، كأنّه قرأ أفكاري.

تبعتُ بأنظاري مسارَ تمشيطه للمكتبة، متكهِّنًا إلى أيّ زاويةٍ سيتّجه. وكما توقَّعتُ، توقّف المجهول قبالة خزانة الزجاج وخشب الأبنوس، إحدى البقايا المشيِّدة للمكتبة في أوّل تجسيدٍ لها، قرابة العام ١٨٨٨، عندما عاد جدّي الثالث سيمبيري توًّا من مغامراته في

الأراضي الكاريبيّة، وكان حينذاك شابًّا صغيرًا، فاستدان المال ليشتري محلًّا قديمًا للقفّازات ويحوِّله إلى مكتبة. وكنّا في تلك الخزانة تحديدًا قد تعوَّدنا أن نحتفظ بالنُّسَخ الأعلى قدْرًا، تشريفًا لها.

اقترب الزائر منها ما يكفيه لرسم زفيره على الزجاج. أخرج نظّارةً ووضعها على عينيه وشرع يدرس محتوى الخزانة. ذكّرني سلوكه بامرأةٍ تمحِّص وتدقِّق بحصيلة البيض في خمّ الدجاج.

- جميلة. - غمغم - لا بدّ أنّ ثمنها باهظ.

- إنّها تحفةٌ تخصّ العائلة. قيمتها عاطفيّة، قبل كلّ شيء. - أجبتُ، إحراجًا للتقدير والتقديم اللذين أدلى بهما ذلك الزبون الغريب، حتّى إنّه كاد بنظراتِه يحسدنا على الهواء الذي نتنفّسه.

أعاد نظّارته إلى محلّها بعد قليل، وتحدَّث بنبرة هادئة.

- تبيَّن لي أنّ رجلًا، لا يُشقّ لعبقريّته غبار، يعمل عندكم.

وبما أنّي لم أجب مباشرةً، التفت وسدّد إليّ تلك النظرات التي يشيخ مَن يقع تحت هدفها.

- إنّني بمفردي، كما ترى. إذا قلتَ لي حضرتك عنوان الكتاب الذي ترغب فيه، بحثتُ لك عنه بكلّ سرور.

استلّ الدخيلُ ابتسامةً تعني كلّ شيءٍ عدا أنّها ودّيّة، وأومأ برأسه.

- أرى أنّ لديكم في تلك الخزانة نسخةً من «الكونت دي مونتكريستو»؟

لم يكن أوّلَ زبونٍ يلاحظ وجود ذلك الكتاب. رويتُ على مسمعه الخطاب الرسميّ المعتَمَد في مناسبات مشابهة.

- السيّد لديه عينٌ ثاقبة. نتكلّم عن طبعةٍ نفيسة، مرقّمة، ومزوّدةٍ بالرسومات المنقوشة بيد أرثر راخام، وقد وصلتْنا من المكتبة الشخصيّة لأكبر مولعٍ بالتجميعات النادرة في مدريد. إنّها قطعةٌ فريدة من نوعها، ومُسجَّلة.

أصغى الزائرُ بلا اهتمام، مركِّزًا انتباهه على صلابة أُطُر الرفوف المصنَّعة من خشب الأبنوس، وقد أبدى ضجره من كلماتي بكلّ وضوح.

- بالنسبة إليّ، كلّ الكتب تبدو متشابهة، لكنّ زُرقة الغلاف تعجبني. - ردّ بنبرةٍ ازدراء. - سآخذه.

في ظرفٍ مماثل، كنت سأقفز فرحًا من إمكانيّة بيع ما قد تكون النسخة الأغلى ثمنًا في محلّنا، لكنّ أمعائي كانت تتقلّب من فكرة أن تؤول طبعةٌ كتلك في يدي هذه الشخصيّة. تملّكني إحساسٌ بأنّ أحدًا لن يقرأ حتّى الفقرة الأولى من ذلك الكتاب، في حال خروجه من المكتبة.

- إنّها طبعة مكلفةٌ جدًّا. يمكنني أن أعرض على حضرتك، إذا رغبتَ، طبعاتٍ أخرى من العمل ذاته، حالتها ممتازة وأسعارها معقولة.

يعمد صغار النفوس دائمًا إلى تقزيم الآخرين. رماني ذلك المجهول - الذي كان قادرًا على إخفاء نفسه في رأس دبّوس، كما استنتجتُ - رماني بأشرس ما عنده من نظرات احتقار.

- وأغلفتها زرقاء أيضًا - أضفتُ.

تجاهل سفاهة السخرية في كلماتي.

- لا، شكرًا. أريد هذه. لا يهمّني السعر.

أومأتُ بأسنانٍ مشدودة واتّجهتُ نحو الخزانة. أخذتُ المفتاح

وفتحتُ بابها الزجاجيّ. وشعرتُ أنّ عيون ذلك الدخيل مُسمَّرةٌ على ظهري.

- كلّ الأشياء النفيسة مُقفَلةٌ بالمفتاح. - غمغم.

أخرجتُ الكتاب وتنهّدتُ.

- هل السيّد جامعُ تُحَف؟

- لنا أن نقول ذلك. حتّى لو لم تكن التُّحف كتبًا.

التفتُّ إليه والكتاب بين يديّ.

- وما الذي تجمعه؟

تجاهل الغريبُ سؤالي مرّةً أخرى، ومدّ يده ليمسك بالكتاب. قاومتُ رغبتي في إعادته إلى الخزانة، ورمي المفتاح بعيدًا. لم يكن والدي ليغفر لي رفض بيعة موفّقةٍ كهذه، نظرًا إلى صعوبة الوضع الذي نمرّ فيه.

- سعره خمسةٌ وثلاثون بيسيتا. - أفصحتُ قبل أن أعطيه الكتاب، آملًا أن يغيّر الرقم فكرته.

أومأ دون أن يرفّ له جفن، وأخرج ورقةً نقديّة بقيمة مئة بيسيتا من جيب لباسه الذي لم يكن يساوي خمسة قروش. تساءلتُ إن كنت بصدد عملةٍ مزوّرة.

- أخشى أن لا يكون لديّ المرتجع يا سيّدي.

كنت سأدعوه للانتظار لحظةً واحدة بينما أهرَع لأقرب مصرف وأغيّر الورقة النقديّة وأتأكّد من صحَّتها، لكنّي لم أشأ أن أتركه بمفرده في المكتبة.

- كن مطمئنًّا. إنّها صحيحة. هل تعلم كيفيّة التأكّد من العملة المزوّرة؟

رفع الدخيلُ الورقة النقديّة إلى عكس الضوء.

- لاحِظ الشريط. وهذي الخطوط. والتركيب...
- هل السيّد ضليعٌ بالتزوير؟
- كلّ شيء زائفٌ في هذه الحياة، أيّها الفتى. كلّ شيء، ما عدا النقود.

وضع الورقة النقديّة في يدي وأحكَمَ قبضتي عليها، وضرب بكفّه على براجمي.

- سأترك الباقي لزيارتي القادمة - قال.
- لكنّها أموالٌ كثيرةٌ يا سيّدي. خمسةٌ وستّون بيسيتا...
- فكّة.
- سأقدّم لك إيصالًا بأيّ حال.
- لا داعي، فأنا أثق بك.

عاين المجهولُ الكتابَ بحياديّةٍ تامّة.

- إنّه هديّة. سأطلب منك شخصيًّا تسليمها.

تردّدتُ برهةً.

- لا نقوم بخدمة التوصيل، من حيث المبدأ، لكنّنا في هذه الحالة سنسلّمها شخصيًّا وبكلّ دواعي السرور بلا أجرٍ إضافيّ. هل لي أن أسألك إن كان المستلِم في برشلونة أم...؟
- إنّه هنا تحديدًا. - قال.

كان جمود نظرته يكشف عن أعوام من غضبٍ وحقد.

- هل ترغب حضرتكم في إهداءٍ أو كتابة ملحوظة شخصيّة قبل أن أغلّف الكتاب؟

فتحه الزائرُ على صفحة العنوان بمشقّة. لاحظتُ حينذاك أنّ يده اليسرى اصطناعيّة، كأنّها قطعة خزفيّة ملوّنة. أخرج قلم حبرٍ وكتب بعض الكلمات. وأعاد إليّ الكتاب واستدار. رأيتُه يعرج نحو الباب.

- هلّا حدّدتَ لي اسم المستلم وعنوانه من فضلك؟ - سألتُ.

- كلّ البيانات موجودةٌ هناك - قال دون أن يلتفت. فتحتُ الكتاب وبحثتُ عن الصفحة التي كتب عليها ذلك المجهول:

إلى فيرمين روميرو دي توريس، الذي عاد من عالم الأموات، ويمتلك مفتاح المستقبل.

١٣

تناهى إلى مسمعي جرس المدخل عندئذ، وحين رفعتُ عينيّ كان الزائر قد مضى.

هرعتُ نحو الباب وأطللتُ برأسي إلى الشارع. كان المجهول يبتعد بمشيته العرجاء، ليختلط في الأطياف التي تعبر حجاب الضباب النيليّ الذي ساد شارع سانتا آنّا. كدتُ أناديه، لكنّي عضضتُ لساني. أسهل ما يمكن فعله هو أن أدعه يمضي في حال سبيله بكلّ بساطة، لكنّ الغلبة كانت للغريزة وأصالة انعدام التبصُّر والحسّ العمليّ عندي.

٤

علّقتُ لافتة «مغلق» على الباب وقفلتُه بالمفتاح، وتهيَّأتُ لتعقُّب ذلك المجهول بين الزحام. كنت أعلم أنّ والدي سيمطرني بحفلة توبيخ إذا عاد واكتشف أنّني أهملتُ شؤون المكتبة خلال الأزمة التي كنّا نواجهها بسبب قلّة المبيعات. لكنّني أثناء سيري، انتظرتُ وحيًا يلهمني بحُجّةٍ ما. آثرتُ أن أواجه مزاج والدي الليِّن على أن يعصف بي الارتيابُ الذي خلَّفه مرورُ تلك الشخصيّة الشقيّة، ناهيك بالتوجُّس من طبيعة علاقته بفيرمين.

لدى بائع الكتب فرصٌ قليلة لتعلُّم فنون ملاحقة الشكوك ميدانيًّا دون أن يكتشف أحدٌ سرَّه. ولئن كان القسم الأعظم من زبائنه يندرجون في قائمة المماطلين، فإنّ غالبيّة تلك الفرص تتاح له من خلال قائمة الروايات البوليسيّة والروايات الشعبيّة المعروضة للبيع على رفوف محلّه. الرداء لا يصنع الراهب، إلّا أنّ الجريمة - أو افتراض وقوعها - تصنع المحقّقين، لاسيّما الهواة منهم.

وبينما كنت ألاحق المجهول باتّجاه لاس رامبلاس، أنعشتُ ذاكرتي بالمبادئ الأساسيّة، ابتداءً من ترك مسافة خمسين مترًا بيننا، متخفيًّا وراء أحدٍ ما أكثر ضخامة منّي، والتفطُّن المستمرّ إلى أيّ مخبأ سريع خلف إحدى البوّابات أو في محلٍّ ما، في حال توقّفت طريدتي

أو التفتت من دون سابق إنذار. وحين وصل الرجل إلى أعتاب لاس رامبلاس، قطع الشارع حتّى بلغ الجادّة المركزيّة وتوجّه صوب الميناء. كانت الطرقات تعجّ بالزينة الميلاديّة التقليديّة، كما أنّ أكثر الباعة ملأوا الواجهات بمختلف الأضواء والنجوم والملائكة التي تَعِد بالخير الذي لا بدّ أن يكون واقعيًا - إن تحدَّث الراديو بشأنه.

كانت أعياد الميلاد، في تلك الأعوام، ما تزال تحتفظ بطقوسٍ معيّنة توحي بالسحر والغموض. ذلك لأنّ ضوء الشتاء الغباريّ، ممزوجًا بتطلّعات الناس الذين يعيشون ما بين الصمت والظلال، كان يمنح تلك الزينة شيئًا من عطر الحقيقة، التي قد يؤمن بها الأطفال وأولئك الذين تعلَّموا النسيان على الأقلّ.

ولعلّ هذا ما جعلني أتيقّن من أنّ ذلك المجهول - الهدف الذي ألاحقه - كان أكثر الشخصيّات فرادةً وتلاؤمًا مع أجواء الميلاد، من بين كلّ تلك الأطياف المتزاحمة. كان يعرج ببطء وغالبًا ما توقَّف عند إحدى عربات باعة الأزهار أو الطيور، مبديًا إعجابه بالببغاوات والأزهار كأنّه يراها للمرّة الأولى. اقترب مرّتين من الأكشاك المتمركزة في لاس رامبلاس وتوقَّف لينظر في افتتاحيّات الجرائد، ويدوِّر حمّالة البطاقات. بوسعنا أن نقول بأنّه لم يكن قد جاء إلى هناك إطلاقًا، وأنّه يتصرَّف كالأطفال أو السيّاح الذين يتنزّهون في أرجاء لاس رامبلاس للمرّة الأولى، مع أنّ الأطفال والسيّاح يتمتّعون بملامح البراءة العابرة التي يبديها مَن لا يدري أين هو، في حين أنّ ذلك الفرد لا يُظهِر أيّ شكلٍ من أشكال البراءة، حتّى لو كان يباركها تمثالُ يسوعِ الطفل بنفسه، الذي تجاوزه الرجلُ ليقطع الشارع على مستوى كنيسة بيلين.

توقّف عندئذ، وبدا مفتونًا بببغاء الكوكاتو ذي الريش الزهريّ

الفاقع الذي كان ينظر إليه بطرف العين من قفصٍ على إحدى عربات الحيوانات المتربّصة أمام منفذ بويرتافيرّيسا. دنا المجهول من القفص مثل دنوّهِ من الخزانة في المكتبة، وأخذ يهمهم بعض الكلمات نحو الكاكاتو. صمد الطائر الاستثنائيّ - ذو الرأس الضخمة، والشبيه بالديك الكبير من حيث انبساط الجناحين - صمد أمام أنفاس الرجل الكبريتيّة، وتصرَّف برزانة وتركيز، ما يوحي إلى اهتمامه بما يقوله الرجل. وكان الكاكاتو، تجنُّبًا للالتباس، يومئ برأسه مرارًا وينفش عُرفه ذا الريش الزهريّ، متأثّرًا بكلّ وضوح.

وبعد دقيقتين من الهناء بتلك المحادثة الطيريّة، تابع الرجل مشواره. ولم تكد تمرّ ثلاثون ثانية، بينما كنت أمرّ قبالة العربة، حتّى لاحظتُ حدوث بلبلة صغيرة. غدا البائع مستنفرًا، يسارع إلى تغطية قفص الكاكاتو بغطاءٍ قماشيٍّ، لأنّ الطائر كان، بنطقٍ سليم، يردّد البيت الذي يقول: «فرانكو الجبانُ المرتاع، لا ينتصب معه إلّا الذراع». لم يكن لديّ أدنى شكّ فيمَن علّمه إيّاها. كان ذلك الرجل يثبت، على الأقلّ، بأنّ لديه حسَّ دعابة وقناعاتٍ فيها مخاطرة كبيرة؛ أشياءَ كانت من الندرة بقدْر ما كانت عليه التنانير فوق الركبة.

شردتُ بسبب تلك الإشكاليّة، فظننتُ أنّني أضعتُ خطى الرجل، وسرعان ما حدّدتُ طيفه الحائل عند واجهة محلّ المجوهرات باغويس. اجتزتُه متظاهرًا بأنّني لم أره حتّى بلغتُ أحد الأكواخ الصغيرة للكتّاب العموميّين، والتي كانت تحاذي مدخل بالاسيو دي لا ڤيرّينا، وجعلتُ أمعن في مراقبته. كانت عيناه تلمعان كالياقوت، ولا بدّ أنّ منظر الذهب والأحجار الكريمة خلف الزجاج المضادّ للرصاص قد أيقظ فيه فجورًا لم يكن ليُشبِعه طابورٌ كامل من راقصات الكرويا في أوج سنوات مجدهنّ.

- ها يا فتى. رسالة حبّ؛ عريضة؛ استرحام من سموّه حسب طلبك؛ برقيّة مستعجلة إلى الأهل في القرية: نحيطكم-علمًا-أنّنا-بخير-جميعًا؟

كان الكاتب العموميّ، المقيم في الكوخ الذي اتّخذتُه مخبأ، قد أطلّ برأسه كأنّه راهبٌ يُشرِف على الاعترافات، وكان ينظر إليّ راغبًا في عرض خدماته عليّ. الإعلان على النافذة يقول:

أزڤالدو داريو دي مورتنسن **مفكّرٌ وأديب** **متخصّصٌ في كتابة رسائل حبّ، طلبات استرحام،** **وصايا، قصائد، بطاقات تهنئة،** **تضرُّعات، شهادات وفاة،** **أناشيد، أطروحات تخرُّج، عرائض** **ومختلف المؤلَّفات الأخرى** **بكافّة الأساليب والأوزان.** **عشرة قروش على الجملة الواحدة (القوافي إضافيّة).** **أسعار خاصّة** **للأرامل والمتضرّرين والقُصَّر.**

- ما قولك يا فتى؟ أترغب في رسالة حبٍّ كتلك التي تبلّل سراويلَ الفتيات الناضجات بعبير الوله؟ سأعطيك سعرًا خاصًا لا أعطيه إلّا لحضرتك.

أظهرتُ له خاتم الزواج. فأبدى الكاتب أزفالدو عدم اكتراثه، وقال بجسارة:

- إنّنا في زمن الحداثة. لو كنتَ تدري كم رجلًا متزوّجًا وامرأةً متزوّجة يأتون إلى هنا. . .

أعدتُ قراءة الإعلان: كان يرنّ في ذهني بصدًى مألوف، لكنّني لم أتمكّن من تحديده.

- يبدو لي أنّني سمعتُ اسمك. . .

- لقد عشتُ زمانًا أفضل. وربّما ظلّ اسمي عالقًا في ذاكرتك منذ ذلك الحين.

- أهو اسمك الحقيقيّ؟

- اسمٌ فنيّ[1]. الفنّان بحاجةٍ إلى لقبٍ يناسب مهمّته. اسمي في شهادة الميلاد خينارو ريبويو، فمَن سيثق بصاحب اسمٍ كهذا ليفوِّضه بتأليف رسالة حبّ؟ والآن، ما قولك بعرض هذا النّهار الذي لا يُفوَّت؟ هل نحن مستعدّان لكتابة رسالة تفيض ولهًا وشبقًا؟

- ربّما في فرصة قادمة.

هزّ الكاتب رأسه مُذعِنًا. وتابع نظرتي ثمّ قطّب جبينه مستغربًا.

- أنت تنظر إلى الأعرج، أليس كذلك؟ - ارتجل قائلًا.

- هل تعرفه حضرتك؟ - سألتُ.

- أراه يمرّ من هنا كلّ يوم منذ أسبوع تقريبًا، ويتوقّف هناك، عند واجهة محلّ المجوهرات، ينظر فيها مسحورًا، كما لو أنّ مؤخّرة الجميلة دوريتا معروضةٌ بدلًا من الخواتم والأطواق.

- هل تحدّث إليك ذات مرّة؟

---

(١) بالفرنسيّة في الأصل: *Nom de plume*. المترجم.

- قبل البارحة، كتب له أحد زملائي رسالةً رائعة؛ بما أنّه فَقَدَ بعض أصابعه. . .

- ومن يكون ذلك الزميل؟ - سألتُ.

نظر إليّ الكاتب متردّدًا، وكان يخشى أن يضيّع زبونًا محتملًا إن هو أجاب عن سؤالي.

- لويسيتو، الذي في الجانب الآخر، بجانب بيت بتهوفن، وجهه يشبه وجوه طلّاب معهد القساوسة.

عرضتُ عليه بعض النقود كعلامة شكر، لكنّه رفضها.

- أنا أتقاضى أجرًا كي أعيش، بالقلم لا بالمنقار. وهناك الكثير الكثير ممّن ينتمون إلى ذلك النوع. إن واجهتَ مشكلة عويصة في قواعد اللغة يومًا ما، فإنّني هنا.

أعطاني بطاقته المطابقة لما ورد في إعلانه.

- من الاثنين لغاية السبت، من الثامنة لغاية الثامنة. - حدّد - أزفالدو، جنديّ الكلمة في خدمتكم وخدمة قضيّة مراسلاتكم.

احتفظتُ بالبطاقة وشكرتُه على المساعدة.

- سيهرب العصفور من بين يديك. - حذّرني.

التفتُّ واستطعتُ أن أرى الرجل الذي استعاد مسيره في تلك الأثناء. سارعتُ إلى تعقّبه ولحقتُ به إلى أسفل باتّجاه لاس رامبلاس حتّى مدخل سوق بوكويريا، حيث توقّف ليراقب منظر المقاعد والأشخاص في دخولهم وخروجهم يحملون أو ينزّلون مأكولاتهم اللذيذة. رأيته يعرج حتّى وصل إلى مصطبة حانة بينوتشو وتسلّق على أحد كراسيّها الطولانيّة بمشقّة، لكنّه كان متحمّسًا. ظلّ المجهول قرابة نصف ساعة يحاول أن يشرّف النادل خوانيتو بتناول أشهى الطعام الذي جاء به، لكنّني أحسستُ أنّ صحّته لم تكن لتسمح

له بإفراطٍ في الأكل، وأنّه كان يأكل بعينيه أكثر من أيّ شيء آخر، كما لو أنّه - في طلبه للأطباق والمقبّلات التي بالكاد يتذوّقها - يستحضر زمانًا بعيدًا كان فيه شوكةً قاضية. جوف الفم لا يستطعم، إنّما يتذكّر فقط. وفي النهاية، بعد أن استسلم لتقشُّفه الغذائيّ واكتفائه بالتمتُّع الزاهد برؤية الآخرين ينهمون ويلعقون شواربهم، دفع الحساب واستأنف رحلته القاريّة حتّى وصل إلى منفذ شارع سان بابلو، هناك حيث فرادةُ العمران البرشلونيّ، الذي ليس له مثيل، تُفسِح المجالَ لالتقاء أحد أكبر مسارح الأوبرا في أوروبا العجوز، بأحد أكثر الأماكن فناءً وغوغائيّةً وقذارةً في نصف الكرة الشماليّ.

٥

في تلك الساعة، كان بحّارةُ مختلف السفن التجاريّة والعسكريّة، الراسية في المرفأ، يتدافعون نحو لاس رامبلاس ليُشبِعوا نفوسَهم من ملذّاتٍ متعدّدة الأذواق. ونظرًا إلى ذلك الطلب، كان العرض منتشرًا عند زوايا الطرقات على هيئة جماعاتٍ لنسوةٍ مُعَدَّاتٍ للشحن، بما يوحي بأنّهنّ مزوَّداتٌ بعدَّادٍ وفيرٍ للمسافات الكيلومتريّة وبعرضٍ بأسعارٍ في منتهى العقلانيّة للطواف على متن السفينة. تخوَّفتُ ممّا لاحظتُه من تنانير مقطّعة الأوصال تُبرِز دمامل السيقان وامتقاعها البنفسجيّ الذي يؤذي العيون، والوجوه الذاوية والملامح العامّة التي تشير إلى المحطّة الأخيرة ما قبل التقاعد، والتي كانت تهيِّج كلّ شيء ما عدا الشهوة. ينبغي أن يكون البحّار قد أمضى شهورًا عديدة في أعالي البحار كي يستمرئ ذلك الطُّعم - فكّرتُ - لكنّي فوجئتُ بالرجل المجهول يتوقّف للدردشة مع اثنتين من أولئك النساء اللواتي طحنتْهنّ فصولُ ربيعٍ ذابلةٌ بلا رحمة، كأنّهنّ حسناواتُ مراقصَ من الدرجة العليا.

- مرحبًا يا قلبي، بوسعي اقتلاع عشرين عامًا من عمرك بخبطة واحدة. - سمعتُ إحداهنّ تقول، وهي التي قد تكون شبيهةً بجدّة الكاتب العموميّ أزڤالدو.

بخبطةٍ واحدة تستطيعين قتله، قلت في نفسي. رفض الرجل الدعوة، بحركةٍ تنمّ عن رزانته.

- مرّةً أخرى، أيّتها الجميلة. - أجاب وهو يلج إلى حيّ الرافال.

ما زلت أتبعه على بُعد مئة متر تقريبًا إلى أن توقّف أمام بوّابةٍ ضيّقة ومظلمة قبالة نزل أوروبا تقريبًا. رأيتُه يختفي فيها، وانتظرتُ نصف دقيقة قبل أن ألحق به.

بعد أن اجتزتُ العتبة، وجدتُ نفسي أمام مرقًى تغمره الظلمة ليضيع في أحشاء ذلك المبنى الذي خُيِّل إليّ مائلًا كالسفينة إلى الجانب الأيسر، وبدا موشكًا على الغرق في سراديب الرافال، بسبب عفن الرطوبة ومصاعب تصريف المياه العادمة. ثمّة ما يشبه الكوخ على أحد جوانب البهو، وفيه رجلٌ بتقاسيم وجهٍ لزجة، مهندمًا بقميصه الداخليّ، وحمّالة البنطال، وَعُود الأسنان بين شفتيه، وفي جواره مذياعٌ صغير مثبَّتٌ على إرسال المحطّة التي تعنى بالثيران؛ رماني بنظرةٍ فيها من التحرّي والعداء ما فيها.

- هل أنت بمفردك؟ - سأل بنبرةٍ متواطئة وغامضة.

لست بحاجة إلى فطنة الوشق كي أستنتج أنّني عند أبواب بنايةٍ تُؤجَّر فيها الغرف بالساعة، وأنّ الملاحظة الوحيدة الناشزة على زيارتي هي أنّني لم آتِ برفقة إحدى العذراوات، من السوق الرخيصة، اللواتي كنّ يحرسن الأرصفة.

- سأرسل إليك فتاةً، إن أردتَ - عرض عليّ، وهو يُعِدُّ لي كيس المنشفة وقطعة الصابون إضافةً إلى ما فهمتُ أنّه واقٍ ذكريّ أو إحدى أدوات الحيطة من غفلة اللحظة الأخيرة.

- في الحقيقة، أردتُ أن أطرح عليك سؤالًا ليس إلّا - بادرتُ.

فرك البوّاب عينيه.

- عشرون بيسيتا على كلّ نصف ساعة، ولك أن تختار الفرخة بنفسك.

- عرضٌ مغرٍ. ربّما آتي في يوم قادم. أردتُ أن أسألك عن رجلٍ صعد إلى هنا قبل دقيقتين. عجوز. ولا يتمتّع بصحّة جيّدة. وحيد. وليس برفقته أيُّ فرخة.

قطّب البوّاب حاجبيه. شعرتُ أنّ نظراته سرعان ما حطّت من شأني إلى زبونٍ مزعجٍ.

- لم أر أحدًا. هيّا، اختفِ قبل أن أنادي تونيت.

تخيّلتُ أنّ تونيت هذا ليس بالشخص الودود. وضعتُ على المصطبة ما تبقّى لديّ من نقود، وابتسمتُ في وجه البوّاب بتعبيرٍ مسالم. اختفت النقود كما لو كانت حشرةً ما، فيما بدت يدا البوّاب - الذي قد ركّب على أصابعه كشتباناتٍ بلاستيكيّة - مثل لسان حرباء. تلاشت النقود بغمضة عين.

- ما الذي تودّ معرفته؟

- هل الرجل الذي سألتك عنه يسكن هنا؟

- لقد استأجر غرفة منذ أسبوع.

- هل تعرف اسمه؟

- لقد دفع أجرة شهر سلفًا، لذا لم أسأله عن اسمه.

- هل تعلم من أين أتى، وماذا يفعل...؟

- هذا ليس مكتب استشارة عاطفيّة. لا نثقل بأيّ سؤالٍ على مَن يأتي إلى هنا لارتكاب المعاصي. افهمْ بنفسك.

تمعّنتُ في المسألة.

- كلّ ما أعرفه - أضاف البوّاب - أنّه يخرج بين الفينة والفينة

لوقت قصير ثمّ يعود. يطلب منّي أحيانًا أن أبعث إليه قنّينة نبيذ وخبزًا وعسلًا. يدفع مبلغًا معتبرًا ولا يتلفّظ بأيّ شيء.

- وهل حضرتك متأكّد من أنّك لا تذكر له اسمًا؟

هزّ رأسه نافيًا.

- حسنًا. شكرًا ومعذرةً عن الإزعاج.

كنت على وشك الخروج عندما ناداني البوّاب.

- روميرو - قال.

- عفوًا؟

- يبدو لي أنّه قال إنّه يُدعى روميرو أو شيئًا من هذا القبيل...

- روميرو دي توريس؟

- أجل.

- فيرمين روميرو دي توريس؟ - ردّدتُ غير مصدِّق.

- بعينه. ألم يكن هناك مصارع ثيران بهذا الاسم قبل الحرب؟

- سأل البوّابُ - لقد قلتُ لنفسي إنّه يذكّرني بأحدٍ ما...

٦

عدتُ أدراجي نحو المكتبة، وقد ازددتُ تشوُّشًا بأكثر ممّا كنتُ عليه قبل الخروج. وبينما كنت أمرّ أمام البالاسيو دي لا فيرّينا، حيّاني الكاتب العموميّ إيّاه بيده.

- هل حالفك الحظّ؟ - سأل.

هززتُ رأسي بالكاد، نافيًا.

- جرّب أن تسأل لويسيتو، لعلّه يذكر شيئًا ما.

أومأتُ موافقًا ودنوتُ من كوخ لويسيتو، الذي كان في أثناء ذلك ينظّف مجاميع ريش الأقلام الصغيرة. ابتسم عندما رآني، ودعاني للجلوس.

- بم يتعلّق الأمر؟ بالحبّ أم بالعمل؟

- أرسلني إليك زميلك أزڤالدو.

- بل إنّه معلّمنا جميعًا. - أعرب لويسيتو الذي لم يكن قد تجاوز حتّى الخامسة والعشرين عامًا من عمره - إنّه أديبٌ كبيرٌ لم يقدِّر العالمُ قيمته، وها هو هناك، على الرصيف، يعمل بالكلمات في خدمة الأمّيّين.

- قال لي أزڤالدو إنّك خدمتَ رجلًا عجوزًا أوّل البارحة، رجلًا

أعرج ومعتلًّا بما فيه الكفاية، له يدٌ مبتورة وقد فَقَدَ عدّة أصابع من الأخرى. . .

- أذكره. أصحاب الأيدي المبتورة، لا أنساهم أبدًا. تكريمًا لثربانتس، أليس كذلك؟

- واضح. هلّا أخبرتني عن المسألة التي اتّجه بها إليك؟

اضطرب لويسيتو على كرسيّه، مُحرَجًا من الانعطافة التي سلكتها محادثتُنا.

- انظر، هذا المكان أشبَه بكرسيّ اعتراف. حرمة الخصوصيّة قبل أيّ شيء في مهنتنا.

- أعي ذلك. إلّا أنّني بصدد مسألة خطيرة.

- ما حجم الخطورة؟

- ما يكفي لتهديد حياة أشخاصٍ غالين على قلبي.

- أجل، ولكن. . .

مدّ لويسيتو عنقه وبحث بعينيه عن المعلّم أزڤالدو الذي كان في الجانب الآخر من الفِناء. رأيتُ أزڤالدو يومئ برأسه، فارتاح لويسيتو.

- كان لدى ذلك الرجل رسالة مكتوبة أساسًا وأراد أن ينمّق خطّها، لأنّ يده. . .

- وما فحوى الرسالة؟

- بالكاد أذكره. لك أن تتخيَّل كم رسالةً نكتب في اليوم. . .

- ابذلْ جهدًا يا سيّد لويسيتو. تكريمًا لثربانتس.

- إن لم أخلط بينها وبين رسالة زبون آخر، أعتقد أنّها تتعلّق بمبلغٍ معتَبرٍ من المال، كان يجب أن يستلمه ذلك الرجل المبتور، أو

يسترجعه، أو شيء من هذا القبيل. إضافةً إلى أمرٍ آخر يتعلّق بمفتاحٍ ما.

- مفتاح.

- بالضبط. ولم يحدِّد ما إذا كان المفتاح إنكليزيًّا، أم مفتاح ماء، أم مفتاح باب.

ابتسم لويسيتو في وجهي، راضيًا بكلّ وضوح عن إسهامه البسيط من الفطنة والدعابة في المحادثة.

- هل تتذكّر شيئًا آخر؟

مسح لويسيتو شفتيه بلسانه، وسَرَحَ يفكّر.

- قال إنّه يرى المدينة قد تغيَّرتْ كثيرًا.

- تغيَّرت، بأيّ معنى؟

- لا أدري. تغيَّرتْ. لم يعد فيها أمواتٌ يملأون الطرقات.

- أمواتٌ يملأون الطرقات؟ هل قال هذا؟

- إن لم تخنّي الذاكرة...

٧

شكرتُ لويسيتو على المعلومات وأسرعتُ الخطى آملًا أن يحالفني الحظّ في الوصول إلى المكتبة قبل أن يعود والدي من مهمّته ويكتشف غيابي. وجدتُ لافتة «مغلق» ما تزال معلَّقةً على الباب. فتحتُه ونزعتُ عنه اللافتة وتمركزتُ خلف المصطبة، متيقّنًا من أنّ أحدًا من الزبائن لم يقصد إلى المكتبة في غيابي الذي استغرق حوالى خمسًا وأربعين دقيقة.

ونظرًا إلى انعدام الشغل، رحتُ أفكّر في ما ينبغي فعله بنسخة «الكونت دي مونتكريستو»، وبكيفيّة التعامل مع المسألة عند مجيء فيرمين إلى المكتبة. لم أشأ إثارة مخاوفه أكثر من اللازم، لكنّ زيارة ذلك المجهول، ومحاولتي الفاشلة باكتشاف نواياه، خلَّفتْ في نفسي شعورًا بالقلق. لو كان الموضوع اعتياديًا، لاكتفيتُ بإطلاعه عليه، لكنّني فكّرتُ أنّه ينبغي لي التعامل بحذر هذه المرّة. إذ إنّ فيرمين كان يبدو محبطًا ومكدَّر المزاج منذ مدّة. وكنت منذ ذلك الحين لا أتوانى عن رفع معنويّاته بنكاتي الساذجة، لكنّني لم أفلح في انتزاع ابتسامةٍ واحدة منه مطلقًا.

– فيرمين، لا تنفض الغبار عن الكتب أكثر ممّا يجب، يُقال إنّ الأدب الأسود هو الذي سيكتسح السوق قريبًا، لا الروايات الزهريّة

- كنت ألمّح إلى اللون الذي تمّ اعتماده آنذاك لتسمية الروايات البوليسيّة التي كانت تصلنا بالتقطير، وبترجمات مدلّسة.

وبصرف النظر عن إجابته بابتسامةٍ مُشفِقة على نكتة ضعيفة كتلك، كان فيرمين يتشبّث بأيّ شيء كي يباشر إحدى مرافعاته عن الغمّ والغثيان.

- كلُّ الرواياتِ ستصبح سوداء في المستقبل. فإذا كان للنصف الثاني من هذا القرن، المخصّص للسفّاحين، عطرٌ مهيمن، فإنّه عطر البهتان والجريمة، وأقولها توريةً.

ها نحن ذا، قلت لنفسي. نهاية العالم بحسب القدّيس فيرمين روميرو دي توريس.

- لن يكون الوضع خطيرًا إلى ذلك الحدّ يا فيرمين. عليك بالتنعّم بأشعّة الشمس. قبل أمس، قالت الصحف إنّ الفيتامين د ينمّي الثقة بالآخر.

- وقالت أيضًا إنّ ديوان شعرٍ مقيتًا، ألّفه أحد لقطاء فرانكو، حقّق نجاحًا باهرًا في المشهد الأدبيّ العالميّ، مع أنّهم لا يبيعونه في أيّ مكتبة أبعد من موستوليس. - ردّ.

عندما يسلّم فيرمين أمره للسوداويّة الكونيّة، فإنّ أفضل ما يمكن فعله هو عدم الوقوف بجانبه في ذلك.

- أتعلم يا دانيال؟ أفكّر أحيانًا أنّ داروين قد أخطأ، وأنّ الإنسان في الحقيقة ينحدر من سلالة الخنازير. فبين ثمانية من القِرَدة العليا، من أصل عشرة، ثمّة نَجِسٌ ينتظر اكتشاف أمره. - كان يحاجج.

- فيرمين، إنّي أفضّلك عندما تقدّم رؤيةً أكثر إنسانيّةً وإيجابيّةً،

مثلما حدث قبل أيّام، عندما قلتَ إنّه لا وجود للشرّ في كُنه البشر، إنّما مجرَّد خوف.

- لا بدّ أنّ نسبة السكّريّات عندي تعرَّضت لهبوط حادّ يومها. يا لها من مقولة غبيّة.

في تلك الأيّام، كنت أشهد تقهقرًا وانهزامًا لفيرمين الساخر الذي كنت أحبّ أن أتذكّره؛ ليحتلّ مكانه رجلٌ عذَّبته الهموم والتوجُّسات التي كان حريصًا على عدم الإفصاح عنها. وعندما يظنّ أنّ أحدًا لا يراه أحيانًا، كان يبدو لي منطويًا على نفسه في الزوايا، تنهشه اللوعة من الداخل. فقد كثيرًا من وزنه، وبما أنّه شبيهٌ بالكائن الغضروفيّ، بات مظهره يبعث على القلق. وقد أحطته علمًا بهذا مرّتين، لكنّه كان ينفي وجود أيّ مشكلة ويتملّص بأعذارٍ رائعة.

- لا شيء يا دانيال. كلّ ما في الأمر أنّني، مذ واظبتُ على متابعة الدوريّ الكرويّ، ينخفض ضغطي كلّما خسر البرشا. إنْ هي إلّا قطعة صغيرة من جبن المانشيغو وأعود ثورًا مثلما كنت.

- هل أنت متأكد؟ كيف وأنت لم تذهب إلى الملعب في حياتك إطلاقًا...

- هذا ما تتوهَّمه حضرتك. أنا وكوبالا[1] قد ربينا معًا فعليًّا.

- لكنّي أراك قد غدوتَ حطامًا. إمّا أنّك مريض وإمّا أنّك لا تعتني بنفسك أبدًا.

وعلى حين غرّة، كان يريني اثنين من عضلاته الكبيرة بحجم

---

(١) Ladislav Kubala (١٩٢٧ - ٢٠٠٢): لاعب كرة قدم ومدرّب، من أصول هنغاريّة. قدّم أداءً رائعًا في صفوف نادي برشلونة ما بين ١٩٥١ - ١٩٦١. المترجم.

حبَّاتِ الملبَّس، ويبتسم كما لو أنّه يبيع معجون الأسنان عند أبواب الناس.

- تلمَّسْ، تلمَّسْ. فولاذٌ مصقول، مثل سيف السيّد المغوار[1].

عزا والدي تهافتَ حال فيرمين إلى العصاب الذي اجتاحه بخصوص الزفاف وتعقيداته، بما فيها محاباة الإكليروس والبحث عن مطعمٍ أو كشكٍ ينظّم فيه الوليمة؛ إلّا أنّني كنت أرى في تلك التعاسة جذورًا أعمق كثيرًا. كنت أفكّر في ما إذا كانت الفرصة مناسِبةً لإعطائه الكتاب وإخباره بما وقع ذلك الصباح، أم أن أنتظر لحظةً مواتيةً في قادم الأيّام؛ فإذا هو يتجلّى عند الباب بهيئةٍ لا تخرج عن سياق المآتم. وما إن رآني حتّى تعنّى برسم ابتسامة واهية وأدّى تحيّةً عسكريّة.

- تباركتِ العيونُ التي تراك يا فيرمين. ظننتُ أنّك لن تأتي.

- كنت مارًّا قرب محلّ الساعات، فاستوقفني الدون فدريكو ليثرثر بخصوص شائعة تقول إنّ شهود العيان رأوا السيّد سيمبيري هذا الصباح في شارع بويرتافيرّيسا، يدبِّر أمرًا ملغَّزًا، ذاهبًا إلى جهة غير معلومة. أراد الدون فدريكو ومرسيديتاس الغبيّة معرفة ما إذا كان قد اتّخذ لنفسه عشيقةً، فمن الواضح أنّ هذا الموضوع ينشِّط تجّار الحيّ بما فيه الكفاية. وحبّذا لو كانت الصبيّة الحلوة راقصةً في كباريه.

- وبم أجبتَ؟

- أجبتُ بأنّ السيّد والدك، في خلال ترمُّله المثاليّ، عاد إلى عذريّته الأولى التي حيّرت المجمعَ العلميّ بأسره، وساعدتْه على

---

(١) رودريغو دياز دي فيفار، مقاتلٌ إسبانيّ من أعلام العصور الوسطى، وكان لقبه (El Cid) المستمدّة من «السيّد» باللغة العربيّة. المترجم.

التقدُّم إلى مقام الأسقفيّة العليا بطلب تقديسٍ عاجلٍ وسابقٍ لأوانه. أنا لا أتحدّث عن حياة السيّد سيمبيري الخاصّة مع أيٍّ من معارفي ولا مع الغرباء، فتلك شؤونٌ تخصّه وحده. ومَن تسوِّلْ له نفسه أن يلمِّح بالأباطيل، سدّدتُ إليه صفعة قاضية ثمّ آمين.

- أنت جنتلمان من الزمن الماضي يا فيرمين.

- بل إنّ والدك هو القادم من الزمن الماضي يا دانيال. أقول لك الحقيقة - شرط أن تبقى بيننا ولا تخرجَ من بين هذه الحيطان الأربعة - لن يتضرّر أبدًا إذا روّح عن نفسه واستمتع قليلًا بين الحين والآخر. تراه يقضي أيّامه كلّها في المستودع، منذ أن توقّفت المبيعات، منكفئًا على ذلك الكتاب الفرعونيّ الذي تفوح منه رائحة الموتى.

- إنّه سجلّ الحسابات - صوَّبتُ.

- أيًّا يكن. لا أخفيك بأنّني فكّرتُ مرارًا أن نحمله إلى الطاحونة ليعربد قليلًا، فحتّى لو كان الرجل العظيم مغفّلًا في هذه الأشياء، فإنّي أعتقد بأنّ موعدًا هنيئًا، مع فتاةٍ متينة من مستوًى رفيع، سيعطيه دفعةً إلى الأمام.

- اسمعوا من يتكلّم. فرحة المقابر. إن أردتَ أن أقول لك الحقيقة، فإنّك أنت مَن يقلقني وضعه. - اعترضتُ - ففي الآونة الأخيرة بتَّ تبدو مثل صرصارٍ عالقٍ في واقٍ ذكريّ.

- مقارنةٌ موفّقة يا دانيال. فالصرصار لا يتمتّع بمظهرٍ جسديّ يصلح للحياة الماجنة التي تشترطها المعايير النزقة في هذا المجتمع الغبيّ الذي شاءت الأقدار أن نولد فيه. وبناءً على ما سبق، سواءٌ أكان اللافقاريّ المنحوس أم الداعي فإنّ كليهما يتّسمان بغريزةٍ للبقاء

لا نظير لها، وشراهةٍ لا حدود لها، وحافزٍ جنسيٍّ وحشيّ لا يضمحلّ منسوبه إطلاقًا، حتّى لو خضع لإشعاعات من أعلى الدرجات.

- النقاش معك مستحيل، يا فيرمين.

- ذلك لأنّني وُهِبتُ سجيّة ديالكتيكيّة، مُصمَّمة للانقضاض على أدقّ إشارات الاحتيال أو المهزلة، يا صديقي. لكنّ والدك زهرةٌ يانعة ومرهفة، وأعتقد أنّ الساعة قد حانت ليتّخذ كافّة التدابير قبل أن يتحجّر كليًّا.

- وما نوع هذه التدابير، يا فيرمين؟ - قاطعه صوت والدي من خلف ظهرنا - لا تقل لي إنّك رتَّبتَ لي نزهة مع السيّدة روسيتو.

التفتنا مثل تلميذين صغيرين، كأنّهم باغتونا وأيادينا موغلة في الكيس. كان والدي، بتعبيرٍ يشبه الزهرة اليانعة نوعًا ما، ينظر إلينا بصرامةٍ من عند الباب.

٨

- وكيف عرفتَ بشأن روسيتو؟ - غمغم فيرمين، مذهولًا.

وما إن تلذّذ والدي بالرعب الذي أصابنا، حتّى ابتسم ببشاشة وغمز بعين.

- ربّما أكون في طور التحجُّر، لكنّ أذنيّ ما تزالان في أحسن حال. أذناي ورأسي. لذا قرّرتُ أنّه لا بدّ لنا من فعل شيءٍ ما، بغية تنشيط الأعمال. - أعلن والدي - يمكننا تأجيل مشروع الطاحونة.

ولم ننتبه إلّا حينذاك أنّه جاء محمَّلًا بحقيبتين بحجمٍ كبير وعلبة ضخمة مغلّفة بورق الشحن، ومعقودةً بحبلٍ ثخين.

- لا تقل لي إنّك سرقتَ المصرف المجاور - هتفتُ.

- أحاول اجتناب المصارف كلّما مررتُ بها لأنّها على رأي فيرمين الصائب هي التي تسرقك بطبيعة الحال. إلّا أنّني عائدٌ من سوق سانتا آنّا.

تبادلتُ وفيرمين نظرةً حائرة.

- ألا تساعدانني؟ هذه الأغراض أثقل من جثّة.

أنزلنا الحقيبتين على المصطبة بينما راح والدي يفكّك غلاف العلبة. كانت الحقيبتان مليئتين بأغراض صغيرة مغلّفةٍ بورق الشحن

لوقايتها من الكسر. نزع فيرمين الغشاء عن أحدها، وظلّ يحدّق إليه دون أن يفهم شيئًا.

- وما هذا؟ - سألتُ.

- أرى أنّه أشبَه بحمارٍ في أدنى مستويات البلوغ، واحد بالمئة - أجاب فيرمين.

- ماذا؟

- بغل أو جحش، مخلوقٌ عجيبٌ ينتمي إلى فصيلة الخيليّات من رباعيّات الأطراف، فاتنٌ ولبقٌ، يستوطن في ربوع بلادنا الإسبانيّة، وقد أثبت حضوره في المنمنمات، مثل قطارات اللعب التي يبيعونها في كاسا بالاو - فسّر فيرمين.

- إنّه حمارٌ من فخّار، تمثال صغير يوضع في مجسّم مشهد الميلاد - أوضح والدي.

- أيُّ مجسَّمٍ للميلاد؟

باشر والدي حالًا بفتح العلبة الكرتونيّة ليُخرِج منها مجسَّمًا لمشهد الميلاد، مزوَّدًا بالأضواء الصغيرة التي اشتراها توًّا، وبدا لي أنّه يريد نصبه في الواجهة على سبيل دعايةٍ من أجواء الميلاد. وكان فيرمين، في تلك الأثناء، يزيل الغشاء عن مختلف الأبقار والجِمال والخنازير والبطّ وحكماء الشرق، وبعض النخيل، وتمثالٍ صغيرٍ ليوسف المقدَّس وآخرَ لمريم العذراء.

- إنّ الرضوخ للإذلال الذي ينتهجه الفكر الكاثوليكيّ الوطنيّ، من خلال ممارساته التقنيّة في التضليل والإيهام عبْر تسخير الدمى والخرافات التي تنطلي على القرويّين، لا يبدو لي الحلّ الأمثل. - أفصح فيرمين.

- لا تتفوّه بالترّهات، فأنت أمام تقاليد جميلة، والناس يحبّون

رؤية مشهد الميلاد خلال الأعياد. - قاطعه والدي بحدّة - كانت المكتبة تفتقر إلى هذه الألوان المتألقة التي تبثّ المسرَّة المشتهاة في هذه الأيّام. ألقِ نظرةً على كلّ محلّات الحيّ، تفهمْ أنّنا بالمقارنة معهم نبدو مكتبًا لتنظيم المآتم. هيّا، ساعدني لننصبه على الواجهة. وفرِّغِ الطاولةَ من كلّ تلك المجلّدات التي تتحدّث عن مصادرة الأملاك الكنسيّة في مندزبال، فإنّها ترعب حتّى أشجع الشجعان.

- إنّها النهاية. - غمغم فيرمين.

تمكّنّا أخيرًا من نصب مشهد الميلاد وترتيب التماثيل الصغيرة في مواضعها. تعاون فيرمين على مضض، مقطّبًا جبينه ومنتهزًا أيّ فرصةٍ لإبداء معارضته للمشروع.

- يا سيّد سيمبيري، لا أقصد الاحتقار، لكنّ يسوع الطفل يبدو أكبر من أبيه المزعوم ثلاث مرّات، حتّى إنّ المهد يحتويه أو يكاد.

- لا يهمّ. التماثيل الأصغر قد نفدت.

- لكنّه، إذا وضعناه بجانب العذراء، يبدو لي كأولئك المصارعين اليابانيّين المصابين بسمنةٍ مفرطة ويدهنون شعرهم بالمرهم اللماع، وسراويلهم ملتصقة بأعضائهم.

- اسمهم مصارعو السومو - شرحتُ له.

- هم بالضبط - وافق فيرمين.

تنهّد والدي وهزّ رأسه متضايقًا.

- ثمّ انظر إلى هذه العيون التي لديه. يبدو أنّه ممسوس.

- هيّا يا فيرمين، اخرس وأدخِلِ القابس - أمره والدي ومدّ إليه الشريط الكهربائيّ.

بواحدةٍ من بهلوانيّاته الاستعراضيّة، استطاع فيرمين أن ينزلق

تحت الطاولة التي تحمل المجسَّم ليصل إلى المقبس في أقصى الواجهة.

- وكان نور! - هتف والدي متحمِّسًا، وهو يتمعّن بمجسّم الميلاد الجديد والباهر لمكتبة «سيمبيري وأبناؤه». - فإمّا التحديث وإمّا الفَناء. - أضاف مبتهجًا.

- الفَناء. - غمغم فيرمين بينه وبين نفسه تقريبًا.

ولم تكد تمرّ لحظة واحدة من الإنارة الرسميّة حتّى توقّفت أمٌّ مع أطفالها الثلاثة قبالة الواجهة ينظرون باهتمام. وبعد تردّدٍ وجيز، غامرتْ ودخلتْ إلى المكتبة.

- مساء الخير. - قالت - هل لديكم قصصٌ عن سِيَر القدّيسين.

- طبعًا. - أجاب والدي - اسمحي لي أن أريكِ سلسلة «يسوع الطفل في حياتي»، والتي ستُتحِف أبناءكِ بكلّ تأكيد. سلسلةٌ تحتوي على تصاوير كثيرة، وكتب مقدّمتها الدون خوسيه ماريّا بيمان.

- آه، هذا رائع. إنّنا، في هذه الأيّام، والحقّ يقال، نلاقي صعوبةً في العثور على الكتب التي تحمل رسالةً إيجابيّة، كتلك التي تشعرك بأنّك في أحسن حال، لا تشوبها كثرة الجرائم والأموات، أو ذلك النوع من الأمور العصيّة على الفهم... ألا توافقني الرأي؟

جحظت عينا فيرمين. كان يوشك على فتح فمه عندما استوقفتُه وسحبتُه بعيدًا عن الزبون.

- كلامكِ مقدّس. - وافقها والدي، وهو ينظر إليّ بطرف عينه، ملمّحًا بنظراته إلى تكميم فم فيرمين وتقييده كي لا نخسر تلك البيعة.

دفعتُ فيرمين إلى المستودع وتأكّدتُ من إسدال الستارة كي أترك والدي يعالج العمليّة على راحته.

- فيرمين، أعرف أنّ قصّة مجسّم الميلاد لا تقنعك، وإنّني

أحترم رأيك، لكنّني لا أعرف أيّ ذبابةٍ لسعتك. . . باختصار، إذا كان يسوع الطفل الشبيه بالمحدلة، مع تلك التماثيل الفخّاريّة الأربعة، يفرِّج أسارير والدي، بل ويجلب الزبائن إلى المكتبة، فإنّني أطلب منك أن تؤجِّل مواعظك الوجوديّة وأن ترسم انطباعًا عن السعادة على وجهك، خلال أوقات العمل على الأقلّ.

تنهّد فيرمين، وأومأ مكبوحَ الجماح.

- ليس هذا يا صديقي دانيال. - قال - اعذرني. فأنا مستعدٌّ للحجّ سيرًا على طريق سانتياغو، مرتديًا زيّ مصارع الثيران، إن كان ذلك يساعد في إرضاء والدك وإنقاذ المكتبة.

- يكفي أن تسايره وتقول له إنّ قصّة المجسّم تبدو لك فكرةً عظيمة.

أومأ فيرمين موافقًا.

- أبشرْ. سأعتذر من السيّد سيمبيري على ما بَدَرَ منّي من بذاءة. وكاعترافٍ بالندم، سأساهم بتمثال صغير كي أثبت أنّني أقهر كلّ المتاجر الكبرى بما يخصّ أجواء الميلاد. لديّ صديقٌ ملاحَقٌ، يصنِّع تُحَف الكاغانير، التي تجسِّد الدونة كارمن بولو دي فرانكو، بإتقانٍ واقعيٍّ تقشعرّ له الأبدان.

- تمثال لخروف صغير أو للحكيم بلطاصر، كلّه يفي بالغرض.

- تحت أمرك يا دانيال. الآن، إن وافقتَ، سأذهب لفعل شيء مفيد، سأفتح ما تركته الأرملة ريكاسينس من صناديق. إنّها هناك منذ أسبوع وقد يكسوها الغبار.

- هل أساعدك؟

- لا تقلق. افعل ما يتوجّب عليك.

نظرتُ إليه يتّجه نحو المخزن في آخر المستودع ويرتدي المئزر الأزرق المخصَّص للعمل.

- فيرمين - بادرتُ.

التفت لينظر إليّ متنبّهًا. تردّدتُ برهةً ثمّ قلت:

- لقد حدث اليوم أمرٌ أردتُ أن أطلعك عليه.

- قل.

- في الحقيقة، لا أعرف كيف أشرح الأمر جيّدًا. لقد جاء شخص وسأل عنك.

- هل كانت امرأة جميلة؟ - سأل فيرمين، محاولًا تصنُّع نبرةٍ ممازحة لا يسعها حجب ظلال القلق في عينيه.

- كان رجلًا. والحقّ يقال إنّه سقيمٌ وغريب الأطوار بما فيه الكفاية.

- هل ترك اسمه؟ - سألني.

- لا. لكنّه ترك لك هذا.

عقد فيرمين حاجبيه. أعطيته الكتاب الذي اشتراه الزائر قبل ساعتين. فأمسك به فيرمين وتفحَّص الغلاف دون أن يفهم شيئًا.

- أليس هذا كتاب ألكسندر دوما الموجود لدينا في الخزانة بسعر خمسة وثلاثين بيسيتا؟

أومأتُ بنعم.

- افتح الصفحة الأولى.

فعل فيرمين ما طلبتُه منه. وعندما قرأ الإهداء، اجتاحه شحوبٌ مفاجئ وابتلع ريقه. أغمض عينيه برهةً ثمّ نظر إليّ بصمت. بدا لي أنّه قد شاخ خمسة أعوام في غضون خمس ثوانٍ.

- لحقتُ به عندما خرج من هنا. - قلت - إنّه يسكن في نزلٍ

مظلم منذ أسبوع في شارع أوسبيتال، قبالة نزل أوروبا. استطعتُ أن أتحقّق من أنّه يستخدم اسمًا مستعارًا؛ اسمك أنت: فيرمين روميرو دي توريس. وعرفتُ من أحد الكتّاب العموميّين في دي لا فيرّينا أنّه طلب استنساخ رسالةٍ يلمِّح فيها إلى مبلغ كبير من المال. هل يمسّك أيُّ شيء من هذا كلّه؟

كان فيرمين يتشنّج كما لو أنّ كلّ كلمة في تلك الحكاية تهوي كالهراوة على رأسه.

- دانيال، أولى بك أن لا تتعقّب ذلك الفرد مرّة أخرى وأن لا تتحدّث إليه. لا تفعلْ شيئًا. عليك أن تنأى بنفسك. إنّه خطير للغاية.

- من هو ذلك الرجل يا فيرمين؟

أغلق فيرمين الكتاب وأخفاه خلف العلب فوق أحد الرفوف. استرق النظر من الستارة ليتأكّد من أنّ والدي ما زال منشغلًا بالزبون ولن يستطيع سماعنا، ثمّ اقترب منّي وقال لي بصوت خفيض جدًّا:

- لا تروِ أيّ شيء لوالدك أو لأيّ أحدٍ آخر أبدًا.

- فيرمين...

- أَسْدِ إليّ هذا المعروف، باسم صداقتنا.

- ولكن يا فيرمين...

- أرجوك يا دانيال. ليس هنا. ثق بي.

وافقتُ وكاد الغيظ يهرس أسناني. وأريته المئة بيسيتا التي دفع بها الرجل ثمن الكتاب. ولم يكن من ضرورة لكي يفهم فيرمين مصدرها.

- هذا المال ملعونٌ يا دانيال. أعطه لراهبات الصدقة أو لمُعدَمٍ في الشارع. أو ربّما من الأفضل أن تحرقه.

ودون أن يضيف إلى ما قال، نزع عنه المئزر، وارتدى الواقي

المطريّ المهترئ وقبّعة الباسكو على رأسه الصغيرة الشبيهة برأس عود الثقاب، حتّى لقد بدت مثل مقلاةٍ منصهرةٍ رسمها دالي.

- هل ستنصرف باكرًا؟

- قل لوالدك إنّ أمرًا مباغتًا أرغمني على الانصراف. هل ستسدي إليّ ذلك المعروف؟

- بالتأكيد، ولكن...

- لا يمكنني أن أشرح لك الآن يا دانيال.

قبض على معدته بيدٍ، كأنّ أمعاءه انعقد بعضُها ببعض، وأخذ يلوّح بالأخرى كما لو كان يحاول التقاط الكلمات التي لم يتمكّن من تفتيحها على شفتيه.

- فيرمين، لعلّي أستطيع مساعدتك إذا أنت أخبرتني...

تردّد للوهلة الأولى، ثمّ هزّ رأسه بصمت وخرج إلى بهو البناية. تبعتُه حتّى البوّابة ورأيتُه يمضي تحت انهمار المطر الناعم، ليبدو رجلًا صغيرًا يحمل ثقل العالم على كتفيه، فيما كان الليل، أشدّ حلكة من أيّ وقتٍ مضى، يهبط على برشلونة.

٩

واحدة من الأشياء التي أثبتها العلم هي أنّ أيّ طفلٍ رضيع، لا يتعدّى عمره بضعة شهور، يعرف - بفطرةٍ لا تُخطئ - كيف يختار اللحظة المناسبة من الليل، تلك التي يتمكّن فيها والداه من النوم، كي ينفجر باكيًا فلا يسمح لهما براحةٍ تدوم أكثر من ثلاثين دقيقة متواصلة.

في تلك الليلة، كما في كلّ الليالي تقريبًا، استيقظ خوليان الصغير حوالى الثالثة فجرًا ولم يتردّد في الإعلان عن استيقاظه بكلّ ما أوتي من عزمٍ في رئتيه. فتحتُ عينيّ واستدرتُ. كانت بيا على جانبي، ساطعةً تحت الظلام، وقد تخبّطت في صحوتها البطيئة بما سمح لي التأمُّل في جسدها جانبيًّا من تحت الأغطية، وغمغمتْ بكلمات غير مفهومة. قاومتُ تلهُّفي لتقبيل عنقها وتحريرها من ذلك الثوب الواسع والمصفَّح الذي أهداه لها والدها - متقصّدًا ذلك بلا شكّ - في عيد ميلادها: لم يكن حتّى للشعوذة قدرة على إخفائه في أيّام الغسيل.

- سأقوم إليه - همستُ لها وأنا أقبّل جبينها.

فكان جوابها بأنِ استدارت إلى الجهة الأخرى وغطّت رأسها بالوسادة. توقّفتُ أتمتّع بالنظر إلى ثنيّة ظهرها وانحنائه الرقيق الذي

لن تفلح كلُّ أثواب العالم في تطويعه. لقد تزوّجتُ بتلك الفتاة المتألّقة منذ سنتين تقريبًا، ورغم ذلك ما زلت أشعر بالمفاجأة كلّما استيقظتُ ووجدتُني بجانبها أتنعّم بدفئها. بادرتُ إلى تحريك الغطاء وملامسة الجانب الخلفيّ من تلك الفخذ الطريّة، فإذا بيا تغرس أظفارها في معصمي.

- ليس الآن يا دانيال. الطفل يبكي.

- كنت أعرف أنّكِ مستيقظة.

- ما أصعب النوم في هذا البيت بين ذكرين، أوّلهما لا يتوقّف عن البكاء وثانيهما يتحسّس مؤخّرة امرأة تعيسة لا تهنأ بالنوم في الليل أكثر من ساعتين.

- أنتِ الخاسرة.

نهضتُ ومشيتُ في الممرّ حتّى وصلتُ إلى غرفة خوليان، في الجانب الخلفيّ من البيت. كنّا، بعد الزواج بفترة قصيرة، قد انتقلنا إلى الشقّة في الطابق الأعلى من بناية المكتبة نفسها. إذ كان الدون آناكليتو، الأستاذ في المدرسة، يسكن فيها منذ خمسة وعشرين عامًا؛ وقد قرّر أن يتقاعد ليعود إلى مسقط رأسه، شقوبية، حيث سيكتب القصائد اللاذعة تحت ظلال القناة وينغمس في دراسة علم الخنزير المشويّ.

استقبلني خوليان الصغير ببكاءٍ رنّان على موجةٍ عالية حتّى كاد يفتّت طبلة أذني. حملتُه بين ذراعيّ، وبعد أن اشتممتُ حفاظه وتحقّقتُ من أنّه لا وجود لغزاةٍ في الأفق، لمرّة واحدةٍ على الأقلّ، فعلتُ ما قد يفعله أيُّ والدٍ عديم الخبرة يتمتّع بكامل قواه العقليّة: أن يوشوش في أذنه كلماتٍ لا معنى لها، وأن يطوف راقصًا في أرجاء

الغرفة مفتعلًا قفزاتٍ مضحكة. كنت منهمكًا في هذه الأفاعيل حتّى رأيتُ أنّ بيا تراقبني من عند الباب باستنكار.

- أعطه لي، فإنّك توقظه أكثر هكذا.

- لكنّه لا يتذمّر - احتججتُ وأنا أسلّمها الطفل.

أخذته بيا بين ذراعيها وهمستْ بأذنه لحنًا معيّنًا وجعلتْ تهدهده برفق. كفّ خوليان عن البكاء في خمس ثوانٍ، وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة المسحورة التي لطالما استطاعت أمّه انتزاعها منه.

- اذهبْ - قالت لي بيا بصوت خفيض - سآتي حالًا.

طُرِدتُ من الغرفة، نظرًا لإثبات عجزي في تولّي شؤون الصغار في مرحلة الحبو، وعدت إلى غرفة نومنا واستلقيتُ على السرير، متيقّنًا من أنّني لن تغمض لي عينٌ خلال ما تبقّى من تلك الليلة. ظهرت بيا عند العتبة بعد قليل، واستلقت بجواري وهي تتنهّد.

- قدماي لا تحملانني.

عانقتُها وبقينا في صمتٍ عدّة دقائق.

- فكّرتُ في أمرٍ ما - قالت.

ارتجفْ يا دانيال، قلت لنفسي. نهضت بيا وتربّعت على السرير في وجهي.

- ما إن يكبر خوليان قليلًا، وتكون والدتي قادرة على الاعتناء به، أعتقد أنّني سأذهب للعمل.

أومأتُ موافقًا.

- أين؟

- في المكتبة.

نصحني التعقُّل بالسكوت.

- أعتقد أنّني سأكون مفيدةً لكم. - أضافت - لم يعد بوسع

والدك أن يعمل ساعات طويلة. وأنا، إيّاك أن تشعر بالإهانة، أعتقد أنّني شاطرة في التعامل مع الزبائن أكثر منك ومن فيرمين، الذي يبدو لي أنّه يرعب الأشخاص في الآونة الأخيرة.

- لا أخالفكِ في هذا.

- مسكين... ما الذي دهاه؟ التقيتُ ببرناردا في الطريق منذ يومين، وأخذتْ تجهش بالبكاء. فرافقتُها إلى محلّ حلويّات في شارع بيتريكسول، وبعد أن أشبعتُها بالمعجّنات، قصّت عليّ أنّ فيرمين يتصرّف بطريقة في منتهى الغرابة مؤخّرًا. يبدو أنّه رفض منذ أيام إكمال معاملات مكتب الخوريّ المتعلّقة بالزواج. أرى أنّ ذلك الرجل لن يتزّوج. هل صارحك بشيء؟

- لقد لاحظتُ شيئًا ما من جانبي. - كذبتُ - لعلّ برناردا تُثقِل عليه بكثيرٍ من الضغوطات...

نظرت إليّ من دون أن تتكلّم.

- ماذا هناك؟ - سألتُها في النهاية.

- طلبت منّي برناردا أن لا أبوح بهذا الأمر لأحد.

- أيُّ أمر؟

ما زالت تحدِّق إليّ.

- أنّها تأخّرت في هذا الشهر.

- تأخّرتْ؟ هل تراكم عليها العمل؟

نظرت بيا إليّ على أنّني أبله، وسرعان ما تأجّجتُ.

- هل برناردا حامل؟

- أخفضْ صوتك، وإلّا أيقظتَ خوليان.

- هل هي حامل أم لا؟ - ردّدتُ بنَفَسٍ واحد.

- وارد.

- وهل فيرمين على دراية؟

- لم تشأ أن تخبره بذلك. تخشى أن يفرّ من بين يديها.

- ليس فيرمين الذي يفعلها.

- أنتم الرجال جميعكم تفعلونها، إن استطعتم.

فوجئتُ بشراسة نبرتها، التي سارعت إلى تلطفيها بابتسامةٍ رقيقةٍ لم يكن ليصدِّقها أحد.

- ما أقلّ ما تعرفينه عنّا.

هبّت واقفة تحت الظلام، ونزعت عنها ذلك الثوب الكبير، دون أن تفتح فمها، واسترخت بجواري على السرير. تركتْني أتأمّل فيها بضع ثوانٍ ثم انحنت إليّ ببطء، ولعقت شفتيّ على رِسْلِها.

- ما أقلّ ما أعرفه عنكم. - همستُ.

١٠

في اليوم التالي، أثبت التأثير الدعائيّ لمجسّم الميلاد المضاء نجاعتَه، ورأيتُ والدي يتبسّم للمرّة الأولى منذ أسابيع، وهو يدوّن المبيعات في سجلّ الحسابات. واعتبارًا من ساعات الصباح الأولى، تواصل تدفُّقُ الزبائنِ القدامى الذين تغيّبوا زمنًا عن المكتبة، تخلّلهم قرّاءٌ جدد يدخلونها للمرّة الأولى. تركتُ والدي يتعامل معهم جميعًا بيديه الخبيرتين وسمحتُ لنفسي بالتمتّع برؤيته سعيدًا وهو يقترح العناوين عليهم، ويثير فضولهم ويستشعر أذواقهم واهتماماتهم. كان الصباح يَعِدُ بنهار رائع، للمرّة الأولى منذ أسابيع طويلة.

– دانيال، علينا أن نتدبّر سلسلة الأدب الكلاسيكيّ المصوَّرة للأطفال. تلك التي صدرت عن منشورات ڤيرتيس، ذات الأضلاع الزُّرق.

– يبدو لي أنّها في القبو. هل لديك المفاتيح؟

– طلبتْها منّي بيا قبل أمس لتنزّل أحد أغراض الطفل. ولا أذكر أنّها أعادتها إليّ. انظر في الدُرج.

– ليست موجودة هنا. سأصعد إلى البيت حالًا لأبحث عنها.

تركتُ والدي مع رجلٍ دخل توًّا، مهتمٌّ بالحصول على تاريخ مقاهي برشلونة، وخرجتُ إلى بهو البناية من المستودع. كانت الشقّة

التي نشغلها بيا وأنا في الطابق الأعلى، وفضلًا عن كونها مشمسة جدًّا، فإنّها تتطلّب صعدات ونزلات على السلالم تنعش الروح والساقين. صادفتُ إديلميرا أثناء ذلك، أرملة تسكن في الطابق الثالث وقد اعتزلت الرقص لتعتكف على رسم العذراء والقدّيسين، في بيتها، كسبًا لقوت يومها. وإنّ كثرة السنوات التي قضتها على خشبة مسرح أرناو، ذلّلت ركبتيها، فغدت تتشبّث بيديها الاثنتين على السياج لتخطّي عتبة بسيطة من عتبات السلّم. ورغم ما سبق، ما زالت تزدان بابتسامةٍ لا تغيب عن شفتيها ونصيبٍ معيّنٍ من لطيف الكلام.

- كيف حال زوجتك باهرة الجمال يا دانيال؟

- لا تضاهيكِ جمالًا يا سيّدة إديلميرا. هل أساعدكِ على النزول؟

ترفض إديلميرا عرضي في كلّ مرّة، وتوصيني بأن أبلغ تحيّاتها لفيرمين، الذي ما انفكّ يغمرها بالتهاني والتلميحات المشينة كلّما رآها.

عندما فتحتُ باب البيت، كان الداخل ما يزال فوّاحًا بعطر بيا وبذلك المزيج من الروائح التي تنبعث من لوازم الأطفال. كانت بيا تنهض باكرًا في العادة، وتصطحب خوليان في نزهةٍ بعربته المتوهّجة التي جاءتنا هديّة من فيرمين والتي كنّا جميعًا نسمّيها بـ«المرسيدس».

- بيا؟ - ناديتُ.

كانت شقّتنا صغيرة، ما جعل صدى صوتي يرتدّ إليّ قبل أن أغلق الباب ورائي. لقد خرجت بيا إذن. توقّفتُ في الصالة أحاول أن أستعيد طرائق زوجتي العقليّة، لعلّي أستنتج أين قد وضعت مفاتيح القبو. بيا مرتّبةٌ ومنهجيّةٌ أكثر منّي كثيرًا. بدأتُ أنبّش في أدراج الأثاث في صالة الطعام حيث كانت تحتفظ بالإيصالات والنقود

الحديديّة والرسائل التي تنتظر الردود. ثمّ انتقلتُ إلى الطاولات الصغرى، فأواني الفاكهة فالرفوف.

المحطّة التالية كانت في المطبخ؛ هناك حيث توجد خزانة زجاجيّة صغيرة تضع فيها بيا الملاحظات والمفكّرات. لم يحالفني الحظّ فوجدتُ نفسي في غرفة النوم، واقفًا أمام الفراش، أنظر حولي بروحٍ تحليليّة. كانت بيا تحتلّ خمسةً وسبعين بالمئة من الخزانة والأدراج وبقايا أثاث الغرفة. وتبرِّر ذلك قائلةً إنّ لي طريقةً واحدة لارتداء الثياب، لذا تكفيني زاويةُ خزانة الملابس وتزيد. كان منهجها في ترتيب أدراجها يكشف عن سفسطةٍ قاهرة. وقد استبدّ بي تأنيب الضمير بينما كنت أفتّش في المجالات الخاصّة بزوجتي، لكنّني بعد سلسلة تحريّاتٍ يائسة في كلّ الأثاثات المتوافرة، فشلتُ في العثور على المفاتيح.

- فلنبنِ الوقائع من جديد - قلت لنفسي.

كنت أتذكّر بغموض أنّ بيا قالت شيئًا ما بخصوص إنزال صندوق من الملابس الصيفيّة إلى القبو. وقد حدث ذلك منذ يومين. فإن لم تخنّي الذاكرة، كانت بيا ترتدي المعطف الرماديّ الذي أهديته إليها احتفالًا بمرور عام على زواجنا. فابتسمتُ لموهبتي في الاستنتاج، وفتحتُ الخزانة بحثًا عن المعطف بين ملابس زوجتي. وها هو ذا. إن كان كلُّ ما تعلّمته بقراءة كونان دويل وتلامذته صحيحًا، فلا بدّ أنّ مفاتيح والدي كانت في أحد جيوب ذلك المعطف. غللتُ يدي في الجيب الأيمن ووجدتُ عملتين حديديّتين وبعض السكاكر بنكهة النعناع كتلك التي يقدّمونها في الصيدليّات مجّانًا. تقصّيتُ في الجيب الآخر، وانتشيتُ في إثبات فرضيّتي. كانت أصابعي تتلمّس حزمةَ مفاتيح...

وغرضًا آخر.

قطعةٌ ورقيّة. أخرجتُ المفاتيح، وقرّرتُ بعد تردُّدٍ أن أُخرِج ما تبقّى في الجيب. قد تكون لائحة مشترياتٍ اعتادت بيا على تحضيرها كي لا يفوتها شيء.

وإذ تفحَّصتُ الورقة بانتباه أكبر، رأيتُ أنّني بصدد ظرفٍ بريديّ. رسالة. موجَّهة إلى بياتريز آغويلار، والختم البريديّ يشير إلى الأسبوع الماضي. كانت الرسالة مبعوثةً إلى عنوان أهل بيا، لا إلى شقّتنا في شارع سانتا آنّا. قلبتُ الظرف، وقرأتُ اسم المرسِل، فوقعت مفاتيح القبو من يدي.

بابلو كاسكوس بويندبا

جلستُ على السرير وأطلتُ النظر في الظرف مشتّت الذهن. بابلو كاسكوس بويندبا كان خطيب بيا أيّامَ بداية تعارفنا. ابن عائلة ثريّة تمتلك ورشاتٍ بحريّةً ومصانع في إل فيرول. لم أكن أستلطف تلك الشخصيّة بتاتًا، ولطالما بادلني النفور من جهته، وكان في تلك الآونة يؤدّي الخدمة العسكريّة برتبة ملازم. ومنذ أن كتبتْ بيا إليه تُعلِمه بفسخ الخطوبة بينهما، لم تعد تعرف أيّ شيء عن أخباره... حتّى تلك اللحظة.

فما الذي كانت تفعله رسالةٌ حديثةُ التاريخ من خطيب بيا السابق في جيب معطفها؟ كان الظرف مفتوحًا، لكنّ ضميري حال بيني وبين إخراج الرسالة مدّة دقيقة واحدة. أدركتُ فيها أنّني للمرّة الأولى أتجسّس على بيا وكدت أرجِع الظرفَ إلى مكانه والخروج على الفور. دامت لحظة الفضيلة عشر ثوانٍ فقط. وتلاشى ما أثار فيّ الإحساسَ بالذنب والخزي قبل أن أنتهي من قراءة الفقرة الأولى.

بياتريز العزيزة

أتمنّى أن تكوني بخير، وأن تكوني سعيدة في حياتك الجديدة في برشلونة. لم أتلقّ منكِ أيّ جواب على الرسائل التي بعثتُها إليكِ خلال هذه الشهور، وأتساءل أحيانًا عمّا فعلتُه لكي تقرّري بأن تنسي أمري كليًّا. أستوعب أنّكِ سيّدة متزوّجة ولديكِ طفل، وربّما من غير اللائق أن أكتب إليكِ، لكن عليّ أن أعترف لكِ بأنّني مهما مرّ من وقتٍ لا أستطيع أن أنساكِ، رغم أنّني حاولتُ كثيرًا، ولا أخجل إن أنا أقررتُ بأنّني ما أزال مغرمًا بكِ.

أنا أيضًا، تغيّرت حياتي. فمنذ عام، باشرتُ العمل مديرًا تجاريًّا في مؤسّسةٍ للمنشورات في غاية الأهميّة. أعلم أنّ الكتب تعني لكِ الكثير، وإنّني إذ اخترتُ العمل في هذا المجال أشعر بأنّكِ قريبةٌ منّي. مكتبي في مدريد، مع أنّني غالبًا ما أسافر في كلّ أرجاء إسبانيا لأسبابٍ يوجبها عملي.

أفكّر فيكِ طوال الوقت، أفكّر في الحياة التي كنّا سنتقاسمها، وفي الأولاد الذين كنّا سننجبهم معًا... أتساءل كلّ يومٍ إن كان زوجكِ يوفّر لكِ السعادة، وإن كانت الظروف هي التي أرغمتكِ على الزواج به. لا أصدّق أنّ الحياة المتواضعة التي بوسعه أن يؤمّنها لكِ هي ما ترغبين فيه حقًّا. فأنا أعرفكِ جيّدًا. لقد كنّا رفيقَين ثمّ أصبحنا صديقَين، ولم تكن ثمّة أسرارٌ بيننا البتّة. هل تذكرين تلك الأمسيات التي قضيناها معًا على شاطئ سان پول؟ هل تذكرين المشاريع، والأحلام التي تقاسمناها، والوعود التي أطلقناها؟ لم تتمكّن أيُّ امرأة من تعويض المشاعر التي كنتِ تغمرينني بها. ومنذ أن فُسِختْ

خطوبتنا، خرجتُ مع بعض الفتيات، لكنّني توصّلتُ الآن إلى أنّه لا مجال لمقارنتكِ بأيّ امرأة. كلّما قبّلتُ شفاه الأخريات فكّرتُ في شفتيكِ، وكلّما داعبتُ أجسادهنّ شعرتُ بجسدكِ.

سآتي إلى برشلونة خلال شهر كي أتفقّد مكاتب دار النشر، لديّ مقابلات مع الموظّفين بغية ترميم المؤسّسة في المستقبل. والحقُّ أنّني كنت قادرًا على حلّ هذه المشاكل عبْر المراسلات أو الهاتف. وما سبب مجيئي الحقيقيّ إلّا الأمل في لقائكِ. أعرف أنّكِ ستفكّرين في أنّني جننتُ، لكنّني أفضّل أن تفكّري كذلك على أن تظنّي أنّني نسيتكِ. سأصل في العشرين من يناير، وسأنزل في أوتيل ريتز في الغران فيا. أودّ أن أراكِ، أرجوكِ، فليكن اللقاء قصيرًا، أريد أن أصارحكِ بما يلهج قلبي وجهًا لوجه. حجزتُ طاولة في مطعم الفندق يوم ٢١ في الساعة الثانية. سأكون هناك في انتظاركِ. إن أتيتِ، فستجعلين منّي أسعد رجلٍ في العالم، وسأتيقّن من أنّ أحلامي باسترجاع حبّكِ ما يزال لديها أمل.

أحبّكِ منذ الأزل

بابلو

بقيتُ هناك بضع ثوانٍ، جالسًا على السرير الذي تقاسمتُه مع بيا قبل بضع ساعات. أرجعتُ الرسالة إلى الظرف، وحين نهضتُ شعرتُ كمن تلقّى لكمة قويّة على معدته. هُرِعتُ إلى الحمّام وتقيّأتُ قهوة ذلك الصباح في المغسلة. صببتُ الماء البارد وبلّلتُ وجهي. كان وجه دانيال ذي الستّة عشر عامًا، مرتعش اليدين عندما تلمَّس بيا للمرّة الأولى، يحدّق إليّ من المرآة.

١١

عندما عدتُ إلى المكتبة، رماني والدي بنظرة متحرّية ثمّ رأى إلى الساعة. تصوّرتُ أنّه تساءل أين كنتُ في النصف ساعة الأخيرة، لكنّه لم يقل شيئًا. أعطيتُه مفاتيح القبو، وتجنّبتُ أن تتلاقى نظراتُنا.

- ألم تكن تريد الذهاب بنفسك لتبحث عن الكتب؟ - سأل.

- بالتأكيد. اعذرني. سأذهب فورًا.

راقبني والدي بطرف عينه.

- هل أنت بخير يا دانيال؟

أومأتُ بنعم، وتصنّعتُ استغرابي من سؤاله. واتّجهتُ مباشرة للإتيان بالعلب التي طلبها منّي، قبل أن أعطيه فرصةً أخرى ليكرّر السؤال. كان مدخل القبو يقع في آخر بهو البناية. بابٌ معدنيٌّ مغلقٌ بقفلٍ متين، تحت العتبة الأولى من السلّم، يفضي إلى درجات لولبيّة تغرق في العتمة وتفوح منها رائحة الرطبة وأشياء أخرى لا سبيل إلى تحديدها، تولّد إحساسًا بأرضٍ محروثة وأزهارٍ ميّتة. وثمّة نسقٌ صغير من مصابيح صغيرة تتدلّى من السقف، تومض نورًا شبيهًا بارتعاش الفراشات المصابة بفقر الدم، لتجعل من ذلك المكان أشبَه بملجأ من القصف الجويّ. نزلتُ على السلالم، وما إن صرتُ في القبو، أخذت أتحسّس الجدار بحثًا عن قاطع الضوء.

أنير مصباحٌ مصفرٌّ فوق رأسي، ليكشف عن أنحاء القبو الذي لم يكن أكبر حجمًا من ركنٍ للمهملات ينشد الرحابة. مومياءاتٌ لدرّاجاتٍ هوائيّة قديمة لا صاحب لها، ولوحاتٌ محجوبة بشباك العناكب، وعلبٌ كرتونيّة متكدّسة على رفوف خشبيّةٍ تنهشها الرطوبة. كانت تلك الأغراض تشكّل في مجموعها انطباعًا لا يدعو للبقاء في المكان وقتًا أطول من الضروريّ. وبينما كنت أراقب ذلك المنظر، استغربتُ حينذاك قرار بيا بالنزول إلى القبو من تلقاء إرادتها بدلًا من أن تطلب منّي ذلك. تفحّصتُ تلك المتاهة المكوّنة من أغراضٍ وبقايا معدومة القيمة، وتساءلتُ كم يا ترى من الأسرار أخفتْها عنّي هناك في الأسفل.

تنهّدتُ إذ أدركتُ ما الذي كنت أفعله. كانت كلمات تلك الرسائل تتلف دماغي مثلما تفعل قطرات الأسيد. أقسمتُ لنفسي أنّي لن أنبّش بين العلب بحثًا عن ظروف رسائل معطّرةٍ بعثها ذلك الفرد. وكدتُ أنكث قَسَمي في غضون ثوانٍ، لو لم يتناهَ صوت خطواتٍ تنزل السلّم إلى مسمعي. رفعتُ نظري فوجدتُني قبالة فيرمين، يتأمّل المشهد وملامح الغثيان ترتسم على وجهه.

- أشمّ رائحة جثّة هنا. لا تقل لي إنّ والدة مرسيديتاس محنّطة في أحد تلك الصناديق بين تصاميم المطرّزات؟!

- ما دمتَ هنا، تعال وساعدني للصعود بالعلب التي طلبها والدي.

شمّر فيرمين عن ساعديه، مستعدًّا للشروع في العمل. أشرتُ له إلى علبتين مسجّلتين بعلامة منشورات ڤيرتيس، وحمل كلٌّ منّا واحدةً.

- وجهك أسوأ من وجهي يا دانيال. هل أصابك شيء ما؟

- لعلّه بسبب أبخرة هذا القبو.

لم تنطلِ محاولتي اصطناع النكتة على فيرمين. أنزلتُ العلبة على الأرض وجلستُ عليها.

- هل لي أن أطرح عليك سؤالًا يا فيرمين؟

أنزل فيرمين علبته أيضًا واتّخذ منها مقعدًا هو الآخر. حدّقتُ إليه، متأهّبًا للكلام، لكنّني كنت عاجزًا عن إيصال الكلمات إلى شفتيّ.

- مشاكل تتعلّق بالمخدع؟ - سألني.

احمرّ وجهي وأنا ألاحظ كم كان صديقي يعرفني جيّدًا.

- شيءٌ من هذا القبيل.

- هل السيّدة بيا، فليباركها الربّ بين النساء، لديها رغبة قليلة في خوض الحرب أم إنّها، على العكس، لديها رغبة زائدة عن اللزوم وأنت تبذل قصارى جهدك لتؤمّن لها ما استطعتَ من خدمات؟ اعلمْ أنّ النساء، عندما يُرزقن بطفل، كما لو أنّهنّ حُقِنَّ بقنبلةٍ ذريّة من الهرمونات في دمائهنّ. أحد أكبر الألغاز المحيّرة والعجيبة أنّهنّ لا يصبن بالجنون خلال أوّل عشرين ثانية من الولادة. أعرف كلّ هذه الأشياء لأنّ التوليد، بعد الشعر الحرّ، إحدى هواياتي المفضّلة.

- لا، ليس هذا. على ما أعتقد.

رمقني فيرمين مندهشًا.

- عليّ أن أوصيك بعدم البوح بما سأقوله لك لأيّ أحد.

صلّى فيرمين بالتثليث خاشعًا.

- قبل قليل، وعن طريق الصدفة، وجدتُ رسالة في معطف بيا.

لا يبدو أنّ توقُّفي عن الكلام قد أدهشه.

- وما المشكلة؟

- رسالةٌ من خطيبها السابق.

- ذلك الوغد؟ ألم يكن ذلك الصبيّ المدلّل قد مضى إلى فيرول دل كاوديو ليبدأ مسيرته العظيمة معتمدًا على نفوذ أبيه؟

- هذا ما كنت أعرفه. إلّا أنّه في أوقات فراغه يكتب رسائل حبّ إلى زوجتي.

انتفض فيرمين واقفًا.

- عليه اللعنة ابن العاهرة النجسة - غمغم وكان ساخطًا أكثر منّي.

أخرجتُ الرسالة من جيبي وأعطيتها له. شمّها فيرمين قبل أن يفتحها.

- هذا الحقير يبعث رسائل من ورق معطّر أم إنّني أتخيَّل؟ - سأل.

- لم أنتبه لذلك، لكنّه لا يفاجئني. لقد خُلِق هكذا. الأجمل يأتيك تباعًا. اقرأ، اقرأ...

قرأ فيرمين مغمغمًا وهو يهزّ رأسه.

- فضلًا عن كونه بائسًا وفارغًا، فإنّ هذا الرخيص يمثّل السماجة في حدّ ذاتها. هذه الجملة «قبّلتُ شفاه الأخريات» تكفي لاحتجازه في المخفر ليلة واحدة على الأقلّ.

أعدتُ الرسالة إلى جيبي وخفضتُ نظري إلى الأرض.

- لا تقل لي إنّك تشكّ في السيّدة بيا؟ - سأل فيرمين غيّر مصدِّق.

- لا، طبعًا لا.

- كاذب.

نهضتُ ورحت أطوف في القبو يمينًا وشمالًا.

- ماذا كنتَ ستفعل إن وجدتَ رسالة كهذه في جيب برناردا؟

تمعَّن فيرمين بكلّ اهتمام.

- كنتُ سأثق بوالدة ابني.

- كنتَ ستثق بها؟

أومأ فيرمين.

- لا تغضب منّي يا دانيال، لكنّك تعاني من مشكلة تقليديّة تصيب الرجال الذين يتزوّجون بامرأة استثنائيّة. السيّدة بيا، التي كانت وستبقى قدّيسة في رأيي - دعني أصفها بالدارجة الشعبيّة: شهيّةٌ لدرجة أن تأكلها بالخبز ثمّ تمسح الطبق الذي تناولتَها فيه بأصابعك. وبالتالي، فمن المتوقّع أنّ الماجنين والمرضى عقليًّا وشبّان الشواطئ وكلّ أصناف الديكة التي تراها من حولك، من المتوقّع أن يركضوا خلفها. وإنّ القرد الذي ارتدى الثياب، وأطلقنا عليه تسمية الهوموسابيينس[1] عن طيب خاطر، لا يهتمّ إن كانت بيا متزوّجة ولديها ولد. قد لا تعي هذا الأمر، لكنّني أراهن على بنطالي أنّ زوجتك تجذب إليها الذباب أكثر من إناء عسلٍ في معرض أبريل. وإنّ هذا الأحمق ليس إلّا طيرًا يتغذّى على الجيف، هكذا بكلّ بساطة، يقذف الحصى كيفما اتّفق آملًا أن يصيب هدفًا ما. اسمع منّي، إنّ امرأةً رأسُها على ما يرام، وثيابُها الداخليّة كذلك، تترفّع عن هذا العرق من الأقزام.

- هل أنت متأكّدٌ ممّا تقول؟

---

(١) (Homo Sapiens) باللاتينيّة: «الإنسان العاقل». وهو أوّل كائنٍ بشريّ انشقّ عن القِرَدة العليا واستخدم العقل، وأنجب السلالة البشريّة. المترجم.

- الشكّ مُهين. هل تعتقد أنّ السيّدة بياتريز - إن أرادت أن تلعب بذيلها - ستنتظر سيّالَ اللعاب الدنيء هذا الذي يبعث إليها رومانسيّاتٍ مبتذلة ومطروقة كي يغويها؟ كيف وهي التي كلّما اصطحبت الطفل للتنزّه لحق بها عشراتُ الطامحين بالتقرُّب من وجهها الجميل... اسمع منّي، فأنا أعرف عمّا أتحدّث.

- حسنٌ، الآن وقد قلتَ ما قلت، لستُ متأكدًا من أنّك تؤاسيني بكلامك.

- انظر. كلُّ ما عليك فعله هو أن تعيد هذه الرسالة إلى جيب المعطف حيث وجدتَها، وأن تنسى هذه القصّة. وإيّاك أن يخطر في بالك أن تفاتح زوجتك بالموضوع.

- أهذا ما كنتَ ستفعله أنت؟

- أنا كنتُ سأبحث عن ذلك الديّوث كي أركل خصيتيه ركلةً تُرغِم الأطبّاءَ على استئصالهما من قصبة حلقه، كي لا يتبقّى لديه من رغبةٍ إلّا في الزهد واعتزال الحياة. ولكن، أنا أنا، وأنت أنت.

شعرتُ بالكرب ينبسط في داخلي كما تنبسط قطرة الزيت في المياه النقيّة.

- لست متأكدًا من أنّك ساعدتني يا فيرمين.

عبّر عن لامبالاته وحمل العلبة ليختفي صعودًا على السلالم.

قضينا بقيّة الصباح منهمكين بمشاغل المكتبة. وبعد ساعتين من العصف الذهنيّ حول تلك الرسالة، توصّلتُ إلى خلاصةٍ مفادها أنّ فيرمين على حقّ. أمّا الشيء الذي لم أتمكّن من توضيحه هو إن كان محقًّا عندما نصحني بالوثوق بزوجتي والسكوت عنها أم عندما قال إنّه لو كان في مكاني لذهب إلى ذلك الشقيّ ونحت له وجهًا جديدًا.

كان التقويم على المصطبة يشير إلى أنّنا في العشرين من ديسمبر. ما زال أمامي شهرٌ للبتّ في الموضوع.

كان النهار حافلًا، وحقّقنا مبيعات متواضعة، لكنّها ثمينة. لم يدّخر فيرمين فرصة إلّا وتغنّى لوالدي ممتدحًا مجسّمَ الميلاد ونجاحَ تمثال يسوع الطفل الذي كان يشبه الربّاع الباسكيّ.

- نظرًا إلى كونك أسّ المبيعات، سأنسحب إلى المستودع كي أنظّف وأحضّر ما تركته لنا الأرملة قبل البارحة.

انتهزتُ الفرصة لألحق بفيرمين وأسدلتُ الستارة خلف ظهري. نظر إليّ متوجّسًا فعرضتُ عليه ابتسامة متسامحة.

- أساعدك إن أردتَ.

- كما تشاء يا دانيال.

فكّكنا علب الكتب في غضون عدّة دقائق، ورتّبناها بالتصنيف حسب النوع، في حالٍ من الصون والعظمة. لم يفتح فيرمين فمه وكان يحيد عن نظراتي.

- فيرمين...

- سبق وقلت لك: لا ينبغي لك أن تقلق بشأن الرسالة. زوجتك ليس امرأة رخيصة، بل إنّها إذا قرّرت أن تهجرك يومًا ما - لا قدَّر الله - ستفاتحك بالأمر وجهًا لوجه، من دون اللجوء إلى مكيدةٍ مستمدّةٍ من المسلسلات التلفزيونيّة المبتذلة.

- وصلت الفكرةُ يا فيرمين. لكنّي لم أكن أقصد هذا.

رفع عينيه مهمومًا.

- فكّرتُ أن نذهب للعشاء سويًا بعد إغلاق المحلّ هذا المساء - بادرتُ - كي نتحدّث عن شؤوننا. عن زيارة ذلك الرجل. وعمّا يشغل بالك، إذ يبدو لي أنّ للأمر صلة ما.

وضع فيرمين الكتاب، الذي كان يزيل عنه الغبار، على الطاولة. ونظر إليّ مثبَّط الهمّة وتنهّد.

- إنّني في خضمّ الأهوال يا دانيال. - غمغم في النهاية - ولا أعرف كيف الخروج منها.

حططتُ يدي على كتفه. وما تحسّستُ من تحت المئزر إلّا جلدًا على عظم.

- فاسمح لي بأن أساعدك. هذه الأشياء ترجع إلى حجمها الطبيعيّ إذا واجهها اثنان.

نظر إليّ هائم الفِكر.

- ولا شكّ أنّنا معًا واجهنا في السابق مخاطر أشدّ وطأة - الححتُ.

ابتسم بحزن، بلا اقتناعٍ كبيرٍ بتشخيصي للحالة.

- إنّك خير صديق يا دانيال.

بل لا أساوي نصف ما تستحقّ، قلت لنفسي.

١٢

في تلك الفترة، كان فيرمين ما يزال يسكن في النزل القديم من شارع خواكين كوستا، حيث كنت أعرف من مصادر موثوقة أنّ بقيّة النزلاء، بتعاونٍ متينٍ وسريٍّ مع روسيتو ورفيقات السلاح، كانوا يحضِّرون له حفلة وداع لحياة العزوبة، حفلةً سيخلّدها التاريخ. كان فيرمين ينتظرني عند بوّابة النزل عندما عرّجتُ عليه لأصطحبه بعد الساعة التاسعة.

- لست جائعًا جدًّا في الحقيقة. - صرّح ما إن رآني.

- للأسف، إذ كنت أفكّر أنّنا قد نذهب إلى خان يويس. - اقترحتُ - فهذا المساء يقدِّمون الحُمّص والكابي بوتا...

- حسنٌ، لا ينبغي أن نتّخذ قراراتٍ متسرِّعة. - وافق فيرمين - فالطعام اللذيذ كالفتاة في عمر الورد: من الغباء ألّا تسعى إلى تذوُّقها.

بإضافة تلك الجوهرة إلى مجموعة الأقوال المأثورة للقدير الدون فيرمين روميرو دي توريس، تنزّهنا نحو أحد مطاعم صديقي المفضّلة في برشلونة قاطبةً وفي جزء كبير من العالم المعروف. كان خان يويس ما يزال في عنوانه ٤٩ شارع دي لا سيرا، على أعتاب حيّ الراڤال. وكان خلف مظهرٍ بسيط، وطقسٍ ثقافويٍّ محشوٌّ بألغاز

برشلونة القديمة، كان المطعم يقدِّم أطباقًا شهيّة، وخدمةً لا تخطر في الكتب التعليميّة، وأسعارًا مناسبة لدرجة أنّنا فيرمين وأنا لا نجد أيّ حرجٍ فيها. وكان المطعم في أمسيات أيّام العطل، تجتمع فيه فئة من الزبائن البوهيميّين، والعاملين في المسارح، والكتّاب والمخلوقات الأخرى المنتمية إلى الحياة الجميلة أو السيّئة، تراهم يشربون النخب هناك أحدهم في جوار الآخر.

وعندما دخلنا، وجدنا أحد روّاد مكتبتنا، جالسًا إلى المصطبة يتناول عشاءه ويتصفّح الجريدة، البروفسور ألبوركركي، مثقّفٌ محليّ وأستاذٌ في كليّة الآداب وناقدٌ رفيع وكاتب مقالات، يعتبر ذلك المطعمَ بيته الثاني.

- من الصعب مصادفة حضرتك أيّها البروفسور. - قلت وأنا أمرّ بجانبه - يسرّنا أن تأتي لزيارتنا كي تتزوّد بالمؤن، فليس بقراءة الوفيّات في جريدة الطليعة وحدها يعيش الإنسان.

- هذا يسرّني أنا أيضًا. فلكثرة ما قرأتُ من التفاهات التي يكتبها هؤلاء الصبية في هذه الآونة، أعتقد أنّني أصبت ببوادر عسر القراءة.

جاء أحد النُّدُل في تلك اللحظة وقدّم له الحلوى: قطعة «كراميل» مدوّرة تتضوّع بالفانيليا وترتجّ لتقطر سكّرًا محمّصًا.

- تناولْ ملعقتين من هذه الأعجوبة، تنجلِ عنك المصائب، بما فيها عسر القراءة - قال فيرمين - فإنّها تبدو مثل صدر السيّدة مارغريتا كسيرغو، بكلّ تعشيق هذا الكراميل. . .

أمعن البروفسور الجليل في حلواه تحت ضوء تلك الاعتبارات وأومأ متحمّسًا. تركنا الحكيمَ يتذوّق المحاسن السكريّة لنجمة

المسارح والتجأنا إلى طاولة منزوية في آخر الصالة، حيث قدّموا لنا بعد قليل عشاءً طيّبًا تكفّل فيرمين بامتصاصه بشراهة محطّة شفط المياه.

- ظننتُ أنّك بلا شهيّة على الطعام. - ارتجلتُ.

- إنّها العضلات، هي التي تطلب الحريرات. - فصّل فيرمين بينما كان يلمّع طبقه بآخر قطعة خبز بقيتْ في السلّة، مع أنّه بدا لي فريسةً للهمّ والضيق.

اقترب منّا بيري، النادل الذي خدمنا، ليرى كيف تجري الأمور، وعندما شاهد المجزرة التي ارتكبها فيرمين، مرّر إليه قائمة الحلويات.

- حلوّى طيّبة كمسك الختام يا سيّدي؟

- اسمع، لا يسعني أن أرفض قطعتين من «كراميل» كتلك التي رأيتُها من قبل، أضف فوقها حبّة كرزٍ جميلة وملوّنة إن أمكن. - قال فيرمين.

أومأ بيري وروى علينا أنّ صاحب المطعم، إذ عرف بتوصيف فيرمين لجوهر تلك الحلوى وجاذبيّتها المجازيّة، قرّر أن يسمّيها «مرغريتا» على اسم تلك الممثّلة الشهيرة.

- سأكتفي بفنجان قهوة مع القليل من الحليب. - قلتُ.

- يقول المعلّم إنّ الحلوى والقهوة ستكونان على حساب المطعم. - أعلن بيري.

رفعنا كؤوس النبيذ باتجاه صاحب المحلّ، الذي كان يثرثر من خلف المصطبة مع البروفسور ألبوركركي.

- نِعمَ الرجل! - غمغم فيرمين - ليس كلُّ الناس لئامًا في هذه الحياة، لا ينبغي تناسي هذه الحقيقة.

استغربتُ حدّة نبرته ومرارتها.

- لماذا تقول ذلك يا فيرمين؟

عبّر صديقي عن لامبالاته. وبعد قليل، وصلت الحلوى بارتجاجها الغاوي، وعلى قمّتها تسطع حبّة الكرز اللامعة.

- أذكّرك بأنّك ستتزوّج بعد أسابيع قليلة، ما يعني أنّك ستتوقّف عن تناول المرغريتا. - مازحتُه.

- مسكينٌ أنا ! - قال فيرمين - لقد غدوتُ مجرّد هراء. لم أعد مثلما كنت في السابق.

- لا أحد منّا يظلّ على حاله.

تذوّق فيرمين قطعتي الحلوى متلذّذًا.

- لم أعد أذكر الآن أين قرأتُ أنّنا لم نكن يومًا ما كنّا عليه، وأنّنا والحال هذه لا نتذكّر إلّا الأشياء التي لم تحدث قطّ... - قال.

- هذه افتتاحيّة إحدى روايات خوليان كاراكس. - أجبتُ.

- صحيح. ما الذي حلّ بصديقك كاراكس؟ ألا يخطر في بالك هذا التساؤل أبدًا؟

- كلّ يوم.

ابتسم فيرمين وهو يتذكّر مغامراتنا السالفة. ثمّ أشار بإصبعه إلى صدري، معبّرًا بأسلوبٍ استجوابيّ.

- أما زال صدرك يؤلمك؟

فككتُ زرّين من قميصي وأظهرتُ له الندبة التي خلّفتها طلقةُ المحقّق فوميرو على صدري في ذلك اليوم البعيد بين حطام «ملاك الضباب».

- أحيانًا.

- الندوب لا تتلاشى أبدًا، أليس كذلك؟

- تتلاشى ثمّ تعود، حسْب اعتقادي. انظرْ إلى عينيّ يا فيرمين.

حطّت نظرته الشاردة على نظرتي.

- هلّا رويتَ لي ما الذي يحدث معك؟

تردّد فيرمين برهةً.

- هل تعلم أنّ برناردا تنتظر طفلًا؟ - سألني.

- لا. - كذبتُ - أهذا ما يشغل بالك؟

نفى فيرمين ذلك، وهو ينهي قطعته الثانية من الحلوى، ويمتصّ السكّر المحمّص الذي بقي منها.

- لا تشاء المسكينةُ أن تخبرني بالأمر حتّى الآن، لأنّها مضطربة. لكنّها ستجعلني أسعد رجل في العالم.

نظرتُ إليه بكلّ انتباه.

- حسنٌ، إن أردتَ منّي أن أصارحك، الآن وجهًا لوجه، فإنّ ملامح السعادة لا تبان عليك إطلاقًا. هل أنت قلقٌ بشأن الزفاف؟ هل أنت متضايق لأنّك ستتزوّج في الكنيسة وإلى آخره من هذا الكلام؟

- كلا يا دانيال. بل على العكس، هذا سيسعدني كثيرًا، حتّى لو جاء الخوارنة جميعًا إلى العرس. لو كان الأمر بيدي، لتزوَّجتُ برناردا كلّ يوم.

- فإذن؟

- هل تعلم ما الشيء الأوّل الذي يسألونك عنه إذا أردت أن تتزوّج؟

- الاسم. - قلت بلا تردّد.

هزّ فيرمين رأسه ببطء. ولم أفهم المقصود جيّدًا حتّى تلك اللحظة، ثمّ أدركتُ المأزق الذي كان صديقي العزيز يمرّ فيه.

- هل تذكر ما رويتُه عليك منذ عدّة أعوام يا دانيال؟

كنت أذكره بكامل تفاصيله. في أثناء الحرب الأهليّة، أودي بصديقي إلى السجن، حيث كاد يفقد رشده وحياته، وهذا بفضل المكاتب المشؤومة التي يديرها المحقّق فوميرو، الذي كان حينذاك يعمل سفّاحًا في خدمة الشيوعيّين، قبل أن ينضمّ إلى صفوف الفاشيّين. وعندما استطاع فيرمين العودة إلى الحريّة، حيًّا بأعجوبة محض، قرّر أن ينتحل هويّةً أخرى وأن يمحو ماضيه. كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، عندما استعار اسمًا رآه على إحدى الدعايات القديمة التي تعلن عن إقامة عرضٍ لمصارعة الثيران في آرينا مونومنتال. وهكذا ولد فيرمين روميرو دي توريس، رجلًا يبتكر سيرته يومًا في إثر يوم.

- وهذا ما جعلك ترفض ملأ استمارة الكنيسة. - قلت - لأنّك لا تستطيع استخدام اسم فيرمين روميرو دي توريس.

أقرّ فيرمين.

- انظر يا صديقي، إنّني متأكد من قدرتنا على إيجاد الطريقة المناسبة لتدبير وثائق جديدة. هل تذكر الملازم بالاسيوس، الذي استقال من الشرطة؟ إنّه يدرّس التربية الرياضيّة في إحدى مدارس بونانوفا في هذه الأيّام، لكنّه تردّد إلى مكتبتنا بعض المرّات، وعندما كنّا ندردش ذات يوم، أخبرني عن سوقٍ كبيرةٍ موجودة تحت الأرض متخصّصة في تأمين الهويّات الجديدة لمن كانوا عائدين إلى إسبانيا بعد أعوام طويلة قضوها في الخارج، وأكد لي أنّه يعرف رجلًا له علاقات مع الشرطة ولديه ورشة قرب آتارثاناس: يستطيع أن يؤمّن

لك بطاقة شخصيّة جديدة بمقدار مئة بيسيتا لا غير، ويتكفّل بتسجيلها بالوزارة أيضًا.

- أعرف ذلك. كان اسمه إيريديا. فنّان.

- كان اسمه؟

- لقد وجدوا جثّته تعوم عند الميناء منذ شهرين. قيل إنّه سقط من على أحد الزوارق بينما كان يتمشّى على حاجز الأمواج. ويداه معقودتان خلف ظهره. يا لسخرية الفاشيّين!

- هل كنتَ تعرفه؟

- تمّت بيننا بعض الاتصالات.

- هذا يعني أنّك تحصَّلت على الوثائق التي تؤكّد أنّك فيرمين روميرو دي توريس.

- أمّنها لي إيريديا في العام ١٩٣٩، عند نهاية الحرب تقريبًا. كان الأمر أسهل كثيرًا آنذاك. كنّا في قفص المجانين، وعندما أدركوا أنّ السفينة تغرق صاروا يبيعونك حتّى دروع النبلاء مقابل حفنةٍ من المال.

- فلماذا لا تستطيع استخدام اسمك إذن؟

- لأنّ فيرمين روميرو دي توريس توفّي في العام ١٩٤٠. كان ذلك الزمان بشعًا للغاية يا دانيال، أبشع ممّا نعيشه الآن. دي توريس المسكين، لم يتسنَّ له البقاء أكثر من سنة واحدة.

- هل توفّي؟ أين؟ وكيف؟

- في سجن قلعة مونتويك. في الزنزانة رقم ١٣.

تذكّرتُ ما كتبه ذلك المجهول إهداءً لفيرمين على نسخة الكونت دي مونتكريستو:

إلى فيرمين روميرو دي توريس، الذي عاد من عالم الأموات، ويمتلك مفتاح المستقبل.

١٣

- في تلك الليلة، لم أروِ لك إلّا جزءًا قصيرًا من الحكاية يا دانيال.

- ظننتُ أنّك تثق بي.

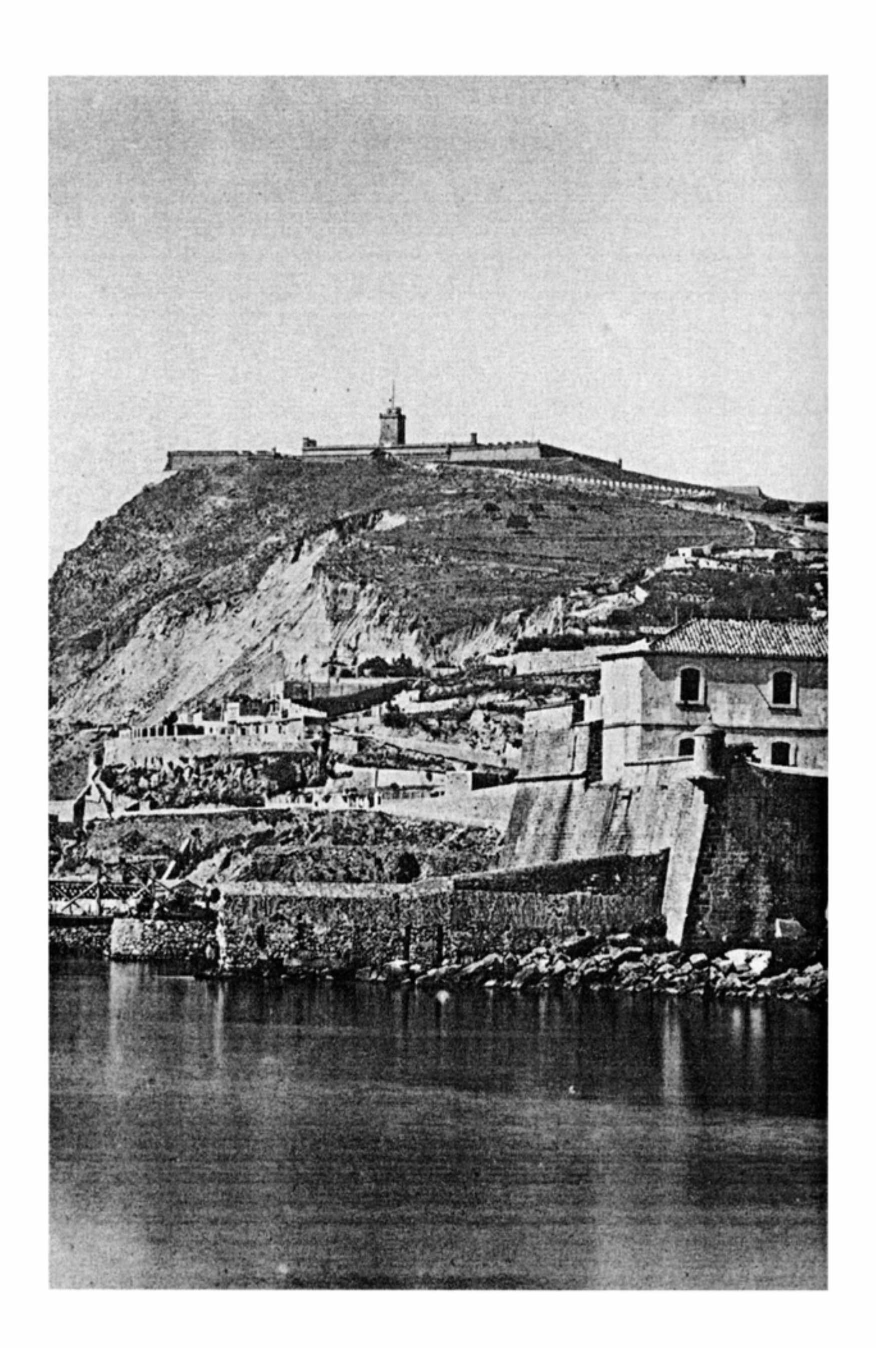
- بل إنّني ائتمنتك على حياتي بعينين مغمضتين. ليس هذا يا صديقي. إن كنتُ لم أروِ لك إلّا جزءًا من الحكاية، فهذا لأنّني أردتُ أن أحميك.

- أن تحميني؟ ممّ تحميني؟

- من الحقيقة، يا دانيال... من الحقيقة.

الفصل الثاني

من عالم الأموات



١

برشلونة، ١٩٣٩

كانوا يقتادون السجناءَ الجددَ في جنح الظلام، بالسيّارات أو بالعربات السوداء التي تقطع المدينة في صمتٍ مهيب، ينطلقون بهم من مخفر شارع لايتانا دون أن يلحظهم، أو يشأ أن يلحظهم أحد. وكانت عربات الأمن تصعد على تلك الطريق القديمة التي تؤدّي إلى هضبة مونتويك، وقد قال الكثيرون منهم إنّهم، عندما يتبدّى لهم جانبٌ من القلعة التي تعتلي القمّة، تنتأ من بين السحب السوداء التي تزحف فوق البحر، يدركون استحالة الخروج أحياءً من ذلك المكان.

كان الحصن راسيًا عند أعلى قمّة الصخرة، معلّقًا ما بين البحر جهة الشرق، وسجّادة الظلال التي تبسطها برشلونة جهة الشمال، ومدينة الأموات الفسيحة جهة الجنوب، مقبرة مونتويك القديمة، التي تتصاعد رائحةُ عفنها على الجبل وتتسرّب بين شقوق الحجارة وقضبان الزنازين. وكانت القلعة، في زمنٍ مضى، قد استُخدِمت لقصف المدينة بالمدفعيّة، حتّى طوّقها الموتُ وأطبق عليها الصمت بعد شهور قصيرة من سقوط برشلونة إثر الهزيمة النكراء في أبريل، وهكذا رزح البرشلونيّون في أطول ليلةٍ من تاريخهم، وآثروا ألّا يرفعوا

أبصارهم صوب السماء لئلا يروا منظر السجن الذي يعتلي قمّة الهضبة.

كان السجناء السياسيّون، أوان الزجّ بهم في المعتقل، يستلمون أرقامًا، تدلّ على زنازينهم المنفردة التي سيمكثون فيها بطبيعة الحال، والتي سيموتون فيها أرجح الظنّ أيضًا. وكانت الرحلة إلى القلعة، بالنسبة إلى غالبيّة النزلاء - كما كان يحلو لبعض السجّانين تسميتهم - رحلةُ ذهابٍ بلا إياب. كانت السماء تمطر بغزارةٍ، ليلةَ وصول النزيل رقم ١٣ إلى مونتويك. وكانت الجدران تنزف أنهارًا صغيرة من مياهٍ مكدّرة، ورائحة المكان تعطي انطباعًا بالأرض المزَلزَلة. سحله ضابطان لغاية قاعةٍ فارغةٍ من كلّ شيء عدا طاولة معدنيّة وكرسيّ. وهناك مصباحٌ عارٍ يتدلّى من السقف ويتراقص كالفراشة عندما تنخفض نسبة الدعم الكهربائيّ. ظل فيها قرابة نصف الساعة، ينتظر واقفًا بثيابه المبلّلة، تحت رقابة حارسٍ مسلَّحٍ بالبندقيّة.

تناهتْ أصواتُ خطًى بعد ذلك، إلى أن فُتِحَ البابُ ليدخل منه رجلٌ شابٌّ قد لا يتجاوز الثلاثين عامًا. كان يرتدي لباسًا صوفيًّا مكويًّا للتوّ، ويفوح منه عطر الكولونيا. لم يكن يتّسم بمظهر الرجل العسكريّ الناجح أو بمظهر ضابط في الشرطة. كانت تقاسيم وجهه مرهفة وسلوكه وقورًا. ظنّ السجين أنّه أمام مَن يدّعي الأكابريّة، ويكشف عن سلوكٍ ليّنٍ لمن يشعر بسموّه عن الرتبة التي يشْغلها وعن الخشبة التي يتقاسمها مع آخرين. وكانت عيناه أكثر المزايا التي تلفت الانتباه في محيّاه. زرقاوان وثاقبتان، تتأجّجان شراسةً وريبة. لا يمكن للمرء أن يتلمّس الطبيعة الحقيقيّة لذلك الرجل، إلّا عن طريق تينك العينين، اللتين تتخفّيان وراء واجهةٍ محسوبة الأناقة واللباقة.

إذ إنّ نظّارته المدوَّرة تكبِّر نظراتِه، أمّا شعرُه المدهونُ بالمرهم

اللمّاع والمُسرَّحُ إلى الخلف يضفي عليه هالةً مصطنعة بشكلٍ عامّ ومتعارضة مع مشهد الشؤم ذاك. جلس الرجل على الكرسيّ خلف الطاولة، وفتح ملفًّا كان يحمله بين يديه. وبعد تحليل سريع لمحتوى الملفّ، شبك يدًا بيد، وأسند ذقنه على براجم يديه، ونظر إلى السجين مطوّلًا.

- المعذرة يا سيّدي، أعتقد أنّ التباسًا ما قد حدث... - قال السجين.

تلقّى ضربةً بكعب البندقيّة على معدته، كادت تقطع أنفاسه، وارتمى على الأرض منكمشًا على نفسه.

- إيّاك أن تتحدّث قبل أن يستجوبك السيّد المدير. - أسرَّ له الحارس.

- قف على قدميك. - أمره السيّد المدير، بصوتٍ مرتعش، يوحي بأنّه ما زال غرًّا على إملاء الأوامر.

تمكّن السجين من النهوض ليواجه النظرة المرتبكة للسيّد المدير.

- الاسم؟

- فيرمين روميرو دي توريس.

نظر السجين إلى تينك العينين الزرقاوين وقرأ فيهما احتقارًا وعدم اكتراث.

- أيُّ اسمٍ هذا؟ هل تعاملني على أنّني غشيم؟ هيّا، انطق باسمك، اسمك الحقيقيّ.

قدّم السجينُ، هزيلُ البدن، وثائقه إلى السيّد المدير. فانتزعها الحارس من بين يديه ووضعها على الطاولة. ألقى المدير نظرة خاطفة عليها وفرقع بلسانه مبتسمًا.

- حيلة أخرى من حيل إيريديا... - غمغم قبل أن يرمي الوثائق في السلّة - هذه الأوراق لا تساوي شيئًا. هلّا قلتَ لي ما اسمك، وإلّا تعاملنا معك جدّيًا؟

حاول السجين رقم ١٣ أن ينطق بكلمة، لكنّ شفتيه كانتا ترتجفان، فما استطاع أن يتعتع بكلام غير مفهوم إلّا بشقّ الأنفس.

- لا تخف، فنحن لا نأكل البشر. ما الذي رووه على مسامعك؟ هناك الكثير من الشيوعيّين الحُمر الخرائيّين، يشيعون الأباطيل ليس إلّا. لكنّ ضيوفنا، إذا كانوا متعاونين، يلقون معاملة حسنة، تليق بأيّ إسبانيٍّ أصيل. انزع ثيابك، هيّا!

بدا النزيل متردّدًا للوهلة الأولى. أخفض المدير عينيه، كما لو كان مُحرَجًا من الوضع بأكمله، وما كان ليبقى هناك لولا عناد السجين. لم تكد تمرّ ثانيةٌ، فإذا الحارس يسدّد له ضربة أخرى بكعب البندقيّة، على موضع الكلى هذه المرّة، أطاحت به أرضًا.

- ألم تسمع ما أمرك به السيّد المدير. انزع ثيابك. لن نستغرق الليلة كلّها معك.

استطاع النزيل رقم ١٣ أن يجثو على ركبتيه، وينزع ثيابه المتّسخة والملطّخة بالدماء، شيئًا فشيئًا. وما إن غدا عاريًا كليًّا، حتّى دسّ الحارس قصبة البندقية تحت أحد إبطيه وأرغمه على النهوض. رفع المدير عينيه عن الطاولة، واكفهرّ وجهه بتعبيرٍ ينمّ عن اشمئزازه من رؤية تلك الحروق التي تغطّي ظهر السجين وردفيه وجزءًا من فخذيه.

- يبدو أنّ بطلنا أحدُ المعارف القدامى لفوميرو. - علّق الحارس.

- التزمِ الصمتَ أنت! - أمره المدير من دون إصرار تامّ.

نظر نافد الصبر إلى السجين ورأى أنّه يبكي.

- هيّا، لا تبكِ وقل لي ما اسمك.

همس السجين باسمه مرّة أخرى.

- فيرمين روميرو دي توريس...

تأفّف السيّد المدير منزعجًا.

- انظر، إنّك تُفقدِني صبري. أريد أن أساعدك، ولا يروق لي أن أضطرّ للاتصال بفوميرو لأخبره بأنّك هنا...

أخذ السجينُ يئنّ مثل كلبٍ جريح، ويرتجف بطريقة عصابيّة لدرجة أنّ المدير - الذي كان استياؤه من هذا المشهد واضحًا، بينما كان يريد إنهاء تلك المَهمّة في أقرب وقت ممكن - تبادل نظرةً مع الحارس، واكتفى بتدوين الاسم، الذي أفاد به السجينُ، في السجلّ. وهمس مجدِّفًا بشيء ما.

- حربٌ خرائيّة - غمغم في سرّه بينما كانوا يقتادون السجين إلى زنزانته، يسحلونه عاريًا على امتداد الدهاليز المليئة ببرك المياه.

٢

كانت الزنزانة مثلّثة الأضلاع ومظلمة وخانقة الرطوبة، وفيها فتحة صغيرة محفورة في الصخرة، يتغلغل منها الهواء البارد. والجدران مغطّاةٌ بخدوش وإشاراتٍ نَقَشَها النزلاء القدامى. كان بعضهم يكتبون أسماءهم وتواريخ تخصّهم، أو يتركون دلالة ما على وجودهم. وقد أمعن أحدهم في نخر الجدار بصلبانٍ تحت تلك الظلمة، غير أنّ السماء لم تكن تبدو قد تنبّهت إلى ندائه هذا. وكانت القضبان التي تسدّ الزنزانة من حديدٍ صدئ وتخلّف حجابًا من الأكسيد على يد من يتشبّث بها.

تقوقع فيرمين على السرير، محاولًا أن يستر عريه بقطعةٍ من القماش البالي الذي خُيِّل إليه بديلًا عن الغطاء والفراش والوسادة. كان الظلام يتفاوت متشعّبًا، كأنّه أنفاسُ شمعةٍ ذاوية. اعتادت عيناه بعد قليل على تلك الظلمات السرمديّة، وبدأت أذناه تصطفيان الأصوات لتلتقط منها تحرّكات الأجساد الدقيقة مُصدِرةً ابتهالاتٍ من أصداء وقطراتٍ بتساقطٍ رتيب، يحملها تيّارُ الهواء النافذ من الخارج.

ولم ينتبه فيرمين إلى وجود غرضٍ غارقٍ في ظلام أقصى الزنزانة، إلّا بعد مرور نصف ساعة من دخوله إلى هناك. نهض

واقترب منه ببطء ليكتشف أنّه عبارةٌ عن كيسٍ من قماش متعفّن. أخذ البرد والرطوبة يبلّلان عظامه، فعلى الرغم من رائحة تلك الصرّة الملطّخة بالبقع الغامقة التي لا تدعو إلى افتراضاتٍ مريحة، تيمّن فيرمين أن تحتوي على بذلة السجن التي لم يتطوّع أحدٌ لتسليمها له، ولعلّ الحظّ يجود عليه بأغطيةٍ تقيه ذلك البرد القارس. جلس القرفصاء عند الصرّة وحلّ عقدةً تغلقها من أحد الطرفين.

وعندما فتح ستارتها، كشف له ضياءُ الشموع المرتعشة في الممرّ عمّا خاله للوهلة الأولى وجه دمية، أو مجسّمٍ ينصبه الخيّاطون على واجهات محلاتهم لاستعراض الملابس التي يصمّمونها. إلّا أنّه فهم، من خلال الرائحة النتنة والغثيان الذي راوده، أنّه لم يكن أمام أيّ شيء من ذلك النوع. سدّ أنفه وفمه بيدٍ، ونزع ما تبقّى من الستارة باليد الأخرى، وتراجع حتّى اصطدم بجدار الزنزانة.

على ما يبدو، كانت جثّة راشدٍ من الصعب تحديد عمره، ما بين الأربعين والخمسة وسبعين عامًا، ووزنه لا يزيد على الخمسين كليوغرامًا. وكان شعره الطويل ولحيته البيضاء يغطّيان جزءًا كبيرًا من جسمه الذي استحال هيكلًا عظميًا. يداه متخشّبتان، وأظفاره طويلة ومبرومة، لكأنّها مخالب طائر. وكانت عيناه مفتوحتين، والقرنيّتان مغضّنتين مثل فاكهةٍ ناضجة. فمه شبه مفتوح، ولسانه منتفخٌ ومسوَّدٌ ظلّ معوَّجًا بين أسنانه الغثّة.

- انزع الثياب عن الجثّة قبل أن يُخرِجوها من هنا. - قال له صوتٌ من زنزانةٍ على الطرف الآخر من الممرّ - لن يقدّموا لك ثيابًا أخرى قبل الشهر القادم.

سَبَرَ فيرمين الظلالَ والتقط لمعان تينك العينين اللتين تحدّقان إليه من سرير الزنزانة الأخرى.

- لا تخف أبدًا، فذلك المسكين لم يعد قادرًا على إيذاء أحد.
- طمأنه الصوتُ.

أومأ فيرمين واقترب من الصرّة مجدّدًا، متسائلًا ما الفعل الأجدى لإنجاز تلك العمليّة.

- اعذرني. - همس للميّت - فلترقد روحك بسلام وليتغمّدك الربّ برحمته.

- كان ملحدًا. - أعلمه الصوت من الزنزانة المقابلة.

هزّ فيرمين رأسه وقرّر التوقّف عن تلك المراسم. فالبرد الذي كان يتموّج في الزنزانة يدكّ حتّى العظام، وكأنّه ينصحه بعدم جدوى التهذيب في ذلك المكان. حبس أنفاسه وهمّ إلى العمل. كانت رائحة اللباس من رائحة الجثّة. وقد بدأ التصلُّب الموتيّ ينتشر ليشمل كامل الجسد، ما جعل مهمّة تعريته أصعب ممّا تخيَّله فيرمين. غطّى الجثّة بالكيس بعد أن نزع عنها جميل ثيابها، وربط العقدة على طريقة البحّارين فلم يكن حتّى بمقدور الساحر هوديني الشهير أن يحلّها. ثمّ ارتدى فيرمين تلك الثياب الممزَّقة والنتنة، واستلقى ثانيةً على السرير، متسائلًا كم من سجينٍ قبله استخدم تلك البذلة نفسها.

- شكرًا. - قال أخيرًا.

- لا شكر على واجب. - أجاب الصوتُ من الطرف الآخر للممرّ.

- فيرمين روميرو دي توريس، في خدمتك.

- دافيد مارتين.

قطّب فيرمين حاجبيه. بدا له الاسم مألوفًا. وظلّ يخلط أصداءَ بذكرياتٍ مدّة خمس دقائق، ثمّ أضيء المصباح في رأسه وتذكّر تلك

الأمسيات التي اختلسها من الزمن وقضاها في إحدى زوايا مكتبة كارمن، يلتهم سلسلة كتبٍ متينة الأغلفة وقويّة العناوين.

- مارتين، الكاتب؟ الذي ألّف «مدينة الملاعين»؟

تنهيدةٌ في الظلّ.

- لم يعد أحدٌ يحترم الأسماء المستعارة في هذا البلد.

- اعذرني على تطفُّلي. اللائمة تُلقى على افتتاني بكتبك إلى حدٍّ كبير، ما جعلني أتوصّل إلى أنّ حضرتك هو الذي كان يكتب بقلم القدير إغناثيوس ب. سامسون...

- في خدمتك.

- حسنٌ، اسمع يا سيّد مارتين، تسعدني معرفتك، حتّى لو أنّها تمّت وسط هذه الظروف المأساويّة، فأنا منذ سنوات من أحد المعجبين المهتمّين بحضرتك و...

- فلنحاول أن نسكت، أيّها العصافير، فهنا ثمّة أناسٌ يحاولون النوم. - دوّى صوتٌ حادٌّ بدا أنّه قادمٌ من الزنزانة المجاورة.

- ها قد وصل أكثر الفرحين في البيت. - قاطعه صوتٌ آخر من أقصى الممرّ. - لا تصغِ إليه يا مارتين، فهنا ما إن يغفو المرء حتّى يأكله البقّ حيًّا، ابتداءً من الأعضاء الحميميّة. هيّا يا مارتين، لماذا لا تروي لنا حكاية؟ من حكايات تلك البنت التي سمّيتها كلويه...

- حقًّا، فهكذا تجعله يهذر مثل القرد. - ردّ الصوت الحادّ.

- صديقي فيرمين - أوضح مارتين من زنزانته - يسرّني أن أقدّم لك الرقم ١٢، المتشائم الذي يرى السواد في أيّ شيء، والرقم ١٥، صاحب الأرق، المثقّف والمفكّر الإيديولوجيّ الرسميّ في هذا الجناح. البقيّة نادرًا ما يتكلّمون، وبالأخصّ الرقم ١٤.

- أتكلّم عندما يكون في جعبتي ما أقول. - تدخّل صوتٌ غليظٌ وجامد، تصوّر فيرمين أنّه صوت الرقم ١٤ - ولو فعلنا جميعًا الأمر ذاته، لقضينا الليالي في وئام.

قيّم فيرمين تلك الجماعة الفريدة من نوعها.

- مساء الخير للجميع. أدعى فيرمين روميرو دي توريس، ولي الشرف بمعرفتكم.

- الشرف كلّه لك وحدك. - ردّ الرقم ١٢.

- أهلًا بك، وآمل أن تكون إقامتك قصيرة. - قال الرقم ١٤.

ألقى فيرمين نظرةً على الصرّة التي تحتوي الجثّة، ومضغ ريقًا.

- أمّا ذاك، فكان اسمه لوسيو، الرقم ١٣ السابق. - فصّل مارتين - لا نعرف عنه أيّ شيء لأنّ المسكين كان أبكم. عيارٌ ناريٌّ فجّر حنجرته عند نهر الإبرو.

- يؤسفنا أنّه كان الأبكم الوحيد. - علّق الرقم ١٢.

- وما سبب وفاته؟

- بكلّ بساطة، هنا يموت المرء لمجرّد أنّه هنا. - أجاب الرقم ١٢ - ما من داعٍ لأيّ سبب آخر.

٣

للروتين دوره في الاعتياد. كانوا يقتادون سجناء الجناحين الأوّلين، مرّة في اليوم، لمدّة لا تتعدّى الساعة، إلى باحة الخندق، كي يتنعّموا قليلًا بالشمس، أو المطر أو أيّ شيء يعبر السماء. أمّا حصّة الطعام فتتكوّن من قصعة نصف ممتلئة بخليطٍ بارد، ممرَّغٍ وممتقع، يصعب تحديد طبيعته ومذاقه الزنخ، لكنّ السجين بعد مرور أيّامٍ تسودها تشنّجات المعدة بسبب الجوع، تنتهي به الحال للاعتياد عليه. كانوا يوزِّعون الحصص في منتصف العصر، وهكذا تعوَّد السجناء يومًا بعد يوم أن يتلهّفوا وصول الطعام.

يسلِّم المحتَجزون ثيابهم المتسخة مرّة في الشهر، ويستلمون ثيابًا غيرها، من المرجّح أنّها أغرِقتْ بضع دقائق في سخّان المياه المغليّة، من حيث المبدأ، مع أنّ البقّ لا يبدو أنّه حصل على إشعار بهذا الأمر. وكانت الصلاة تقام يوم الأحد، التي يوصى بالمشاركة فيها بل يُحذِّر الجميعُ من عدم المجازفة في إضاعتها، لأنّ القسّ ينادي على الصلاة، وفي حال تغيَّب أحدٌ ما، يسجِّل غيابه. الغياب مرّتين عن الصلاة يُترجَم إلى أسبوع كامل من الصيام. الغياب الثالث يُترجَم إلى شهرٍ كامل من الحبس الانفراديّ في إحدى زنازين البرج.

وكانت المراقبة مُحكَمةً على كلّ الأجنحة والباحات والمجالات

التي يشغلها السجناء. فكتيبة الحرّاس المسلّحين بالبنادق والمسدّسات تمسك السجن بقبضةٍ حديديّة، وإذا خرج أحد النزلاء من زنزانته، كان من الصعب ألّا ينظر في أيّ اتّجاهٍ دون أن يرى ما لا يقلّ عن عشرات الأعين المتربّصة والأسلحة المتأهّبة. إضافةً إلى الحرّاس، ثمّة السجّانون وهم أقلّ خطرًا. لم يكن لأيّ أحد منهم مظهر العسكريّ، وقد ساد الرأي العامّ بين السجناء أنّ أولئك السجّانين مجرّد فقراء بؤساء لم يفلحوا في العثور على عملٍ أفضل في تلك الأيّام السوداء.

لكلّ جناحٍ سجّانٌ واحدٌ مكلَّفٌ به، وسلاحه لا يعدو على حزمة مفاتيح، ودوريّته تستمرّ اثنتي عشرة ساعة، يقضيها جالسًا على كرسيٍّ في آخر الممرّ. وكانوا في غالبيّتهم يتجنّبون مؤاخاة المساجين، بل وحتّى التوجُّه إليهم بكلمة أو نظرةٍ تتعدّى الضروريّ. الاستثناء الوحيد منهم كان متمثّلًا في شيطانٍ مسكين، الملقَّب بيبو، والذي كان قد فقد عينًا خلال إحدى الغارات الجويّة عندما كان يعمل حارسًا ليليًّا في أحد المصانع من بويبلو سيكو.

يقال إنّ لبيبو أخًا توأمًا موقوفًا في أحد سجون فالنسية، وإنّه لهذا السبب كان يعامل السجناء بحفاوةٍ محدودة، فضلًا عن مدّهم - تهريبًا أو خفيةً - بالماء الصالح للشرب والخبز الجافّ وأيّ شيء ينجح في اختلاسه من الطرود المرسَلة من عائلات المعتَقَلين والتي يسطو عليها الحرَّاس بصفتها غنائم في طبيعة الحال. كان يروق لبيبو أن يجرّ كرسيّه ليقترب من زنزانة دافيد مارتين، ليستمع إلى تلك الحكايات التي كان يقصّها ذلك الكاتب أحيانًا. في ذلك الجحيم الفريد من نوعه، كان بيبو أشبه بملاكٍ في حدوده الدنيا.

درجت العادة أن يتوجّه السيّد المدير، بعد صلاة الأحد، إلى المساجين بكلماتٍ باعثة على الخير. وكلُّ ما كان يُعرَف عنه أنّ اسمه ماوريسيو ڤايس، وأنّه قبل الحرب كان ذا إلهامٍ أدبيٍّ متواضع، وكان يعمل سكرتيرًا ومدبِّرَ شؤون أديبٍ محليٍّ محدود الشهرة وندٍّ لدودٍ للطيّب الدون پيدرو ڤيذال. وكان ڤايس في أوقات فراغه يترجم (بأسلوب سيّئ) الأعمال الكلاسيكيّة الإغريقيّة واللاتينيّة، وكان ينشر رفقة اثنين من توأم روحه ورقةً تعكس طموحاتٍ ثقافيّة عظيمة وانتشارًا ضحلًا، وينظّم أمسيات في الصالونات حيث يحتشد كبار القامات الرفيعة، يرثون سوء الأحوال، ويتنبّأون بأنّ هذا العالم سيرتقي حتّى الأولمب إذا قُدِّر لأيّ أحدٍ منهم أن يمسك بمقبض السكّين يومًا ما.

كانت حياة ڤايس تبدو أنّها تسير نحو ذلك الوجود الرماديّ المرير لأولئك الفاشلين الذين باركهم الربُّ الجائرُ بهذيان العظمة وغطرسة العمالقة. وذلك رغم أنّ الحرب كتبت له مصيره، مثل مصير الكثيرين غيره: كان قدر ڤايس سيتغيّر عندما سيمرّ في وضعٍ يتراوح بين الصدفة والحظّ بالزواج من امرأة غنيّة، وهو الذي كان حتّى تلك اللحظة لا يعشق إلّا موهبته الفذّة وتهذيبه الرقيق، فأمضى عقدًا بالزواج من ابنة أكبر رجال الصناعة المتنفّذين الذي كانت مجسّاتُه تدعم القسم الأعظم من ميزانيّة الجنرال فرانكو وجحافله.

وكانت الخطيبة أكبر من ماوريسيو بثماني سنوات، مهدودةً على كرسيٍّ متحرّك منذ أن كان عمرها ثلاثة عشر عامًا، إذ أصابها مرضٌ إبّان الولادة، التهم عضلاتها ونهش حياتها. ما من رجل نظر إلى عينيها إطلاقًا، ولا أخذ بيدها وأسمعها غزلًا بجمالها أو سألها عن اسمها. أمّا ماوريسيو، شأنه شأن كلّ الأدباء المفتقرين إلى الموهبة،

كان في أعماقه رجلًا عمليًّا بقدر ما كان مغرورًا، فكان أوّل المتقدِّمين إليها وآخرهم، ولم تمضِ سنةٌ على تعارفهما حتّى انعقد القران بينهما في إشبيلية بمشاركةٍ كريمةٍ من الجنرال كيبو دي يانو فضلًا عن جهابذة أجهزة الدولة الآخرين.

- ستكون مسيرتك حافلة بالنجاح يا ڤايس. - تكهَّن له سيرانو سونيير شخصيًّا أثناء اجتماع خاصّ في مدريد، والذي حضره ڤايس ليتسوَّل منصب إدارة المكتبة الوطنيّة - إنّ إسبانيا تمرّ في لحظاتٍ عصيبة، وعلى كلّ إسبانيٍّ محترم أن يتعاون لاحتواء الموجة الماركسيّة التي يريدون بها إفساد روحنا المحافِظة - صرّح صهرُ الزعيم، بنبرةٍ مشتعلة، وكان مرتديًا بذلة الأميرال الهزليّة.

- سيادتكم، اعتمدوا عليّ في أيّ شيء! - تطوّع ڤايس.

اتّضح لاحقًا أنّ ال«أيّ شيء» تعني منصب مدير، صحيح، ولكنْ ليس مديرًا للمكتبة الوطنيّة الهائلة الذي تمنّاه هو، إنّما مدير سجنٍ سيّئ السمعة، رابضٍ على قمّة الهضبة التي تهيمن على مدينة برشلونة. إذ إنّ لائحة المحسوبيّات، من الأصدقاء والمتقرِّبين المراد توكيلهم مناصب رفيعة، كانت طويلة ومسهبة، وعلى الرغم من التعهُّد الذي أعرب عنه ڤايس، فإنّه ما زال في قاع تلك اللائحة.

- كن صبورًا يا ڤايس. ستلقى جهودُك مكافأةً معتَبرة.

وهكذا تعلَّم ڤايس أنّ الدرس الأوّل من أصول الفنّ الوطنيّ المعقَّد في المخاتلة والوصوليّة بعد تغيير أيّ نظام هو التالي: آلافٌ من الإمّعات والمتبدِّلين يشاركون في التسلّق، لذا فإنّ المنافسة ستكون قاسيةً على أشدّها.

٤

هذا ما أفادت به الخرافة على الأقلّ. إذ إنّ ذلك التراكم غير الموثّق من الشكوك والمزاعم والشائعات المستهلَكة، كان قد وصل إلى المساجين بفضل خبث المدير السابق، الذي سُرِّحَ بعد أقلّ من أسبوعين على اعتلائه المنصب، فغدا متحاملًا على ذلك الواصل الجديد لأنّه أزاحه عن الكرسيّ الذي صارع من أجله طوال فترة الحرب. كان المدير المعزول يفتقر إلى العلاقات العائليّة وسلَّم أمره لحكمة القدر التي فاجأته وهو مخمور، يتلفّظ بالتعليقات المسيئة بحقّ الجنرال الأكبر لكافّة الأراضي الإسبانيّة، متحدّثًا عن أوجه الشبه غير المعقولة بين الجنرال والجدجد الناطق. وقبل أن يؤول إلى نائب مدير سجن في سويتا، تفرَّغ لإشاعة الافتراءات بحقّ ماوريسيو ڤايس ونعته بأقبح الأوصاف على مسامع الجميع.

غير أنّ الشيء الوحيد المؤكّد هو الامتناع عن التنويه إلى ڤايس بألقابٍ أخرى عدا «السيّد المدير». فالرواية الرسميّة، التي عمّمها بنفسه، تفيد بأنّ الدون ماوريسيو كان رجل أدبٍ ذا اعتبارٍ مرموق، وصاحب عقلٍ مثقّف، وإطلاعٍ واسع وإلمامٍ تراكم على مدى سنوات الدراسة في باريس، وأنّه بصرف النظر عن انشغاله الموقت في قطاع سجون النظام، كان صاحب رسالة مصيريّة تتطلّع إلى الارتقاء

بالمواطنين البسطاء في إسبانيا المنكوبة وتأهيلهم لاستخدام الفكر بمساعدة حلقة نخبويّة من المفكّرين الكبار.

وغالبًا ما كانت خطاباته تشمل على اقتباسات موسّعة من الكتب والقصائد، والمقالات التربويّة عن الأدب والفلسفة، وضرورة تجديد الفكر الغربيّ الذي كان يدأب على نشره في الصحافة الوطنيّة بلا كلل. وعندما كان السجناء يصفّقون بحرارة في نهاية تلك المحاضرات العظمى، كان السيّد المدير يلوّح بلفتةٍ كريمة، ليبدأ السجّانون بتوزيع السجائر والشموع، وبعض الأغراض الفاخرة المنتقاة من يانصيب الطرود والأعطيات المرسَلة إلى المساجين من قِبل أقاربهم. أمّا الموادّ اللذيذة، يصادرها السجّانون مسبقًا، فإمّا يحملونها إلى بيوتهم أو يبيعونها للنزلاء، وذلك يبقى أفضل من لا شيء.

يبلغ عدد الموتى، لأسباب طبيعيّة أو غير معروفة، من واحد إلى ثلاثة مساجين في الأسبوع بطبيعة الحال. تُجمَع جثثهم في منتصف الليل، باستثناء نهايات الأسبوع أو الأعياد الدينيّة. ففي الحالتين الأخيرتين، تظلّ الجثّة في الزنزانة لغاية يوم الاثنين أو اليوم الذي يعقب العيد، وعادةً ما كانت تؤانس النزيلَ الجديد. وعندما كان السجناء يعمّمون خبر انتقال أحد رفاقهم إلى حياةٍ أفضل، كان أحد السجّانين يقترب منه، ويتحقّق من المعصم أو التنفُّس، ويضعه في إحدى الصرر القماشيّة التي تُستَخدم لذلك الغرض تحديدًا. وما إن تُعقَد الصرّة، يرقد المتوفّى في الزنزانة، في انتظار أن يأتي الدفّانون من مقبرة مونتويك المتاخمة لتشييعه إلى هناك. ولا أحد يدري ما مآل الجثّة؛ وعندما سُئِل بيبو عن ذلك، رفض السجّانُ الإدلاء بأيّ إجابة وطأطأ رأسه.

تقام الإعدامات العسكريّة المستعجلة كلّ خمسة عشر يومًا،

ويُعدَم المدانون رميًا بالرصاص عند الفجر. وكانت سَريّة تنفيذ الإعدام لا تتمكّن أحيانًا من التسديد إلى أيٍّ عضوٍ حيويّ، بسبب تردّي البنادق أو الأعيرة، فيواصل الضحايا الساقطون في الحفرة أنين الاحتضار على امتداد ساعات. وفي بعض المناسبات، يدوّي انفجارٌ ما فيتوقّف الصراخ فجأة. وكانت النظريّة التي تداولها السجناء أنّ أحد الضبّاط أطلق رصاصة الرحمة على المدانين، لكنّ أحدًا لم يكن على يقين من أنّ ذلك التفسير هو الصحيح.

وإحدى تلك الشائعات السائدة في داخل السجن كانت أنّ السيّد المدير قد اعتاد على استقبال زوجات المعتقلين، وبناتهم وخطيباتهم، بل وحتّى عمّاتهم وجدّاتهم، في مكتبه صباح يوم الجمعة. وكان ينزع خاتم الزواج من إصبعه، ويودِعه في الدرج الأوّل من المكتب، ويصغي إلى توسلاتهنّ، ويعاين طلباتهنّ، ويعطيهنّ منديلًا يمسحن به دموعهنّ، ويقبل هداياهنّ أو أيَّ معروفٍ من طبيعة أخرى، يقدِّمنها بعد تعهُّدٍ بتغذيةٍ أفضل أو بمعاملةٍ حسنى أو بإعادة النظر في الأحكام الجائرة التي لا يصدر عنها أيُّ قرارٍ قضائيٍّ أبدًا.

وفي مناسبات أخرى، كان ماوريسيو ڤايس يقدِّم لهنّ الحلوى المرافقة للشاي، وكأسًا من نبيذ الموسكاتيلو، ولئن كانت فجائع تلك الآونة وسوء التغذية ما تزال تتمتّع بمظهر لائق ومذاق محبَّب، فإنّه لم يكن يتوانى عن إلقاء ما تيسَّر من كتاباته عليهنّ، ويعترف بأنّ زواجه من امرأة سقيمة كان كالآلام المقدَّسة، ويقول بالفم الملآن كم كان يكره عمله مديرَ سجنٍ، وكان يعتبر توريطَ رجلٍ بقامته الثقافيّة، وأناقته ولياقته، مهانةً لا تضاهيها مهانة، في حين أنّ قدره الطبيعيّ أن يكون جزءًا من نخبة الأمّة.

كان الجنود المخضرمون في ذلك المكان ينصحون بعدم لفظ اسم السيّد المدير، بل وبعدم التفكير فيه إن أمكن. كما كان السواد الأعظم من السجناء يفضِّلون التحدُّث عن عائلاتهم التي خلّفوها وراءهم، أو عن زوجاتهم، أو عن الحياة التي كانوا يتذكّرونها. وقد احتفظ بعضهم بصور خطيباتهم أو عرائسهم، وخبّأوا الصور خشيةً من الغيرة، وكانوا يدافعون عنها بحياتهم إذا ما حاول أحدهم مصادرتها منهم. علم فيرمين من أكثر من سجين أنّ المرحلة الأسوأ هي في الشهور الأولى. ثمّ حالما يُفتَقد أيُّ أمل بالخروج، يبدأ الوقت بالمرور مستعجلًا وتنطفئ جذوةُ الروح بتلك الأيّام التي ليس لها معنى.

٥

في أيّام الأحد، بعد الصلاة وخطبة السيّد المدير، كان بعض السجناء يجتمعون في إحدى زوايا الباحة تحت الشمس ليتقاسموا السجائر ويستمعوا القصص التي يرويها دافيد مارتين، عندما يكون في كامل وعيه. وكان فيرمين، وهو الذي يعرفها كلّها لأنّه قرأ كامل سلسلة «سجين السماء»، ينضمّ إليهم ويطلق العنان لمخيّلته. إلّا أنّ مارتين لا يبدو في معظم الأحيان قادرًا على العدّ حتّى الرقم خمسة، لذا يتركه الآخرون في سلامٍ، يتحدّث إلى نفسه، ويذهبون للتجوُّل في الباحة. كان فيرمين يراقبه باهتمام، ويتابعه عن كثب أحيانًا، إذ كان شيءٌ ما في ذلك الشيطان المسكين يحرق قلبه. ويحاول فيرمين، بألاعيبه وحيله الناجحة، أن يؤمّن له السجائر، بل وحتّى ظروف السكّر، التي كان مارتين يعشقها حتّى الموت.

- فيرمين، أنت رجلٌ طيّب. حاولْ أن تخفي هذه الميزة.

ولطالما كان مارتين يحمل معه صورةً قديمة يحبّ التأمّل فيها مطوّلًا. كان يتجسّد فيها رجلٌ بثيابه البيضاء، يشبك يد طفلةٍ في سنّ العاشرة. كانا ينظران صوب مغيب الشمس من على حافة رصيفٍ خشبيٍّ صغير يشقّ البحر من الشاطئ، ليبدو مثل ممشًى معلّقٍ على

تلك المياه الشفّافة. وكلّما سأله فيرمين عن الصورة، اكتنف الصمتُ مارتين واكتفى بإدلاء ابتسامة قبل أن يعيد الصورة إلى جيبه.

- من تلك الفتاة التي في الصورة، يا سيّد مارتين؟

- لست متأكّدًا يا فيرمين. تخونني الذاكرة أحيانًا. ألا يصيبك الأمر ذاته؟

- بالتأكيد. هذا يصيب الجميع.

يقال إنّ دماغ مارتين لم يكن يعمل بشكلٍ جيّد، لكنّ فيرمين، وبعد أن صار يتردّد إليه قليلًا، رأى أنّ المسكين كان في حالٍ من التردّي أسوأ ممّا يتخيّله بقيّة السجناء. كان يبدو أكثر صفاءً من الجميع تارةً، وسرعان ما يبدو غير واعٍ للمكان الذي هو فيه تارةً أخرى، فتراه يسهب في الحديث عن أماكن وشخوص لم يكن لهم أيّ وجود إلّا في مخيّلته، أو ربّما في ذكرياته.

وكم مرّة استيقظ فيرمين في قلب الليل، واستمع إلى مارتين مشغولًا في محادثةٍ بصوتٍ منخفض داخل زنزانته. وإذا اقترب بحذرٍ من القضبان، وجعل أذنيه أكثر نفاذًا، تبيّن له أنّ مارتين يناقش رجلًا يتوجّه إليه باسم السيّد كوريلّي، واستنادًا إلى محتوى تلك المحادثات، يبدو أنّ كوريلّي هذا شخصيّة غريبة الأطوار كثيرًا.

في إحدى تلك الليالي، أشعل فيرمين ما تبقّى من آخر شمعةٍ لديه، ورفعها باتّجاه الزنزانة المقابلة ليكتشف أنّ مارتين كان بمفرده، وأنّ كلا الصوتين - صوته وصوت كوريلّي - صادران عن الشفتين نفسيهما. كان مارتين يمشي في دائرة داخل الزنزانة؛ وعندما تقاطعت نظراته بنظرات فيرمين، بدا للأخير أنّ رفيقه في الجناح لم يكن يراه وأنّه يتصرّف كما لو أنّه لا وجود لحيطان ذلك السجن، وأنّ محادثته مع ذلك الرجل الغريب تجري في مكانٍ بعيد جدًّا عن هناك.

- لا تكترث لما ترى. - غمغم الرقم ١٥ تحت الظلام - إنّه هو نفسه في كلّ ليلة. إنّه مجنونٌ خطير. هنيئًا له.

وفي الصباح التالي، سأله فيرمين عن ذلك الكوريلّي وعن محادثاته الليليّة تلك، فنظر إليه مارتين مذهولًا واكتفى برسم ابتسامةٍ مرتبكة على وجهه. وذات مرّة لم يغمض لفيرمين جفن من شدّة البرد، اقترب ثانيةً من القضبان وسمع مارتين يتكلّم مع أحد أصدقائه الخفيِّين. فتشجّع فيرمين في تلك الليلة، وقاطعه.

- مارتين؟ أنا فيرمين، جارك في الزنزانة المواجهة. هل أنت بخير؟

دنا مارتين من القضبان، واستطاع فيرمين أن يرى في وجه جاره دموعًا غزيرة.

- مَن إيزابيلا هذه، يا سيّد مارتين؟ كنتَ تتحدّث عنها منذ دقيقة.

حدَّق مارتين إليه طويلًا.

- إيزابيلا هي الشيء الطيّب الوحيد الذي بقي في هذا العالم الخرائيّ. - أجاب بشراسة غير معتادة عنه - لو لم يكن من أجلها، لاستحقّ هذا العالمُ النارَ والاحتراقَ حتّى يستحيلَ إلى مجرّد رماد.

- المعذرة يا مارتين. لم يكن في نيّتي إزعاجك.

تراجع الكاتب إلى الظلّ. وفي اليوم التالي وجدوه يرتجف في بِركة من دماء. كان بيبو غافيًا على كرسّيه، فانتهز مارتين الفرصة كي يقحط معصميه بالحائط حتّى تمزّقت شرايينه. وعندما حملوه بالنقّالة بعيدًا، كان شاحب الوجه حتّى اعتقد فيرمين أنّه لن يراه بعد ذلك أبدًا.

- لا تقلق بشأن صديقك، يا فيرمين. - قال الرقم ١٥ - لو كان

سجينًا آخر، لانتهت به الحال إلى الصرّة مباشرة، لكنّ السيّد المدير لن يترك مارتين للموت. ولا أحد يدري السبب.

ظلّت زنزانة مارتين خاليةً طوال خمسة أسابيع. وعندما عاد به بيبو، متّكئًا عليه، ومرتديًا بيجاما بيضاء كما لو أنّه طفلٌ صغير، كان مضمَّد الذراعين حتّى المرفقين. لم يعد يذكر أحدًا، وقضى الليلة الأولى يتحدّث إلى نفسه ويضحك. أعَدَّ بيبو كرسيّه أمام تلك القضبان، ولم يغفل عنه طوال الليل، وما انفكّ يمدُّه بظروف السكّر التي سرقها من غرفة الضبّاط وأخفاها في جيوبه.

- سيّد مارتين، أرجوك ألّا تتفوّه بهذه الأشياء، لئلا يعاقبك الربّ. - كان يهمس إليه بين ظرفِ سكّرٍ وآخر.

كان الرقم ١٢، في الحياة الطبيعيّة، يدعى الدكتور رامون ساناوخا، رئيس قسم الطبّ الباطنيّ في مستشفى كلينيكو، وهو رجلٌ مستقيمٌ ومحصَّنٌ عن نوبات الهذيان والاحتقانات الإيديولوجيّة، أرسلوه إلى القلعة بسببٍ من ضميره المتيقّظ ورفضه الوشاية بزملائه. درجت العادة أن لا يتمّ الاعتراف بكفاءات السجين بين تلك الحيطان. إلّا إذا كان تلك الكفاءات تعود بالنفع للسيّد المدير. وسرعان ما تمّ الاعتراف بتميُّز الطبيب ساناوخا.

- مع الأسف، ليس لديّ هنا العدّة الطبيّة التي أرغب فيها. - شرح له ڤايس - والحال أنّ النظام لديه أولويّاتٌ أخرى، ولا يهتمّ كثيرًا إذا تعفّن أحدٌ منكم بالسرطان في زنزانته. تمكّنتُ أخيرًا، وبعد معارك كثيرة، من الحصول على صيدليّة للإسعافات الأوليّة، لكنّها رديئة الطاقم، إضافةً إلى طبيبٍ أقلّ من عاديّ لا أعتقد أنّهم علّموه حتّى كيف يتصرّف بالمكنسة في كليّة الطبّ البيطريّ. ولكن، هذا هو

الموجود. تبيَّن لي أنّ حضرتك، قبل أن تقترف أخطاء الموقف المحايد، كنت طبيبًا ذا مكانة عالية. ولأسبابٍ لا أرى أنّه الظرف المناسب لشرحها، أجد من الضروريّ أن لا يرحل عنا السجين دافيد مارتين قبل أجله. إن كنتَ حضرتك موافقًا على التعاون من أجل إبقائه في حالةٍ صحيّة جيّدة، فسأضمن لك - آخذًا الظروف بعين الاعتبار - أنّي سأذلّل المصاعب التي تلقاها في إقامتك هنا، وسأتولّى بنفسي الطلب في إعادة النظر بقضيّتك والمناشدة بتخفيف العقاب.

أومأ الطبيب ساناوخا.

- بلغ إلى مسامعي أنّ بعض المساجين يدّعون أنّ مارتين يعاني من اضطرابٍ في رأسه. فهل هو كذلك؟ - سأل السيّدُ المدير.

- لست طبيبًا نفسانيًّا، ولكن في رأيي المتواضع، أعتقد أنّه من الواضح أنّ مارتين غير متوازن.

تمعّن مدير السجن في ذلك التقييم.

- وبالنسبة إليك، كطبيب، كم من الوقت تظنّه سيستمر؟ - سأل
- حيًّا، أقصد.

- لا أدري. ظروف السجن غير صحيّة و . . .

قاطعه المدير بحركةٍ تنمّ عن ضجره، وهو يهزّ رأسه.

- وكم من الوقت تعتقد أنّه سيستطيع الحفاظ على قواه العقليّة؟

- ليس كثيرًا، كما أتصوّر.

- أفهم.

عرض السيّد المدير سيجارة على الطبيب فرفضها.

- أنت تحترمه، أليس كذلك؟

- أعرفه بالكاد. - ردّ الطبيب - يبدو أنّه رجلٌ ماهر.

ابتسم السّيد المدير.

- بل إنّه كاتبٌ رديء. أسوأ كاتب أنجبه هذا البلد.

- السيّد المدير هو الخبير العالميّ بالأدب. أنا لا أفقه في هذه الأمور.

حدّق إليه ڤايس بفتور.

- لقد عزلتُ أحدهم في سجن منفرد مدّة ثلاثة شهور، لأنّه أبدى وقاحةً محدودة. ولا يصمد إلّا قلّةٌ في تلك الزنازين، وإن فعلوها فقدْ يعودون بحالةٍ أسوأ من حالة صديقك مارتين. إيّاك أن تعتقد أنّ شهادتك تميُّزك عن غيرك. أقرأ في ملفّك أنّ لديك خارج السجن زوجةً وثلاث بنات. لذا فإنّ مصيرك ومصير عائلتك متعلِّقٌ بالفائدة التي سأجنيها منك. هل كلامي واضح؟

ابتلع الطبيب ريقًا.

- أجل يا سيّدي المدير.

- شكرًا يا. . . «دكتور»!

راح المدير يطلب من ساناوخا، بين الفينة والأخرى، أن يلقي نظرة على مارتين، لأنّ الألسنة الحاقدة كانت تروِّج أنّه لا يثق بطبيب السجن كثيرًا، المحتال الذي من كثرة ما حرّرَ شهادات وفاة، بدا أنّه قد نسي مفهوم العلاج ما أدّى إلى تسريحه من عمله بعد فترة وجيزة.

- كيف حال المريض، أيّها الطبيب؟

- ليس بخير.

- مفهوم. وماذا عن شياطينه؟ أما يزال يتحدّث إلى نفسه ويتخيّل أشياءَ؟

- لا بوادر لأيّ تحسُّن.

- قرأتُ في مجلّة «آ ب ت» مقالًا رائعًا كتبه صديقي العزيز سيباستيان خورادو، يتحدّث فيه عن الشيزوفرينا، مرض الشعراء.

- لستُ مؤهَّلًا للقيام بتشخيصٍ كهذا.

- لكنّك قادرٌ على إبقائه حيًّا، أليس كذلك؟

- أحاول.

- افعل شيئًا آخر أكثر من المحاولة. فكّرْ في بناتك. اللواتي ما تزلن فتيات صغيرات. وليس لهنّ مَن يدافع عنهنّ في وجه كلّ المتوحّشين وكلّ الشيوعيّين الحمر الذين ما يزالون متوارين عن الأنظار في مكان ما.

مع مرور الوقت، بات الطبيب ساناوخا يكنّ المودّة لمارتين. وذات يوم قصّ على فيرمين، حين كانا يتقاسمان إحدى السجائر، كلَّ ما كان يعرفه عن حكاية ذلك الرجل الذي لقّبه أحدهم، ساخرًا بتخاريفه وبوصفه غريب الأطوار المعتَمَد رسميًّا في السجن، لقّبه بـ «سجين السماء».

٦

- إن كنتَ تريد أن أخبرك الحقيقة، فأنا أعتقد أنّ دافيد مارتين كان مهزوزًا ويعاني الأمرّين قبل أن يأتوا به إلى هنا بوقتٍ طويل. هل سمعتَ عن الشيزوفرينا يا فيرمين؟ إنّها إحدى الكلمات الجديدة المفضّلة لدى السيّد المدير.

- هي الكلمة التي يحبّ المواطنون استخدامها عندما يصفون أحدهم بأنّه مخبول.

- ليس في الأمر ما يشجّع على المزاح يا فيرمين. إنّه مرض خطير للغاية. ليس من اختصاصي، لكنّني رأيتُ بعض الحالات، وغالبًا ما يُخيَّل للمرضى أنّهم يسمعون أصواتًا، ويرون أشخاصًا، ويتذكّرون أحداثًا لم تقع مطلقًا... يتلف العقل شيئًا فشيئًا، ولا يستطيع المرضى أن يميّزوا بين الواقع والخيال.

- مثل سبعين بالمئة من الاسبان... وهل تعتقد أنّ مارتين البائس يعاني من هذا المرض أيّها الطبيب؟

- لا أعرف بالتأكيد. قلت لك إنّه ليس اختصاصي، لكنّني أعتقد أنّ بعض الأعراض الأكثر انتشارًا ماثلةٌ فيه.

- لعلّ المرض في مثل هذه الحالة نعمة.

- ليست نعمة على الإطلاق يا فيرمين.

- وهل هو يدري أنّه. . . فلنقل، مريض؟

- لطالما اعتبر المجانين أنّ الآخرين هم المجانين.

- هذا ما كنت أقصده بالسبعين بالمئة من الاسبان.

كان أحد الحرّاس يراقبهما من على برج المراقبة، كأنّه يسعى لقراءة حركة شفاههما.

- أخفض صوتك، وإلّا ذبحونا.

أشار الطبيب لفيرمين بأن يرجع إلى الوراء، وأخذا يتمشّيان نحو الطرف الآخر من الباحة.

- في هذه الأيّام، حتّى الحيطان باتت لها آذان. - قال ساناوخا.

- لا ينقصنا الآن إلّا أن يركّبوا لها نصف عقل في اثنين، ونكون قد نفذنا بجلدنا. - ردّ فيرمين.

- هل تعلم ما الذي قاله لي مارتين في أوّل مرّة عاينتُه بطلبٍ من مدير السجن؟ قال: «أيّها الطبيب، أعتقد أنّني اكتشفتُ الطريقة للخروج من هذا السجن». «كيف؟». «أمواتًا». «أليس هناك طريقة أخرى أكثر فاعليّة؟». «هل قرأت ''المونت دي مونتكريستو'' أيّها الطبيب؟». «في صباي. بالكاد أذكرها». «أعد قراءتها إذن. ففيها ستجد كلّ شيء». . . لم أشأ أن أقول له إنّ السيّد المدير أمر بسحب كلّ كتب ألكسندر دوما من مكتبة السجن، إضافةً إلى روايات ديكنز، وغالدوس وكثيرٍ من الأدباء الآخرين، لأنّه يعتقد بأنّها كتب سخيفة تفيد بتسلية الرعاع المفتقدين للذوق الرفيع، لذ أبدلها بمجموعةٍ من القصص والروايات التي لم تُنشَر، مكتوبة بقلمه وبأقلام بعض أصدقائه. أمر فالينتي بتجليدها، وهو السجين القادم من فنّ التخطيط، وبعد أن سلّم العمل، أماته من البرد في الباحة، حيث

تركه خمس ليالٍ متواصلة تحت أمطار يناير، لا لشيء سوى لأنّه زلّ لسانه ومازح مدير السجن على جودة نثره. نجح فالينتي بالخروج من هنا بناءً على خطّة مارتين: ميتًا. وبعد مضيّ بعض الوقت، استمعتُ إلى المحادثات بين موظّفي السجن، ففهمتُ أنّ دافيد مارتين وصل إلى هنا بناءً على طلبٍ من المدير نفسه. كان من قبل محبوسًا في سجن موديلو، بتهمة ارتكاب جرائم متسلسلة، لكنّني أعتقد أنّ أحدًا لم يصدِّق أيًّا منها. وعلاوة على ذلك، كانوا يقولون إنّه قتل مرشده وصديقه، السيّد الثريّ المدعو پيدرو ڤيذال - كاتبٌ هو الآخر - وقتل زوجته أيضًا، كريستينا، بدافع الغيرة. ناهيك بأنّه قتل بدمٍ باردٍ عديدًا من رجال الشرطة، إضافةً إلى آخرين. في الآونة الأخيرة، باتوا يتّهمون كثيرًا من الناس بأشياء كثيرة لدرجةٍ تنعدم فيها القدرة على التفكير. فأنا أكاد لا أصدِّق أنّ مارتين مجرم، ولكن من الصحيح أيضًا أنّني رأيتُ خلال أعوام الحرب كثيرًا من الناس من كلا الطرفين ينزعون أقنعتهم ويظهرون على حقيقتهم. فماذا تريد أن تعرف. . . الجميع يرمون الحجارة ويتّهمون جيرانهم.

- لو أروي لك. . . - أشار فيرمين.

- الواقع أنّ والد ڤيذال هذا رجلٌ من أصحاب المصانع المتحكّمين، تخرج النقودُ حتّى من أذنيه. يقولون إنّه كان صاحب المصرف الأساسيّ في تمويل حزب فرانكو. لماذا ينتصر دائمًا أصحاب المصارف بكلّ الحروب؟ على أيّ حال، طلب ڤيذال الأب المتنفّذ شخصيًّا من وزير العدل أن يعثروا على مارتين، وأن يزجّوا به في السجن حتّى يتعفّن، عقابًا على ما فعله بابنه وزوجة ابنه. وكان مارتين على ما يبدو قد فرّ إلى المهجر وظلّ هناك طوال ثلاثة أعوام إلى أن عثروا عليه قرب الحدود. أنا أرى أنّه ليس من الممكن أن

يكون سليمًا من الناحية العقليّة إذا كان قد اجتاز الحدود ثمّ عاد إلى إسبانيا حيث كانوا بانتظاره ليصلبوه. والأنكى من ذلك أنّه عاد في آخر أيّام الحرب، عندما كان آلاف البشر يعبرون الحدود إلى الجهة المعاكسة.

- في بعض الأحيان تتعب الروحُ من الهرب. - قال فيرمين - العالم صغيرٌ لدرجة أنّك لا تدري أين تفرّ بجلدك.

- أتصوّر أنّ مارتين فكّر على هذا النحو أيضًا. لا أعلم كيف استطاع أن يقطع الحدود، لكنّ بعضًا من سكّان بويغسيردا أخطروا الحرس المدنيّ بأنّهم رأوه مدّة أيّام يتسكّع في البلدة بثيابٍ بالية ويتحدّث إلى نفسه. وقال بعض الرعاة إنّهم رأوه على قارعة الطريق المتّجهة إلى بولفير، على بُعد كيلومترين عن البلدة. هناك حيث يوجد بيت ريفيّ منعزل يسمّى بـ«برج الريميه» الذي تحوّل إلى مستشفًى للجرحى على الجبهات. وكانت مجموعة من النساء تتولّى شؤون البيت، ومن المحتمل أنّهنّ أشفقن على مارتين وقدّمن له الطعام والمأوى، ظنًّا منهنّ أنّه رجل ميليشيا. لكنّه قد فرّ مجدّدًا عندما جاؤوا يبحثون عنه، ثمّ فاجأوه في الليلة نفسها عندما كان يمشي على البحيرة المتجمّدة ويحاول باستخدام الحصاة أن يفتح فجوةً في الجليد. اعتقدوا في البدء أنّه يحاول الانتحار، فحملوه إلى مستوصف فيلا سان أنطونيو. ويبدو أنّ أحد الأطباء العاملين هناك قد عرفه، لا تسألني كيف، وعندما وصل اسمه إلى مسامع الشرطة، نقلوه إلى برشلونة.

- في فم الذئب.

- تمامًا. من الواضح أنّ المحاكمة لم تستمرّ أكثر من يومين. إذ كانت لائحة التهم لا تنتهي، وبالكاد يوجد دليل أو برهان على

صحّتها. ولكن، لسببٍ غريب، استطاع وكيل النيابة بطريقة ما أن يجمع كثيرًا من الأفراد ليشهدوا ضدّه. ظهر في القاعة عشرات الأشخاص الحاقدين على مارتين بحَميّةٍ أذهلت القاضي نفسه، ومن المرجّح أنّهم قبضوا أجرها سلفًا من ڤيذال العجوز. زملاء له سابقون عندما كان يعمل في جريدة من الصنف الثاني، اسمها «صوت الصناعة»، أدباء المقاهي، مختلّون عقليًا وحسّادٌ من شتّى الأنواع، خرجوا من مجاري الصرف ليحلفوا باليمين أنّ مارتين متورِّطٌ في كلّ التهم التي وُجِّهتْ إليه إضافة إلى تهمٍ أخرى. وأنت تعلم كيف تجري هذه الأشياء. . . بأمرٍ من القاضي، بناءً على نصيحة من ڤيذال الأب، صودرت جميع أعماله وأُحرِقتْ باعتبارها تدعو إلى التمرُّد وتتعارض مع الأخلاق والعادات الحميدة. وعندما أعلن مارتين في المحكمة أنّ العادة الحميدة الوحيدة التي يدافع عنها هي عادة القراءة، وأنّ ما تبقّى يظلّ مسائل شخصيّة، حكم عليه القاضي بعشرة أعوام أخرى، إضافة إلى ما لستُ أدري من أعوام صدرت بحقّه. يبدو أنّ مارتين، خلال المحاكمة، بدل أن يصمت، راح يجيب بكلّ صراحة عن كلّ سؤالٍ يوجَّه إليه، ما أدّى به إلى حفر قبره بيديه.

- في هذه الحياة يُغفَر كلّ شيء، عدا النطق بالحقيقة.

- الواقع أنّهم حكموا عليه بالسَّجن المؤبَّد. نشرت «صوت الصناعة»، لمالكها ڤيذال العجوز، مقالًا مطوَّلًا يسرد كلّ جرائمه بالتفصيل، فضلًا عن الخبر الافتتاحيّ في الصفحة الأولى. خَمِّنْ بتوقيع مَن!

- بتوقيع القدير السيّد المدير، الدون ماوريسيو ڤايس.

- شخصيًا. كان يصفه بأنّه «أسوأ كاتب في التاريخ» ويقول بسعادة إنّ كتبه أحرِقتْ لأنّها «تحتقر الإنسان والذوق الرفيع».

- قالوا الشيء نفسه عن قصر الموسيقى. - حدَّد فيرمين - لدينا هنا زهرة أزهار الفكر العالميّ. وقد قالها الشاعر أونامونو سابقًا: نحن نجترّ أفكارنا، وبقيّة الأمم تخترع.

- بغضّ النظر عمّا إذا كان بريئًا أم لا، حضر مارتين التشهير به على الملأ كما شهد محرقة كلّ صفحةٍ كتبها، وانتهى إلى زنزانة في سجن موديلو حيث كان سيموت في غضون أسابيع حدًّا أقصى، لولا أنّ السيّد المدير الذي تابع القضيّة باهتمام شديد، والذي كان مهووسًا بمارتين لسبب غامض، تدخّل بقضيّته وطلب نقله إلى هنا. روى لي مارتين أنّه يومَ وصوله، جاء به ڤايس إلى مكتبه وألقى عليه إحدى خُطَبِه. - «مارتين، على الرغم من أنّك مجرمٌ متوحّش، ومتمرّدٌ مقتنع بالتأكيد، فإنّ هنالك شيئًا يجمعنا. كلانا أديبان، ومع أنّك كرّستَ مسيرتك الفاشلة لكتابة السخافات للحشود الجاهلة عديمة الرشد الفكريّ، أعتقد أنّه بإمكانك مساعدتي لعلّك تتطهّر هكذا من خطاياك. لديّ مجموعة من الروايات والقصائد التي عملتُ عليها في هذه السنوات الأخيرة. وهي أعمال على درجةٍ أدبيّة سامية، لكنّني مع الأسف أشكّ أنّ في بلد الأمّيّين هذا ثمّة ما يزيد على ثلاثمئة قارئ قادرين على إدراك معناها وتثمين قيمتها. لذا فكّرتُ أنّك ربّما، بكفاءاتك الفاجرة ودنوّك من الرعاع الذين يقرأون في الترامات، ستتمكّن من مساعدتي على إجراء بعض التعديلات بغية تقريب أعمالي إلى المستوى البائس للقرّاء في هذا البلد. إن وافقتَ على التعاون، أعدك بأنّني سأجعل إقامتك هنا مريحة كثيرًا. بل قد أعيد فتح قضيّتك من جديد. صديقتك الصغيرة... ما اسمها؟ آه، أجل، إيزابيلا. يا لها من جوهرة، إن سمحتَ لي بالتعليق. باختصار، لقد جاءت لمقابلتي وقالت لي إنّها توجّهت إلى محامٍ

شابّ، أحدهم يدعى بريانس، وأنّها جمّعت قدرًا من المال لتغطية أتعاب مرافعته عنك. فلنتكلّم بوضوح: كلانا يعرف أنّ التهم الموجّهة إليك ليست قويّة الحُجّة، وأنّهم أدانوك بفضل شهود زور. يبدو أنّك تتّسم بقدرة هائلة على صنع الأعداء يا مارتين، حتّى من أشخاصٍ لستَ واثقًا من وجودهم، أنا متأكد من ذلك. فإيّاك أن تقترف خطأ وتصنع منّي عدوًّا جديدًا لك يا مارتين. فأنا لست واحدًا من أولئك المغفّلين. أنا، هنا، بين هذه الحيطان، دعني أقولها بكلمات واضحة: أنا الربّ». - لا أعلم إن كان مارتين وافق على اقتراح مدير السجن أم لا، لكنّي أميل إلى الاعتقاد بأنّه وافق، لأنّه ما يزال حيًّا، ومن الواضح أنّ إلهنا الخاصّ ما يزال مهتمًّا بعدم تغيير حالة الأشياء هذه، حتّى اللحظة على الأقلّ. لقد زوّده حتّى بالأوراق وعدّة الكتابة في زنزانته، أتصوّر أنّه فعلها لإرغامه على كتابة «الأعمال العظمى»، ليسمح له بارتقاء أولمب الجوع والحظوظ الأدبيّة التي يتوق إليها. أنا مشوّشٌ إزاء الأمر، في الحقيقة. انطباعي هو أنّ مارتين العاثر ليس في وضعٍ يسمح له بكتابة حتّى قياس حذائه، وأنّه يقضي الجزء الأكبر من وقته عالقًا في ما يشبه المطهر الذي بناه في رأسه نفسها، حيث يأكله الندم والألم حيًّا. فعلى الرغم من أنّني متخصّصٌ بالطبّ الباطنيّ، ما يعني أنّني لستُ مؤهّلًا لتشخيصٍ كهذا...

٧

أثارت حكاية الطبيب الطيّب فضول فيرمين. وطالما أنّه كان مخلصًا لانجذابه الدائم نحو القضايا الخاسرة، قرّر أن يجري بعض التحقيقات من جهته الخاصّة، محاولًا الحصول على مزيد من المعلومات حول مارتين، مرورًا بالتحقّق من فكرة الهرب عبْر «درب الموت» بناءً على طريقة ألكسندر دوما. وكلّما حام حول المسألة، تبيَّن له أنّ سجين السماء، في ما يتعلّق بذلك التفصيل على الأقلّ، لم يكن مخبولًا جدًّا حسبما كانوا يصوِّرونه. وحالما تمكّن من إيجاد لحظة فراغ في الباحة، أخذ فيرمين يتقرَّب من مارتين ليتجاذب معه أطراف الحوار.

- فيرمين، بتُّ أظنّ أنّنا صرنا مرتبطَين تقريبًا. فأينما استدرتُ، وجدتُك قبالتي.

- اعذرني يا سيّد مارتين، ثمّة ما يثير فضولي.

- وما سبب كلّ هذا الفضول؟

- حسنٌ، دعني أتكلّم بوضوح، لا أفهم أنّ رجلًا طيّبًا مثل حضرتك يوافق على مساعدة ذلك الأبله المقرف والدعيّ الصغير مدير السجن، في مساعيه المشبوهة ليصبح أديبًا من النوع الذي يليق بالصالونات.

- تبًّا، حضرتك لا تناور بالكلام أبدًا. يبدو أنّ في هذا البيت لا وجود للأسرار.

- الواقع أنّ لديّ موهبة فريدة في اختراق المشاريع المخفيّة، وهواية التحرّي في المسائل الأخرى.

- ما يعني أنّك تعرف أنّني لست رجلًا طيّبًا، بل مجرم.

- هذا ما قاله القاضي.

- إضافةً إلى جيشٍ ونصف من الشهود الذين أقسموا.

- بل باعوا ضمائرهم لأحد الجائرين، وكان جميعُهم منتفخين بأنواع متعدّدة من الحسد والحقد.

- قل لي يا فيرمين، هل هناك ما لا تعرفه؟

- كثيرٌ من الأشياء. لكنّ الشيء الذي لا أستمرئه منذ عدّة أيّام هو ما تفعله حضرتك مع ذلك الغبيّ الذي يحسَب نفسه إلهًا. فالناس الذين على شاكلته هم كالسرطان في هذا البلد.

- الناس الذين على شاكلته موجودون في كلّ مكان يا فيرمين. لا أحد يمتلك الإثبات.

- لكنّنا هنا فقط نحملهم على محمل الجدّ.

- لا تستعجلْ في حكمك. السيّد المدير شخصيّةٌ أعقد ممّا يبدو عليه وسط هذه المهزلة. ذلك الغبيّ الذي يحسَب نفسه إلهًا، كما تسمّيه أنت، هو - قبل كلّ شيء - رجلٌ متسلِّطٌ للغاية.

- إله، على حدّ وصفه.

- وفي هذا المظهر الاستثنائيّ، لا يحيد عن الطريق أبدًا.

كشَّر فيرمين بأنفه. لم يكن يعجبه سماع هذا الكلام. كان مارتين يبدو أنّه يتذوّق نبيذ الهزيمة.

- هل هدّدك؟ هل الأمر كذلك؟ ما الذي بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك؟

- معي، لن يستطيع فعل شيء، سوى أنّه يضحكني. لكنّه قد يؤذي الآخرين، الذين خارج السجن.

التزم فيرمين الصمت طويلًا.

- المعذرة يا سيّد مارتين. لم أشأ أن أضايقك. لم أفكّر في هذا إطلاقًا.

- لا تضايقني يا فيرمين. بل على العكس. أعتقد أنّني لا أستحقّ كلّ هذا الكرم الذي تبديه في اهتمامك بي. إيمانك العميق يقول عنك أشياء أكثر ممّا يقولها عنّي.

- تخشى على تلك الآنسة، صحيح؟ إيزابيلا؟

- السيّدة.

- لم أكن أعرف أنّك متزوّج.

- لست متزوّجًا. إيزابيلا ليست زوجتي. ولا حتّى عشيقتي، إن كان هذا ما يخطر في بالك.

سكت فيرمين. لم يشأ أن يشكّ في كلمات مارتين، لكنّ الإصغاء إليه كيف يتحدّث عنها كان كافيًا لانعدام أيّ شكّ في أنّ تلك السيّدة أو الآنسة هي أحبّ الناس إلى قلب مارتين المسكين في العالم بأسره، ومن الوارد أن تكون الشيء الوحيد الذي يبقيه حيًّا في لجّة الشقاء تلك. وإنّ أشدّ ما يولّد الحزن أنّ مارتين قد لا يكون مدركًا لهذا على الإطلاق.

- إيزابيلا وزوجها يديران مكتبة، المكان الذي لطالما كان له معنًى خاصّ في قلبي منذ أن كنت صغيرًا. والسيّد المدير قال لي إنّه، إن لم أنفّذ ما يمليه عليّ، قد يتّهمهما ببيع كتبٍ تحرّض على التمرّد،

بحيث يصادر ملكيّة المحلّ منهما ومن ثَمّ يسجنهما، لينتزع حضانة الطفل الذي لم يبلغ حتّى عامه الخامس بعد.

- ابن العاهرة الكبيرة. - غمغم فيرمين.

- لا يا فيرمين. - قال مارتين - هذه ليست معركتك. إنّها معركتي. هذا عِقابٌ على ما فعلتُ.

- حضرتك لم تفعل شيئًا.

- أنت لا تعرفني يا فيرمين. وهذا ما ينقصنا حقًّا! ما يجب عليك فعله هو أن تركّز على كيفيّة الفرار من هنا.

- هذا هو الأمر الآخر الذي كنت أودّ أن أسألك عنه. تبيَّن لي أنّ لديك منهجًا تجريبيًّا قيد التطوير للخروج من هذه المبولة. إن كنتَ بحاجةٍ إلى جرذ، نحيف الجسم لكنّه مفعم بالحماس، فاعتبرني تحت أمرك.

نظر مارتين إليه متمعِّنًا.

- هل قرأتَ ألكسندر دوما؟

- من ألفه إلى يائه.

- هذا واضح عليك. إن كان كذلك، فلعلّك فهمتَ مغزى فكرتي. أصغِ إليّ جيّدًا.

٨

عندما مضت ستّة شهور على دخول فيرمين إلى السجن، جرت عدّة أحداث كان من شأنها أن تغيّر حياته حتّى تلك اللحظة جذريًّا. تزامن أوّل تلك الأحداث مع توهُّم النظام بأنّ هتلر وموسوليني وشركاءهما كانوا سينتصرون الحرب، وأنّ أوروبا ستصبح كلّها من ذات لون سراويل الجنرال فرانكو؛ حَدَثَ أنّ موجةً ملؤها السخط والتملُّص من العقاب، مكوَّنةً من سفّاحين وجواسيس وعملاء سياسيّين حديثي عهد، تمكّنتْ من رفع أعداد المدنيّين المساجين والموقوفين والمحكومين إلى أقصى المستويات التاريخيّة.

لم تعد سجون البلد كافيةً، فأمرت السلطاتُ العسكريّةُ إدارةَ المباني العقابيّة بمضاعفة أعداد المحتجزين ثلاث مرّات، بغية امتصاص جزء كبير من تدفُّق المساجين الذي كاد يُغرِق برشلونة المهزومة والمنكوبة في العام ١٩٤٠. وتنفيذًا لتلك الخطّة، قام السيّد المدير، في إحدى خُطَبه الأحديّة المستنيرة، قام بإعلام المعتقلين أنّهم واعتبارًا من تلك اللحظة كانوا سيتقاسمون الزنازين. نُقِل الطبيب ساناوخا إلى زنزانة مارتين، ولا شكّ في أنّ الغاية من ذلك مراقبتُه والحيلولة دون نجاح تجاربه الانتحاريّة. وقُدِّر لفيرمين أن

يتقاسم الزنزانة ١٣ مع جاره السابق، الرقم ١٤، وهلمّ جرًّا. اندمج كلُّ سجناء الجناح كي يفسحوا المجال للواصلين الجدد، المنقولين في كلّ ليلة بالعربات من سجن موديلو أو من الكامبو دي لا بوتا.

- لا تستقبلني بهذا الوجه، فإنّ وجودي هنا يزعجني أكثر ممّا يزعجك. - قال الرقم ١٤ عندما انتقل إلى زنزانة رفيقه الجديد.

- أحذّرك من أنّ العدائيّة تسبّب لي إفراطًا في إطلاق الريح. - هدّده فيرمين - لذا كفّ عن هذه العجرفة التي تذكّرني بأسلوب بوفالو بيل، وحاولْ ما استطعتَ أن تكون لطيفًا وأن تتبوّل إلى الحائط باتّجاهٍ واحد، وإلّا استيقظتَ مشبعًا بالكدمات يومًا ما.

أمضى الرقم ١٤ خمسة أيّام دون أن يتوجّه إلى فيرمين بكلمة واحدة. وفي النهاية، وبعد أن سحقتْه الغازات الكبريتيّة التي كان رفيقه يهديها له أثناء الليل، قرّر أن يغيّر استراتيجيّته.

- سبق أن حذّرتك.

- موافق. أعلن استسلامي. اسمي سيباستيان سالغادو. المهنة: نقابيّ. مدّ لي يدك كي نصبح صديقَين، ولكن حبًّا بالله، أرجوك أن تتوقّف عن الضراط لأنّني بتّ عرضةً للهلاس، وأرى في منامي «ولد السكّر»[١]، الثائر العظيم مؤسّس النقابيّة اللاسلطويّة، أراه يرقص رقصة الشارلستون.

صافح فيرمين يد سالغادو ولاحظ أنّه مبتورُ الخنصر والبنصر.

- فيرمين روميرو دي توريس، تسرّني معرفتك وأخيرًا. المهنة: توفير خدمات مخابراتيّة في قطاع الكاريبي التابع للحكومة الكتالونيّة

---

(١) سالفادور سيغوي روبينات (١٨٨٦ - ١٩٢٣)، أحد روّاد الحركة الأناركيّة والتحرّرية في إسبانيا. عُرِف بذلك اللقب لهيامه بابتلاع ظروف السكّر التي تُقدَّم مع فناجين القهوة. المترجم.

العامّة، مُجرَّدٌ من السلاح حاليًّا، لكنّني بطبعي محبٌّ للكتب ومولع بالآداب الرفيعة.

حدّق سالغادو إلى رفيقه في الأسى مرّة أخرى، جاحظ العينين.

- ثمّ يقولون إنّ مارتين هو المجنون.

- المجنون هو من يخال نفسه حكيمًا ويعتقد أنّ الأغبياء ليسوا من فصيلته.

أومأ سالغادو مُسَلِّمًا أمره.

أمّا الحدث الثاني، فقد تحقّق بعد بضعة أيّام، عندما جاء اثنان من الحرّاس ليأخذوه عند المغيب. فتح بيبو الزنزانة، محاولًا كتمان قلقه.

- أنت، انهضْ. - قال أحد الحارسين.

ظنّ سالغادو للوهلة الأولى أنّ دعاءه قد استجيب له وأنّهما جاءا ليقتادا فيرمين إلى الإعدام بالرصاص.

- تشجَّع يا فيرمين. - ابتسم سالغادو - فما من أجمل من الموت في سبيل الربّ وفي سبيل إسبانيا.

أمسك الحارسان بفيرمين، وكبّلا يديه وقدميه وسحلاه تحت الأنظار القلقة لسائر المساجين في الجناح، وضحكات سالغادو.

- لن تفلت هذه المرّة، ولا بقوّة الضراط. - قال رفيق الزنزانة ضاحكًا.

٩

اقتاداه عبْر متاهةٍ من الأروقة حتّى وصلا به إلى ممرٍّ، تتراءى في عمقه بوّابةٌ خشبيّة كبيرة. بات فيرمين فريسةً للغثيان، وقال لنفسه إنّ رحلة حياته البائسة ستنتهي هناك، وإنّ فوميرو ينتظره خلف الباب باللهب المؤكسد، ليتسلّى به طوال تلك الليلة. لكنّه فوجئ بأحد الحارسين يفكّ القيود عن يديه عندما وصل إلى البوّابة، بينما كان الحارس الآخر يدقّ بخفّة.

- ادخلوا! - أجاب صوتٌ مألوف.

وكان هكذا إذ وجد فيرمين نفسه في مكتب السيّد المدير، قاعةٌ مزدانةٌ بزينةٍ فاخرة، وبُسُطٍ مصادرةٍ من أحد منازل البونانوفا الراقية، وأثاثٍ من مستوًى رفيع. ولوضع اللمسة الأخيرة على ذلك المشهد المعظَّم، هنالك علم إسبانيا، يتوسّطه الصقر والدرع والعنوان، وصورة للجنرال منقَّحةٌ أكثر من الصور الدعائيّة لمارلين دييتريش، والسيّد المدير شخصيًّا، الدون ماوريسيو ڤايس، يبتسم من خلف مكتبه وهو يدخّن من السجائر المستوردة ويرتشف من كأس البراندي.

- اجلس. لا تخف. - دعاه.

لاحظ فيرمين، على جانبه من سطح المكتب، وجود طبقٍ من اللحم والبازلاء وصلصة البطاطس، يتضوّع برائحة الزبدة الساخنة.

- ليست خدعةً بصريّة. - قال المدير بنبرة عذبة - إنّه عشاؤك. آمل أن ينال إعجابك.

لم يكن فيرمين قد رأى أعجوبةً كتلك منذ يوليو عام ١٩٣٦، فاندفع يلتهم الطعام قبل أن يتبخّر. وكان السيّد المدير ينظر إلى طريقته بالأكل، بتعبيرٍ عن القرف والاحتقار يتوارى خلف تلك الابتسامة المصطنعة، ويدخّن سيجارة تلو الأخرى، وما انفكّ يتحقّق من لمعان الدهن على شعره. وعندما انتهى فيرمين من العشاء، أشار المدير للحارسين بالانصراف. وإذ باتا بمفردهما، بدا له مدير السجن أكثر شؤمًا ممّا إذا كان مطوّقًا بكتيبة مسلّحة.

- فيرمين، أليس كذلك؟ - ارتجل قائلًا.

أومأ السجين ببطء.

- لعلّك تتساءل عمّا جاء بك إلى هنا.

تشنّج فيرمين على كرسيّه.

- لا شيء يستدعي القلق. بل على العكس. لقد أرسلتُ في طلبك لأنّني أودّ تحسين أوضاعك في الحياة، ومن يدري، ربّما أتمكّن من إعادة النظر في حكمك، فكلانا يعلم أنّ التهم لم يكن لها أساس. اللائمة تلقى على هذا الزمان، الذي تحرّكت فيه المياه، فدفع الأبرياء الثمن بدلًا عن المذنبين. فالأمّة عليها أن تدفع ثمنًا باهظًا لتولد من جديد. بصرف النظر عن هذه الاعتبارات، أريدك أن تفهم أنّني منحاز إلى جانبك. فأنا أيضًا أرى نفسي سجينًا في هذا المكان بشكلٍ ما. أعتقد أنّ كلًّا منّا يودّ الخروج من هنا في أقرب فرصة ممكنة، ففكّرتُ أنّه في وسعنا أن نتعاون. سيجارة؟

- سأحتفظ بها لوقتٍ لاحق، إن كان ذلك لا يزعجكم.

- بالتأكيد. هاك، خذ العلبة بأكملها.

غلّ فيرمين العلبة في جيبه. انحنى السيّد المدير على المكتب متبسّمًا. في حديقة الحيوانات، كان هناك أفعًى نسخة عنه طبق الأصل، فكّر فيرمين، لكنّ تلك الأفعى لا تأكل إلّا الفئران.

- كيف الحال مع رفيقك الجديد في الزنزانة؟

- سالغادو؟ رجلٌ طيّب.

- لا أعرف إن كنتَ تعلم أنّ ذلك الشقيّ، قبل أن ينتهي في الحبس، كان راميًا بارعًا وقاتلًا محترفًا لمصلحة الشيوعيّين.

هزّ فيرمين رأسه نافيًا.

- قال لي إنّه كان نقابيًّا.

ضحك ڤايس بخفّة.

- في مايو عام ١٩٣٨، اقتحم بمفرده منزل عائلة بيلاخوانا، في حيّ البونانوفا، وقتل جميع أفراد الأسرة، بمن فيهم الأطفال الخمسة، والخدم الأربعة والجدّة ذات الستّة والثمانين عامًا. هل تعرف من هم آل بيلاخوانا؟

- ليس بالضبط...

- باعة مجوهرات. في لحظة وقوع الجريمة، كان في المنزل خمسة وعشرون ألف بيسيتا، بين نفائس وأوراق نقديّة. هل تعلم أين مكان تلك الأموال الآن؟

- لا أعلم.

- لا أحد يعلم. الوحيد الذي يعلم هو الرفيق سالغادو، الذي قرّر أن لا يسلِّم النقود للطبقة البروليتاريّة، فأخفاها ليعيش حياته طولًا وعرضًا بعد الحرب. الشيء الذي لن يستطيع فعله أبدًا، لأنّنا سنبقيه هنا حتّى يغنّي أو حتّى يأتي صديقك فوميرو ويمزّقه إربًا.

أومأ فيرمين، وهو يصل الخيوط بعضها ببعض.

- لقد لاحظتُ أنّ لديه إصبعين مبتورين في يده اليسرى، وأنّه غريب الأطوار نوعًا ما.

- قل له ذات يوم أن ينزع بنطاله، ترَ أنّ لديه كثيرًا من الأشياء الناقصة التي أضاعها على طوال الطريق بسبب عناده على عدم الاعتراف.

مضغ فيرمين ريقه.

- أريدك أن تعرف أنّني أشمئزّ من هذا التعامل الوحشيّ. وهذا أحد السببين اللذين أمرتُ من أجلهما أن يضعوا سالغادو في زنزانتك. لأنّي أعتقد أنّ الناس يتفاهمون إذا ما تحادثوا. لذا أريدك أن تكتشف أين أخفى غنائم آل بيلاخوانا والغنائم الأخرى التي جمعها من كلّ السرقات والجرائم التي ارتكبها في الأعوام الأخيرة، ثمّ تخبرني بذلك.

- والسبب الآخر؟

- السبب الثاني هو أنّني لاحظتُ مؤخّرًا أنّك أصبحتَ صديقًا لدافيد مارتين. الأمر الذي يعجبني كثيرًا. فالصداقة من إحدى القيم التي ترفع من شأن الإنسان نبلًا، وتساعد على إعادة تأهيل المساجين. لا أعرف إن كنتَ تعلم أنّ مارتين كاتب.

- سمعتُ شيئًا من هذا...

رماه السيّد المدير بنظرة جامدة، لكنّه حافظ على ابتسامته المتسامحة.

- الواقع أنّه ليس شخصًا سيّئًا، لكنّه يخطئ إزاء العديد من الأشياء. إحداها مثلًا سذاجة ما يفكّر فيه من التزامه بحماية أشخاص وأسرار لا يمكن الاعتراف بها.

- ذلك لأنّه غريب الأطوار كثيرًا، وتخطر في باله أفكار كثيرة كهذه.

- طبعًا. لذا فكّرتُ أنّه لا ضير أن تبقى إلى جانبه، وأن تفتح عينيك وأذنيك جيّدًا، وأن تقصّ عليّ ما يقوله، وما يفكّر فيه، وما يسمعه... لا شكّ أنّ هنالك ما قاله لك واستدعى انتباهك.

- حسنٌ، الآن وقد فتحتَ الموضوع سيادتك، أعلم أنّه يشتكي مؤخّرًا من دمَّلٍ نتأ عند مغبنه يسبّب له حكّة شديدة من تحت السراويل.

تنهّد السيّد المدير وهزّ رأسه، وكان من الواضح أنّه سئم من اضطراره للتحدّث بأسلوب ليّن مع شخص كريه.

- اسمع أيّها المهرّج، يمكننا المضيّ قدمًا بالحسنى أو نتّبع الطرق الصارمة. إنّني أحاول أن أكون متعقّلًا، في حين يكفيني أن أرفع سمّاعة هذا الهاتف ليصل صديقك فوميرو إلى هنا في غضون نصف ساعة. قالوا لي إنّه إضافةً إلى اللهيب المؤكسد، جاء مؤخَّرًا بعدّة نجارة ووضعها في إحدى الزنازين تحت الأرض، وصار يصنع بها الأعاجيب. هل فهمت؟

شبك فيرمين يدًا بيد لإخفاء الرعشة التي راودته.

- فهمتُ بالتمام. المعذرة، يا سيّدي المدير، فإنّني لا أتناول اللحوم منذ زمن طويل، ولعلّ البروتين صعد إلى رأسي مباشرةً. لن أكرّرها ثانيةً.

عاود المدير ابتسامته وتابع كأنّ شيئًا لم يكن.

- يهمّني ان أعرف على وجه الخصوص إن كان مارتين قد تكلّم ذات مرّة عن مقبرةٍ للكتب المنسيّة أو الميّتة أو شيء من هذا القبيل.

فكِّرْ جيّدًا في الأمر قبل أن تجيب. هل حدَّثك مارتين عن ذلك المكان ذات مرّة؟

نفى فيرمين.

- أقسم لسيادتك أنّني لم أسمع قطّ عن هذا المكان، لا من السيّد مارتين ولا من غيره...

غمز السيّد المدير بعينه.

- أصدِّقك. ولهذا كلّي ثقة بأنّك ستخبرني إن هو حدّثك عنه. وإن لم يحدّثك عنه، افتح الموضوع بطريقة ما واكتشفْ أين يوجد ذلك المكان.

أومأ فيرمين برأسه مرارًا.

- وشيءٌ آخر. إذا أشار لك مارتين عن مهمّةٍ أوكلتُها إليه، فأقنِعْه بأنّه من المستحسن أن يكرّس نفسه للمهمّة حتّى النهاية وأن يكتب رائعته الأدبيّة، فذلك خيرٌ له وخيرٌ لاسيّما لسيّدةٍ يقدِّرها كثيرًا، وخيرٌ لزوجها وطفلها.

- هل تقصد السيّدة إيزابيلا حضرتك؟

- آه، أرى أنّه حدّثك عنها... لو أنّك رأيتَها يا فيرمين. - قال وهو يمسح النظّارة بالمنديل - شابّةٌ يانعة، لحمها متماسك كأجساد الطالبات... ليس لديك فكرة كم مرّة جلستْ هنا، حيث أنت، تتوسّل إليّ من أجل ذلك البائس التعيس مارتين. لن أخبرك ما الذي عرضتْه عليّ لأنّني رجلٌ نبيل، ولكن، يبقى الكلام بيننا: الإخلاص الذي تكنّه تلك الفتاة لمارتين ليس له نظير. لو كان عليّ أن أراهن، لقلت إنّ ذلك الطفل، دانيال، ليس من صلب زوجها، بل هو ابن مارتين، الذي لديه ذوق متدنٍّ بما يخصّ الأدب، إلّا أنّه يتمتّع بذوق رفيع جدًّا بما يخصّ النساء الحسناوات.

توقّف المدير عن الكلام إذ لاحظ أنّ السجين يحدِّق إليه بنظرة ثاقبة، لم تعجبه البتّة.

- لماذا تنظر هكذا؟ - فحّ في وجهه.

وضرب على الطاولة ببراجم يده، فانفتح الباب مباشرةً خلف ظهر فيرمين. أمسك به الحارسان من ذراعيه ورفعاه عن الكرسيّ حتّى لم تعد قدماه تلامسان الأرض.

- تذكّرْ ما قلته لك. - ردّد السيّد المدير - بعد أربعة أسابيع، أريد أن أراك جالسًا هنا مرّة أخرى. إن أتيتني ببعض النتائج، أؤكّد لك أنّ إقامتك هنا ستتحسّن. وإلّا، سأحجز لك الزنزانة التي تحت الأرض، بما فيها من فوميرو وألعابه. واضح؟

- أوضح من الماء.

ثمّ أمر رجاله - بتلويحة مشمئزة - بإرجاع السجين إلى مكانه، وأنهى كأس البراندي، وقد تكدّر مزاجه لأنّه كان مضطرًّا للتعامل مع هؤلاء الرعاع غير المثقّفين المهانين يومًا بعد يوم.

١٠

برشلونة، ١٩٥٧

- لقد اصفرّ وجهك يا دانيال. - غمغم فيرمين، فأيقظني من توحُّدي.

تلاشت الطرقات التي سرنا بها حتّى وصلنا إلى خان يويس، تلاشت صالة المطعم. لم أكن أرى إلّا ذلك المكتب في قلعة مونتويك، ووجه ذلك الرجل الذي كان يتكلّم عن والدتي بكلماتٍ حارقة وتلميحات مهينة. أحسستُ بما يشبه البرد الفتّاك يكتسح سريرتي، يرافقه سخطٌ لم أجرِّب مثله من قبل. وما رغبتُ في تلك اللحظة العابرة شيئًا أكثر من أن يؤتى بذلك الحقير إليّ لأقصّ عنقه وأنظر إليه عن كثب حتّى تنفجر العروق في عينيه.

- دانيال...

أغمضتُ عينيّ برهةً وسحبتُ نفسًا عميقًا. وعندما فتحتُهما، كنتُ قد عدت إلى صالة مطعم خان يويس لأجد فيرمين روميرو دي توريس قبالتي وقد استبدّ به القهر.

- اعذرني يا دانيال. - قال.

جفّ فمي. فسكبتُ كأسًا من الماء وشربتُها، ريثما تصل الكلمات إلى شفتيّ.

- ليس هناك ما يوجبك على الاعتذار يا فيرمين. لا ذنب لك بكلّ ما رويتَه.

- بدايةً، الذنب كلّه ذنبي لسببٍ واحد، وهو أنّني رويتُ لك ما رويت. - قال بصوت منخفض حتّى إنّني سمعتُه أو أكاد.

رأيته يُخفِض عينيه، كأنّه لا يجرؤ على النظر إليّ. فأدركتُ أنّ الألم كان يعتصره، لأنّه تذكّر تلك الوقائع واضطرّ إلى مكاشفتي بالحقيقة، وكان الألم عظيمًا لدرجةٍ خجلتُ فيها من الغيظ الذي استولى عليّ.

- انظر إليّ يا فيرمين.

استطاع أن ينظر إليّ بطرف العين، فابتسمتُ في وجهه.

- أريدك أن تعرف أنّني ممتنٌّ لك لأنّك صارحتني بالحقيقة، وإنّني أستوعب السبب الذي دعاك إلى حجبها عنّي طوال هذه السنوات.

هزّ فيرمين رأسه واهنًا، لكنّ شيئًا ما في نظراته ألمح إليّ بأنّ كلماتي لم تؤمّن أدنى قدْرٍ من المؤاساة. بل على العكس. بقينا صامتين بضع لحظات.

- هناك تتمّة، أليس كذلك؟ - سألته في النهاية.

فأومأ بنعم.

- والتتمّة أسوأ؟

أومأ مرّةً أخرى.

- أسوأ بكثير.

حدتُ بأنظاري وابتسمتُ في وجه البروفسور ألبوركركي الذي كان يلقي علينا التحيّة ويحضّر نفسه للانصراف.

- فلماذا لا نطلب مزيدًا من الماء وتقصّ عليّ ما تبقّى؟

- من الأفضل أن نطلب نبيذًا. - قدَّر فيرمين - نبيذًا يهيِّئ النفس للمعركة.

١١

برشلونة، ١٩٤٠

بعد أسبوع من اللقاء بين فيرمين والسيّد المدير، دخل رجلان لم يرهما أحدٌ من قبل في السجن، وكانت رائحتهما تدلّ من على بُعد ألف ميل أنّهما من جهاز المخابرات، كبّلا سالغادو واقتاداه بعيدًا دون أن ينبسا ببنت شفة.

- هل تعلم إلى أين أخذاه يا بيبو؟ - سأل الرقمُ ١٢.

نفى السجّانُ، لكنّ عينيه كانتا تفضحان ما تناهى إلى مسامعه، وفضَّل عدم مواجهة الموضوع. ونظرًا إلى انعدام الأخبار الأخرى، تحوَّل غيابُ سالغادو إلى نقطة جدل واسعة وموضع تكهّنات لدى المساجين، وراحوا يشكّلون فرضيّاتٍ من شتّى الأنواع.

- كان جاسوسًا لدى الوطنيّين الذين دسّوه هنا كي يسترق منّا المعلومات، بحجّة أنّه محبوس بسبب انتمائه النقابيّ.

- أجل، وفي سبيل ذلك بتروا له إصبعين، وأشياء أخرى ربّما، كي يوهمونا بأنّ ادّعاءاته مقنعة.

- والآن لعلّه يتمتّع بأوقاته في أمايا، ويملأ بطنه بوجبة القدّ الباسكيّ مع أصدقائه يسخرون بنا.

- أنا أعتقد أنّه اعترف بما كان عليه الاعتراف به، فساقوه إلى البحر ورموه تحت عشرة كيلومترات من عرض البحر بعد أن ربطوا عنقه بصخرة كبيرة.

- كان وجهه يفضح عمالته للحزب الحاكم. لحسن الحظّ أنّني لم أنطق بأيّ حرف في حضوره، سترون ماذا سيفعلون بكم.

- كلامك صحيح، جلُّ ما نخشاه الآن أن يزجّوا بنا في السجن.

كانت المجادلات تطول، في انعدام التسالي الأخرى، إلى أن دخل الرجلان نفساهما اللذان اقتاداه، وأعاداه إلى الزنزانة بعد مرور يومين. الأمر الأوّل الذي لاحظه الجميع أنّ سالغادو لم يكن قادرًا على الوقوف على قدميه، إنّما كانا يسحلانه مثل صرّةٍ كبيرة. والأمر الثاني، أنّه كان ممتقع الوجه مثل جثّة، ويتصبّب عرقًا. كان السجين قد عاد شبه عارٍ، ولا تغطّيه إلا قشرةٌ بنيّة اللون، لكأنّها خليطٌ من دمائه المتخثّرة وبرازه الشخصيّ. تركاه يهوي على الأرض كما لو أنّه كيس من الزبل، وانصرفا دون أن يقولا أيّ شيء.

أخذه فيرمين بين ذراعيه وساعده على التمدُّد على السرير. وجعل ينظّفه ببطء بخِرَق القماش، التي حصل عليها بتمزيق قميصه، مع القليل من الماء الذي جلبه بيبو تهريبًا. كان سالغادو واعيًا لما يجري من حوله، ويتنفّس بصعوبة، لكنّ عينيه كانتا تلمعان كما لو أنّ أحدًا أشعلهما بالنار من الداخل. ولئن كان قبل يومين لديه يدٌ يسرى، حلّ مكانها آنذاك أشلاء من لحم ضاربٍ إلى البنفسجيّ محروقٍ بالقطران. وبينما كان فيرمين ينظّف وجهه، ابتسم سالغادو له بما تبقّى لديه من أسنان.

- لماذا لا تخبر أولئك الجزّارين بما يريدون معرفته يا سالغادو؟ إنّها مجرَّد نقود. لا أعلم كم خبَّأتَ منها، لكنّها لا تستحقّ كلّ هذا العناء.

- فليغرقوا في الخراء. - غمغم بأنفاسه المقطوعة - تلك النقود لي وحدي.

- بل لعلّها مِلك جميع أولئك الذين سرقتَهم وقتلتَهم، اعذرني على التصويب.

- أنا لم أسرق أحدًا. إنّما كانوا هم الذين سرقوا تلك الأموال من الشعب. ولئن قتلتُهم فذلك لكي أطبِّق العدالة التي يطالب بها الشعب.

- حقًّا. لحسن الحظّ أنّك أتيت، يا روبن هود منطقة الماتادييرا وما حولها، كي تقوِّم الاعوجاج. وانظر كيف أمسيتَ، يا صاحب العدالة المقدام...

- تلك الأموال هي مستقبلي. - باح سالغادو.

مرّر فيرمين الخرقة الرطبة على ذلك الجبين المتجمّد والمليء بالخدوش.

- المستقبل لا يأتي بالتمنّيات؛ إنّما بالاستحقاقات. وأنت يا سالغادو، ليس لك مستقبل. لا أنت ولا هذا البلد الذي ينجب وحوشًا مثلك ومثل السيّد المدير. انظر إلى الجهة الأخرى أيضًا. نحن هنا جميعًا نلعب بمستقبلنا، والشيء الوحيد الذي ينتظرنا هو الخراء، كهذا الخراء الذي يكسو جسدك والذي أتعبني بتنظيفه.

أصدر سالغادو أنّةً من بلعومه، حسِبها فيرمين ضحكة.

- وفِّر خطاباتك يا فيرمين. لا تريد أن تسلك سلوك البطل الآن.

- كلا، فالعالم يعجّ بالأبطال أساسًا. أنا جبان. لا أكثر ولا أقلّ. - قال فيرمين - لكنّني أعرف ذلك على الأقلّ وأقرّ به.

تابع فيرمين تنظيف سالغادو بصمت على قدْر ما استطاع، ثمّ غطّاه بذلك الغطاء البدائيّ الذي يتقاسمه مع البقّ والذي تفوح منه رائحة البول. وارتكن إلى جانبه حتّى أغمض سالغادو عينيه وغطّ في نوم عميقٍ كان فيرمين يشكّ في أن يصحو منه.

- قل لي إنّه قد مات. - قال صوت الرقم ١٢.

- فلندخل في مراهنة - أضاف الرقم ١٧ - على سيجارة انفجاريّة.

- اخلدوا للنوم جميعًا أو أجِّروا مؤخِّراتكم. - ردّ فيرمين.

تمدّد في الجانب الأقصى من الزنزانة وحاول أن يغفو، وسرعان ما اتّضح له أنّه سيمضي تلك الليلة في سهاد. وبعد قليل، وضع وجهه بين القضبان ومدّ عنقه من المقبض المعدنيّ المعلّق عليها. وكانت هناك عينان تحدِّقان إليه تحت الظلام، تضيئهما جمرة سيجارة مشتعلة، من الجانب الآخر للممرّ، في الزنزانة المقابلة.

- لم تقل لي سبب استدعائك من قِبل ڤايس قبل أيّام. - قال مارتين.

- لك أن تتخيَّل.

- طلبٌ خارجٌ عن المألوف؟

- يريد منّي أن آتيه بمعلومات عن مقبرةٍ للكتب أو شيء كهذا.

- مثيرٌ للاهتمام. - علّق مارتين.

- مبهر.

- هل شرح لك سبب اهتمامه بهذا الموضوع؟

- لا أخفيك يا سيّد مارتين أنّ علاقتي به ليست حميمة إلى ذلك الحدّ. فالسيّد المدير اقتصر على تهديدي بالتمزيق إربًا إن أنا لم أزوِّده بالنتائج في غضون أربعة أسابيع، وأنا أكتفي بالقبول.

- كن مطمئنًّا يا فيرمين. بعد أربعة أسابيع ستكون خارج هذا السجن.

- أجل، حبّذا لو خرجتُ منه إلى الشواطئ الكاريبيّة، متوسّطًا جمعًا من البنات الحسناوات المتغذّيات، يُدَلِّكن قدميّ.

- ثق بذلك.

هربت تنهيدة تعاسة من فم فيرمين. كانت أوراق مصيره تُوَزَّع على طاولة القمار بين مجانين ومجرمين ومحتضرين.

١٢

يومَ الأحد، عند نهاية خطبته في الباحة، رمى السيّدُ المدير نظرةً متحرّيةً على فيرمين، وأكملها بابتسامةٍ جعلتْه يتذوَّق صفراء كبده بشفتيه. وما إن سمح الحرّاس للمساجين بفضّ الانضباط، دنا فيرمين بحذرٍ من مارتين.

- يا له من خطاب عظيم. - علّق الكاتب.
- تاريخيّ. كلّما تكلّم ذلك الرجل، اندلعتْ ثورةٌ كوبرنيكيّة في الفكر الغربيّ.
- السخرية لا تليق بك يا فيرمين. إنّها تعارض رقّتك الطبيعيّة.
- فلتذهب إلى الجحيم.
- هذا ما أقوم به حقيقةً. سيجارة؟
- لا أدخّن.
- يقال إنّ السجائر تساعد على الموت بسرعة أكبر.
- في هذه الحالة، لم لا؟

لم يتمكّن فيرمين من المتابعة بعد المجّة الأولى. نزع مارتين السيجارة من بين أصابعه، وربَّت على كتفه، بينما كان فيرمين يسعل ويبصق حتّى ذكرياته في المناولة الأولى.

- لا أفهم كيف تدخِّنون... طعمُها يوحي بطعم كلبٍ محروق.

- والأجمل أنّها متوافرة هنا. يقال إنّهم يصنعونها من بقايا الأعقاب المرميّة في ممرّات آرينا مونومنتال.

- أمّا أنا فأرى أنّهم يجمعونها من المبولات، ففكِّرْ فيها...

- خذ نفسًا عميقًا يا فيرمين. هل تشعر بالتحسُّن؟

أومأ فيرمين.

- إذن، هلّا رويتَ لي شيئًا ممّا تعرفه عن تلك المقبرة كي يكون في حوزتي بعض الفضلات ألقيها للمدير الخنزير؟ لا داعي أن تخبرني بالحقيقة. أيّ شيء متضارب يخطر في بالك، قد يفيدني جدًّا.

ابتسم مارتين، وهو ينفخ من بين أسنانه ذلك الدخان النتن.

- كيف حال رفيقك في الزنزانة، سالغادو، المدافع عن الفقراء؟

- حسنٌ، كنت أظنّ أنّي بلغتُ من العمر ما بلغتُ ورأيتُ كلّ شيء في هذا العالم السخيف. منذ أن بدا أنّ سالغادو كان يُسلِم الروح، في الليلة الماضية، بتّ أشعر به ينهض ويقترب من سريري كما لو أنّه مصّاص دماء.

- فيه شيءٌ من مصّاصي الدماء حقًّا. - أكّد مارتين.

- بأيّ حال، يقترب منّي ويتوقّف كي يحدِّق إليّ. فأتظاهر بالنوم، وأراه يفرّ نحو إحدى زوايا الزنزانة، كي ينبِّش باليد الوحيدة، التي تبقّت له، داخل ما يسمّى بالمصطلحات الطبّيّة بالحلقة الأخيرة من الأمعاء الغليظة. - تابع فيرمين.

- ماذا قلت؟

- ما سمعتَه. سالغادو الطيّب، وقد أخذ نقاهةً من آخر مواسم

البتر في العصور الوسطى، قرّر أن يحتفل للمرّة الأولى بقدرته على النهوض لاكتشاف ذلك الركن الصبور من التشريح البشريّ الذي حرمتْه الطبيعةُ نورَ الشمس. وأنا أكاد لا أصدِّق، ولا أجرؤ حتى على التنفّس. تمرّ دقيقة، ويبدو أنّ أصابع سالغادو المتبقّية، مغلولةٌ هناك في الداخل بحثًا عن حجر الفلاسفة أو عن بواسير في غاية العمق. ويترافق كلّ هذا مع أنّاتٍ مخنوقة لن أقلِّدها الآن.

- إنّك تذهلني. - قال مارتين.

- فانتظر المشهد النهائيّ العظيم إذن. بعد دقيقة أو اثنتين من سبر أغوار الطبقات الشرجيّة، يطلق تنهيدةً على طراز يوحنا الصليب، وتتحقّق المعجزة. يُخرِج أصابعه من قفاه، ليُشهِر غرضًا متلألئًا، أراه بوضوح من زاويتي، وأجزم أنّه ليس بقطعةٍ من برازه.

- فما هو إذن؟

- مفتاح. ليس مفتاحًا إنكليزيًّا، إنّما أحد تلك المفاتيح الصغيرة، التي تُستَخدم للحقائب أو للخزن الصغيرة في النوادي.

- وبعد؟

- وبعد، يأخذ المفتاح، يبصق عليه لعابه كي يلمِّعه، إذ إنّني لا أتخيَّل أنّ المفتاح يتضوَّع بعبير الأزهار البريّة، ويتّجه نحو الجدار، وحين يتأكّد من أنّي ما زلت نائمًا، وهذا ما أؤكِّده بشخيرٍ متكامل، يتابع عمله كأنّه جرو القدّيس برنار، ويخفي المفتاح في أحد الخروم بين الصخور ويغطّيه بطبقة من القذارة، ولا أستبعد أنّه يضيف إليها ما نجم عن جَسِّه لأعضائه السفلى.

تبادل مارتين وفيرمين نظرةً صامتة.

- هل تفكّر في ما أفكّر فيه؟ - تقصّى فيرمين.

أكّد مارتين بهزّة من رأسه.

- كم من الوقت سيظلّ ذلك البرعم مختبئًا في وكر جشعه، برأيك؟ - سأل فيرمين.

- ما يكفي كي تصدِّق بأنّ الحفاظ على سرّ وجوده يستحقّ منه إضاعة أصابعه ويديه وجزءٍ كبيرٍ من خصيتيه، والله أعلم كم من الأشياء الأخرى. - ارتجل مارتين.

- فماذا أفعل الآن؟ هل أبتلع ذلك المفتاح، أو إذا اضطر الأمر دسستُه في أسفل جزء من جهازي المعويّ، قبل أن يسمح الوحش، مدير السجن، بأن يمدّ براثنه على كنز سالغادو ليموِّل الطبعة الفاخرة لروائعه الأدبيّة ويشتري منصبًا في الأكاديميّة الملكيّة للغة الإسبانيّة؟

- لا تفعل شيئًا في هذه الآونة. - قال مارتين - تأكّدْ أنّ المفتاح ما يزال هناك، وانتظرْ تعليماتي. فإنّني أكاد أنجز تفاصيل هروبك.

- لا أقصد إهانتك يا سيّد مارتين، بل إنّني أشكرك جزيل الشكر على دعمك المعنويّ واهتمامك بي. غير أنّني هذه المرّة أراهن على عنقي وأشياء نفيسة أخرى... وعلى ضوء ما يشاع عنك بأنّك مجنون خطير، تقلقني فكرة أن أضع حياتي بين يديك.

- إن كنتَ لا تثق بروائيّ، فبمن تثق يا تُرى؟

رأى فيرمين صديقَه مارتين يقطع الباحة ملفوفًا بغيمته المتنقّلة التي تُصدِرها السجائر المصنَّعة من الأعقاب.

- يا أمَّ الربّ! - غمغم للريح.

١٣

امتدّت حفلة المراهنات الفظيعة التي نظّمها الرقم ١٧ عدّة أيّام، والتي كان سالغادو في خلالها يبدو على وشك الموت، ثمّ سرعان ما ينهض فجأة ويجرجر نفسه إلى قضبان الزنزانة، حيث كان يلقي، بالفم الملآن، طقطوقةً من هذا النوع: «*ياأبناءالقحبةلنتتمكّنوا منالحصولعلىقرشواحدمناأمواليياأبناءالعاهرات*»، إضافةً إلى تنويعات أخرى، حتّى يُبَحّ صوته ويسقط على الأرض فاقدًا وعيه، فيتوجّب على فيرمين أن ينهض به ليعيده إلى السرير.

- هل فطس الصرصار يا فيرمين؟ - كان الرقم ١٧ يسأل حالما يسمع سقوط سالغادو مثل حبّة أجاص ناضجة.

ولم يعد فيرمين يطيق إذاعة النشرة الطبيّة للوضع الصحيّ لرفيقه في الزنزانة. وإن حدث ذلك، لكانوا قد شهدوا على مرور الصرّة القماشيّة.

- انظر يا سالغادو، إن كان عليك أن تموت، فمت حالًا، أمّا إذا كنتَ تنوي البقاء على قيد الحياة فافعلْ بصمت، لأنّني ضقت ذرعًا باستعراضاتك والزبدُ في فمك. - كان فيرمين يقول له وهو يغطّيه بقطعة من القماش البالي الذي أمّنه في غياب بيبو من أحد

السجّانين، بعد أن منّ عليه بوصفةٍ علميّة لجذب العذارى القاصرات وإغوائهنّ بقشطة المرينغا والمعجّنات المقليّة.

- لا تتصنَّع الشفقة، فإنّي أعرف أين تريد أن تصل، لأنّك لا تختلف أبدًا عن أولئك الخرائيّين الذين يراهنون حتّى على سراويلهم آملين موتي. - يردّ سالغادو، وقد بدا متمسّكًا بطبعه النزق حتّى اللحظة الأخيرة.

- انظر، لا أودّ مناوشة رجلٍ يحتضر في الرمق الأخير، أو المتأخر على الأقلّ، ولكن عليك أن تعلم بأنّي لم أراهن على هذه المهزلة ولو بقرشٍ مثقوب. وإن اضطررتُ يومًا ما إلى دخول تلك اللعبة السيّئة، فلن أراهن على حياة كائنٍ بشريّ، مع أنّك شبيهٌ بالكائن البشريّ بقدر ما أنا شبيهٌ بالخنافس. - أوضح فيرمين.

- لا تظنَّن أنّك تربكني بكلماتك الفصيحة. - ردّ سالغادو بنبرة لئيمة - فأنا أعرف كلّ شيء عن المؤامرة التي تحيكها، أنت وصديق قلبك مارتين، بحكاية «المونت دي مونتكريستو».

- لا أعرف عمّا تتكلّم يا سالغادو. نم قليلًا، أو سنةً كاملة، فلا أحد سيشتاق إليك.

- إن كنت تتوهّم استطاعتك الهروب من هذا المكان، فهذا يعني أنّك مجنون مثله.

أحسَّ فيرمين بعرقٍ باردٍ يسيل على ظهره. أظهر عليه سالغادو ابتسامةً خاليةً من الأسنان، لكثرة ما تلقّى ضربات المطارق على فمه.

- أعرف كلّ شيء. - قال.

هزَّ فيرمين رأسه وانطوى على نفسه في زاويته، بعيدًا قدر الإمكان عن سالغادو. لكنّ السلام لم يدم أكثر من دقيقة واحدة.

- سكوتي له ثمن. - أعلن سالغادو.

- كان عليّ أن أتركك تموت عندما أعادوك إلى الزنزانة. - غمغم فيرمين.

- ردًّا للجميل، سأقدِّم لك بعض التنزيلات. - قال سالغادو - أطلب منك أن تسدي إليّ المعروف الأخير كي أصون سرّك.

- وكيف أتأكد من أنّه المعروف الأخير؟

- لأنّهم سيصطادونك، كما اصطادوا غيرك ممّن حاولوا الخروج من هنا على أقدامهم، وبعد أن يدغدغوك عدّة أيّام، سيضعونك على المخنقة في الباحة لتكون عبرة لبقيّة السجناء، وحينذاك لن يكون في وسعي أن أطلب منك أيّ شيء. فما رأيك؟ معروفٌ صغير ثمن تعاوني الكامل. وسأعطيك كلمة شرف منّي.

- كلمة شرف منك أنت؟ لماذا لم تقل ذلك في بداية النقاش؟ اختلف كلّ شيء هكذا.

- اقتربْ...

تردّد فيرمين في الوهلة الأولى، ثمّ قال لنفسه إنّه لم يكن لديه أيّ شيء ليخسره.

- أعرف أنّ ڤايس الحقير أوكلك مهمّة اكتشاف المكان الذي خبّأتُ فيه النقود. - قال - لا تتعب نفسك في إنكار ذلك.

اكتفى فيرمين بإبداء تعبير عن لامبالاته.

- أريدك أن تخبره بالمكان. - أمره سالغادو.

- كما تشاء. أين النقود؟

- قل للمدير إنّ عليه الذهاب بمفرده، شخصيًّا. إذا ذهب برفقة أحد، فلن يحصل على قرشٍ واحد. قل له أن يذهب إلى المصنع السابق فيلارديل في البوبلو نويفو، خلف المقبرة. في منتصف الليل تمامًا. لا قبل ولا بعد.

- تبدو هذه إحدى المهازل الملغّزة التي ابتكرها الدون كارلوس أرنيشيس يا سالغادو...

- أصغِ إليّ جيّدًا. قل له أن يدخل إلى المصنع ويبحث عن ركن الحراسة القديم المجاور لقسم النسّاجين، وعندما يسألونه عن هويّته، عليه أن يقول: «دوروتي حيّ»[1].

انفجر فيرمين ضاحكًا.

- هذه أكبر غباوةٍ سمعتُها منذ آخر خطبة لمدير السجن.

- اكتفِ بترديد ما أخبرتُك به على مسامعه.

- وما الذي أدراك أنّي لن أذهب بنفسي إلى هناك، لأستولي على نقودك ومكائدك وكلمة شرفك المقتَبسة من الروايات العاطفيّة المسلسلة؟

اشتعل الجشع في عيني سالغادو.

- دعني أخمّن. لأنّني سأكون ميّتًا. - أكمل فيرمين.

فاض ثغر سالغادو بابتسامة متملّقة. درس فيرمين تينك العينين وقد استبدّ بهما تعطُّشٌ للانتقام. ففهم نوايا رفيقه.

- أهو فخّ؟

سالغادو لم يردّ.

- وماذا لو نجا ڤايس؟ ألم تفكّر في ما سيفعلونه بك؟

- وهل هناك أكثر ممّا فعلوه بي حتّى الآن؟

- كنتُ أودّ أن أصفك بالداهية، صاحب الخصيتين الكبيرتين، لكنّني تبيَّنتُ أنّه لم يعد لديك سوى جزء صغير من خصية واحدة،

---

(١) خوسيه بويناڤنتورا دوروتي: مناضلٌ أناركيّ ونقابيّ وثائرٌ إسبانيّ. لقي مصرعه على يد قنّاصٍ في مدريد عام ١٩٣٦. المترجم.

وإن فشلت هذه المكيدة، فستخسر ذلك الجزء أيضًا. - ارتجل فيرمين.

- هذه مشكلتي. - قاطعه سالغادو - ها، قل لي يا مونتكريستو! هل اتفقنا؟

مدّ سالغادو اليد الوحيدة التي تبقّت لديه. تمعّن بها فيرمين عدّة لحظات قبل أن يصافح بمثلها على مضض.

١٤

تعيَّن على فيرمين أن ينتظر الخطبة التقليديّة بعد صلاة يوم الأحد، والاستراحة القصيرة في الهواء الطلق في الباحة، كي يقترب من مارتين ويبوح له بطلب سالغادو.

- لن يتضارب ذلك مع الخطّة. - طمأنه مارتين - افعل ما يطلبه منك. لم يعد بوسعنا الآن أن نسمح بوشاية.

مسح فيرمين العرق المتصبّب من جبينه، وقد كان منذ أيّام يتراوح بين الغثيان واختلاج القلب.

- مارتين، أسألك وليس في نيّتي عدم الثقة، ولكن إذا كانت هذه الخطّة التي تجهّزها مُحكَمة إلى ذلك الحدّ، فلماذا لا تستخدمها بنفسك في سبيل الخروج من هنا؟

أومأ مارتين، كأنّه كان ينتظر سماع ذلك السؤال منذ أيّام.

- لأنّني أستحقّ البقاء هنا. وحتّى لو يكن هذا صحيحًا، لم يعد لديّ أيّ مكان يسعني خارج هذه الحيطان. لا أعرف إلى أين أذهب.

- لديك إيزابيلا . . .

- إيزابيلا متزوّجة من رجل أفضل منّي بعشرات الأضعاف. قد لا أفلح في أيّ شيء إلّا أن أجعلها تعيسة، إذا أنا خرجتُ من هنا.

- لكنّك تفعل ما بوسعك كي تجنّبها مخاطر . . .

هزّ مارتين رأسه.

- عليك أن تعدني بشيء يا فيرمين. وهو الشيء الوحيد الذي سأطلبه منك مقابل إخراجك من هنا.

هذا شهر الطلبات التي لا تنتهي، قال فيرمين في قرارة نفسه، وأومأ مستعدًّا.

- اطلب ما تريد.

- إذا تمكّنتَ من الهرب، أطلب منك - إن كان ذلك باستطاعتك - أن تعتني بها. من على بُعد، دون أن تنتبه إيزابيلا لذلك، دون أن تعرف أنّك موجودٌ حتّى. أطلب منك أن تحرسها هي وابنها دانيال. هلّا فعلتَها من أجلي يا فيرمين؟

- بالتأكيد.

ابتسم مارتين بحزن.

- أنت شخصٌ طيّبٌ يا فيرمين.

- هذه هي المرّة الثانية التي تصفني فيها بالشخص الطيّب، وترنّ في أذني رنينًا يزداد سوءًا.

أخرج مارتين إحدى سجائره المقيتة وأشعلها.

- ليس لدينا الكثير من الوقت. لقد جاء بريانس إلى هنا البارحة، وهو المحامي الذي توجّهت إليه إيزابيلا من أجل قضيّتي. وقد ارتكبتُ خطأً بأنّني رويتُ له ما يريده ڤايس منّي.

- تحرير كتاباته السخيفة...

- تمامًا. طلبتُ منه ألّا يخبر إيزابيلا بأيّ شيء، لكنّني أعرفه، سيفعلها عاجلًا أم آجلًا. أمّا إيزابيلا، وأعرفها جيّدًا هي الأخرى، ستستشيط غضبًا وقد تأتي حتّى هنا لتهدِّد ڤايس بفضح سرِّه في كلّ الاتجاهات الأربعة.

- ألا يمكنك إيقافها؟

- إنّ محاولة إيقاف إيزابيلا تساوي محاولة إيقاف قطار شحن البضائع: مَهمّةٌ غبيّة.

- كلّما حدّثتني عنها، تمنّيتُ أن أتعرّف عليها. فأنا والنساء ذات الطباع القويّة...

- فيرمين، أذكِّرك بوعدك.

حمل فيرمين يده إلى قلبه وأقسم بإجلال. فتابع مارتين:

- ماذا كنت أقول؟ آه، عندما سيحدث هذا، قد يرتكب ڤايس أيّ حماقة تخطر في باله. إنّه رجلٌ مهزوز، بسبب تبجُّحه وحسده وجشعه. إذا شعر بأنّه محاصَر، قد يُقدِم على خطوة غير محسوبة. لا أعرف ما هي، لكنّني متيقّنٌ من أنّه سيحاول فعل شيء ما. لذا من المستحسن أن تكون خارج السجن في تلك اللحظة.

- في الحقيقة، ليس لديّ رغبةٌ كبيرة في البقاء هنا...

- لم تفهمني. ينبغي أن نعجّل الخطّة على أوانها.

- نعجِّلها؟ متى؟

حدّق إليه مارتين طويلًا بين خيوط الدخان التي تتصاعد من فمه.

- هذه الليلة.

حاول فيرمين أن يبتلع ريقه، لكنّ فمه كان ممتلئًا بالغبار.

- كيف وأنا ما زلت أجهل الخطّة...

- افتح أذنيك جيّدًا.

١٥

في عصر ذلك اليوم، وقبل أن يعود فيرمين إلى زنزانته، اقترب من أحد الحارسين اللذين اقتاداه إلى مكتب فايس.

- قل للسيّد المدير إنّني أودّ التحدُّث إليه.

- هل يمكنني أن أعرف الموضوع؟

- قل له إنّني حصلتُ على النتائج التي كان ينتظرها. سيفهم ما أقصد.

وبعد أقلّ من ساعة، وصل الحارس وزميله إلى باب الزنزانة رقم ١٣ لاصطحاب فيرمين. كان سالغادو يراقب كلّ شيء من سريره بتعبيرٍ كلبيّ، وهو يدلّك يده المبتورة. غمز له فيرمين بعينه وغادر بمرافقة الحارسين.

استقبله السيّد المدير بابتسامة رقيقة وطبقٍ من حلويات كاسا إسكريبا.

- فيرمين، يا صديقي، ما أسعدني بلقاء حضرتك مجدّدًا لتجاذب أطراف الحديث الشيّق والبنّاء. تفضّل بالجلوس، وتذوَّقْ ما تشاء من هذه التشكيلة اللذيذة من الحلويات التي جاءتني بها زوجة أحد السجناء.

لم يكن فيرمين قادرًا على هضم حبّة ذرة منذ أيّام، لكنّه أمسك بقطعة حلوى كي لا يعارض ڤايس وجعلها في يده كما لو كانت تميمة. لاحظ أنّ السيّد المدير صار يخاطبه بصيغة احترام، وتخيّل أن تكون عواقب هذه المعاملة الجديدة وخيمة للغاية. صبّ ڤايس كأسًا من البراندي واسترخى على ديوانه الكبير الذي يليق بالجنرالات.

- إذن؟ قالوا لي إنّ لدى حضرتك أنباءً ستسرّني. - بادر السيّد المدير.

هزّ فيرمين رأسه.

- بما يتعلّق بفصل الآداب الجميلة، بإمكاني أن أؤكد لسيادتكم أنّ مارتين أكثر اقتناعًا واندفاعًا في تحقيق العمل الذي طلبتَه منه، بالتحرير والتنضيد على حدٍّ سواء. وليس هذا فحسب: قال لي إنّ المادّة التي أعطيتَها له رفيعة المستوى من حيث الجودة بما يسهّل عليه وظيفته، إذ ستقتصر على تنقيط بعض حروف العبقريّ السيّد المدير لتصبح الرائعة الأدبيّة استثنائيّة وجديرة بالمعلّم براكلسوس.

امتصّ ڤايس كلمات فيرمين المدفعيّة، لكنّه أومأ بلفتة وقورة دون أن يتخلّى عن ابتسامته المتجمّدة.

- لا ضرورةً لتلميع صورتي. يكفيني أن أعرف بأنّ مارتين سيفعل ما عليه فعله. كلانا يعرف أنّ كتابتي لا تروق له، لكنّني سعيدٌ لأنّه قرّر أن يتعقّل، ولأنّه أدرك أن تسهيل الأمور سينفع الجميع. وبشأن النتائج الأخرى...

- كنتُ سأصل إليها يا سيّدي. بما يتعلّق بمدفن المجلّدات المنفيّة...

- مقبرة الكتب المنسيّة. - صوّب ڤايس - هل تمكّنتَ من استدراج مارتين للإقرار بمكانها؟

أومأ فيرمين بقناعة تامّة.

- وفقًا لما استطعتُ استنتاجه، فإنّ المدفن آنف الذِّكر متوارٍ في متاهةٍ من أنفاق وأقواس تحت سوق البورني.

قيَّم ڤايس تلك الرؤيا، وبانت عليه ملامح المفاجأة.

- والمدخل؟

- لم أتمكّن من الوصول حتّى هناك، يا سيادة المدير. أتصوَّر أنّ المدخل في فتحةٍ مخبّأة خلف السور والروائح المغرية لأحد أكشاك بيع الخضروات بالجملة. لم يشأ مارتين التحدّث بالموضوع ففكّرتُ أنّه سيزداد تكتُّمًا لو أنّني ألححتُ عليه كثيرًا.

هزّ ڤايس رأسه ببطء.

- أحسنتَ صنعًا. تابع.

- ختامًا، بما يتعلّق بالمهمّة الثالثة التي أوكلتها لي سيادتك. انتهزتُ احتضار سالغادو النذل وأوجاعه، واستطعتُ أن أقنعه بأن يعترف لي، في هذيانه، عن مخبأ غنيمته الثمينة من أفعاله الإجراميّة في خدمة الماسونيّة والماركسيّة.

- هل تعتقد حضرتك أنّه سيموت؟

- بين لحظة وأخرى. أعتقد أنّه فوَّض أمره للقدّيس ليف تروتسكي، ليبقى في انتظار النَّفَس الأخير كي يرتقي إلى *المكتب السياسيّ* للأجيال القادمة.

هزّ ڤايس رأسه.

- سبق أن قلت لهؤلاء الحمير إنّهم باستخدام القوّة لن يحصلوا على شيء.

- من الناحية التقنيّة، حصلوا على بعض الأعضاء التناسليّة،

لكنّي أتّفق مع رؤية سيادة المدير، إذ إنّ الوحوش على شاكلة سالغادو، لا طريق أمامهم إلّا علم النفس التطبيقيّ.

- وبعد؟ أين خبّأ النقود؟

مدّد فيرمين جذعه إلى الأمام واتّخذ نبرة مصارحة.

- من المعقّد شرحه.

- لا تستفض كثيرًا في كلامك، وإلّا أرسلتك إلى تحت الأرض لإنعاش حسّك الخطابيّ.

شرع فيرمين حينذاك يبيع ڤايس تلك المكيدة الثمينة، التي حصل عليها من شفتَي سالغادو. وظلّ السيّد المدير يصغي إليه مشدوهًا.

- فيرمين، أحذّرك بأنّك ستندم إن كنتَ تكذب. فما ذاقه سالغادو من عذاب سيكون بمثابة مقبّلات لما ستذوقه أنت.

- أؤكّد لسيادتك أنّني أنقل ما قاله لي سالغادو كلمةً كلمة. وإن أردت حضرتك، أقسمتُ لك بصورة الزعيم المطابقة للحقيقة، هذه التي تزيّن مكتبك حمدًا للربّ.

ركّز ڤايس أنظاره في عيني فيرمين. فصمد الأخير في وجه تلك النظرة دون أن يرفّ له جفن، كما علّمه مارتين. استرجع السيّد المدير ابتسامته في النهاية، وبعد أن حصل على المعلومات التي كان يريدها، استرجع إناء الحلويات أيضًا. ومن دون أيّ إشعارٍ رزين، طقطق بأصابعه فدخل الحارسان ليعيدا السجين إلى الزنزانة.

لم يتكلّف ڤايس إطلاق الوعيد هذه المرّة. وبينما كان الحارسان يسحلان فيرمين إلى الممرّ، رأى الأخيرُ سكرتيرَ المدير آتيًا قبالتهم ليتوقّف عند عتبة باب المكتب.

- سيّدي المدير! ساناوخا، الطبيب في زنزانة مارتين...

- أجل؟ ما به؟

- يقول إنّ مارتين أغمي عليه، وإنّه يعتقد أنّ وضعه خطير للغاية. ويطلب الإذن من سيادتكم كي يحصل على الأدوية من الصيدليّة...

نهض ڤايس غاضبًا.

- وماذا تنتظرون؟ هيّا، بسرعة. افتحوا له أبواب الصيدليّة، وليأخذْ منها ما أراد.

١٦

بأمرٍ من السيّد المدير، تموضع سجّانٌ قبالة زنزانة مارتين بينما كان الطبيب ساناوخا يجود عليه بالعناية. كان السجّان شابًّا لم يتمّ عامه العشرين بعد، وحديث عهدٍ في الخدمة. ولئن كان بيبو يناوب في فترة الليل، تمّ تعيين ذلك الغرّ من دون أيّ تبرير، مع أنّه لا يحسن التعامل حتّى مع حزمة المفاتيح، وكان عصبيًّا أكثر من السجناء أنفسهم. وعند الساعة التاسعة تقريبًا، اقترب الطبيب، وقد بانت معالم الإنهاك على وجهه، اقترب من القضبان وتوجّه بالكلام إلى السجّان.

- أحتاج إلى ضمادات نظيفة ومياهٍ مؤكسجة.

- لا أستطيع أن أترك المكان.

- وأنا لا أستطيع أن أترك المريض. أرجوك. ضمادات نظيفة ومياه مؤكسجة.

سخط السجّان مرتبكًا.

- لا يطيب للسيّد المدير عدم تنفيذ أوامره حرفيًّا.

- ولا يطيب له أبدًا أن يحدث مكروهٌ لمارتين بسبب إهمالك لمطالبي.

قيَّم السجّان الشابّ الحالة.

- يا سيّد، نحن لا نخترق الجدران ولا ننهش القضبان. . . - جادل الطبيبُ.

فرَّغ السجّانُ غيظه بتجديفة عابرة، وانطلق بكلّ ما أوتي من سرعة. وبينما كان يبتعد باتجاه الصيدليّة، ظلّ ساناوخا خلف القضبان. فرأى أنّ سالغادو نائمٌ منذ ساعتين، ويتنفّس بصعوبة. مدّ فيرمين عنقه بحذرٍ نحو الممرّ، وتبادل نظرة مع الطبيب. عندئذ، رمى ساناوخا إليه بعلبة، لا تتعدّى أوراق اللعب حجمًا، ملفوفة بخرقة ومربوطة بخيط. أمسك بها فيرمين وهي تطير، وتراجع بسرعة إلى الظلمة في عمق الزنزانة. وعندما عاد السجّان محمّلًا بما طلبه منه ساناوخا، أطلّ برأسه من بين القضبان وتفحَّص جسد سالغادو بنظرةٍ منه.

- إنّه في الشوط الأخير. - قال فيرمين - لا أعتقد أنّه سيصمد حتّى الغد.

- ساعدْه على البقاء حيًّا حتّى السادسة. لا أريده أن يصدِّع رأسي. فليمت في دوريّة سجّانٍ آخر.

- نفعل ما بالإمكان من الناحية الإنسانيّة. - ردّ فيرمين.

١٧

في تلك الليلة، بينما كان فيرمين في زنزانته يزيل غلاف العلبة التي مرّرها إليه الطبيب ساناوخا عبْر الممرّ، كانت هنالك سيّارة ستودبيكر سوداء تقتاد السيّد المدير على الطريق التي تهبط من مونتويك باتّجاه الأزّقة المعتمة المحاذية للميناء. وكان السائق خايمي يركّز جلّ انتباهه على تجنُّب الحُفر وأيّ نوع من المطبّات التي قد تزعج الراكب وتقطع عليه تسلسل أفكاره. لم يكن المدير الجديد مثل سلفه، الذي كان يدردش معه في السيّارة، حتّى إنّه في بعض الأحيان جلس إلى جانبه في المقعد الأماميّ. أمّا المدير ڤايس فلا يتوّجه إليه بنصف كلمة، إلّا في حالة إملاء الأوامر، ونادرًا ما بادله نظرةً، إلّا عن طريق الصدفة أو إذا مرّ فوق حجرة أو انعطف بسرعة كبيرة. كانت عيناه إذّاك تشتعلان في المرآة العاكسة، وتتّسع تكشيرة مقيتة على وجهه. لم يكن المدير ڤايس يسمح له بتشغيل الراديو لأنّ البرامج التي تبثّها الإذاعة تستهين بذكائه، على حدّ قوله. لم يكن يسمح له حتّى بتعليق صور زوجته وابنته على لوحة القيادة.

ولحسن الحظ، لا وجود للزحمة في تلك الساعة من الليل، فلم تتعرّض السيّارة لأيّ خضّةٍ طوال الرحلة. واستطاع السائق في غضون دقائق أن يجتاز منطقة أتاراثاناس، وحاذى تمثال كولومبوس، ودخل

لاس رامبلاس. ووصل بعد دقائق قبالة مقهى الأوبرا وتوقَّف هناك. وكان جمهور المعهد قد دخل إلى المسرح، على الجانب الآخر من الشارع، وباتت ساحات لاس رامبلاس شبه مقفرة. نزل السائق، وفتح باب ماوريسيو ڤايس، بعد أن تحقّق من عدم وجود أحد في الجوار. ترجّل السيّد المدير ونظر إلى الطريق بلا اهتمام. أحكم ربطة العنق ونفّض أكتاف سترته بيده.

- انتظر هنا. - قال للسائق.

عندما دخل السيّد المدير، كان المقهى خاليًا من الزبائن تقريبًا. وكانت الساعة خلف المصطبة تشير إلى العاشرة إلّا خمس دقائق. ردّ السيّد المدير تحيّة النادل بإيماءةٍ من رأسه، وجلس إلى طاولة صغيرة في آخر الصالة. نزع قفّازيه بهدوء، وأخرج حاملة السجائر الفضيّة، تلك التي أهداها له حموه في عيد زواجه الأوّل. أشعل سيجارةً وراح يقلِّب المقهى القديم بأنظاره. اقترب منه النادل يحمل إناءً في يده، ومسح الطاولة بممسحة رطبة مفعمة برائحة المنظّفات. رماه المدير بنظرة احتقار تجاهلها النادل.

- السيّد يرغب؟

- فنجانَين من البابونج.

- بالفنجان نفسه؟

- لا. بفنجانين منفصلين.

- السيّد ينتظر رفيقًا؟

- من البديهيّ.

- جيّد جدًا. هل ترغب حضرتك في شيء آخر؟

- عسل.

- حاضر يا سيّدي.

ابتعد النادل بلا عجالةٍ وغمغم السيّد المدير في سرّه بما ينمّ عن ازدراء. كان الراديو على المصطبة يُصدِر همهمات برنامج حول النصائح العاطفيّة، تتخلّلها إعلاناتٌ لشركة مستحضرات التجميل بيلا آورورا، والتي يضمن استعمالُها اليوميّ شبابًا وجمالًا وحيويّة. على بُعد أربع طاولات من هناك، ثمّة عجوزٌ يبدو غافيًا والجريدة بين يديه. وبقيّة الطاولات يملأها الفراغ. وصل الفنجانان الساخنان بعد خمس دقائق. وضعهما النادل على الطاولة بحركةٍ بطيئة وراقية، ثمّ أسند إناء العسل.

- أهذا كلّ شيء يا سيّدي؟

أومأ ڤايس. وانتظر أن يعود النادل إلى المصطبة كي يُخرِج من جيبه قارورة صغيرة. نزع السدّادة وألقى نظرة على الزبون الآخر، الذي ما زالت الصحافة تطرحه أرضًا، بينما كان النادل موليًا ظهره للمصطبة ليجفّف الكؤوس.

سكب ڤايس من محتوى القارورة في الفنجان الآخر. ثمّ مزج فيه دفقةً كريمةً من العسل وحرَّك الملعقة بالفنجان حتّى تحلَّل العسل نهائيًّا. وكان الراديو يذيع نشرةً حزينةً عن سيّدةٍ من بيتانثوس، يبدو أنّ زوجها غضب منها لأنّها أحرقت وجبة اللحم في عيد كلّ القدّيسين عن غير قصد، فدخل إلى إحدى الحانات مع أصدقائه ليتابع مباريات كرة القدم ولمّا يَعُدْ إلى المنزل. كانوا ينصحونها بالصلوات والتماسك واستخدام أسلحتها النسائيّة، دون أن تتجاوز الحدود الصارمة للعائلة المسيحيّة. نظر ڤايس إلى الساعة مرّة أخرى. كانت تشير إلى العاشرة والربع.

١٨

دخلت إيزابيلا سيمبيري من الباب في العاشرة وعشرين دقيقة. كانت ترتدي معطفًا عاديًا، وقد عقدت شعرها ولم تزيّن وجهها بمساحيق التجميل. رآها ڤايس وأشار لها. توقّفت إيزابيلا برهةً ثمّ اقتربت من طاولته ببطء. نهض المدير وابتسم لها متودّدًا ومدّ يده نحوها، لكنّها تجاهلت يده الممدودة وجلست.

- سمحتُ لنفسي بحريّة اختيار فنجانين من البابونج، ما قد يناسب أمسيةً كئيبة كهذه.

هزّت إيزابيلا رأسها متجنّبةً نظرات ڤايس. حدّق إليها السيّد المدير باهتمام. وكانت السيّدة سيمبيري، كما في كلّ مرّة تقابله، لا تعتني بمظهرها كثيرًا في محاولةٍ لإخفاء محاسنها عنه. نظر ڤايس إلى تفصيلة شفتيها، وإلى نبض الوريد في عنقها، وإلى تكوير صدرها من تحت المعطف.

- تفضّل بالكلام. - بادرت إيزابيلا.

- قبل كلّ شيء، اسمحي لي أن أشكر حضرتكِ على المجيء إلى هذا اللقاء الذي ترتّب من دون إيذان أو يكاد. تلقّيتُ رسالتك بعد الظهر، ورأيتُ أنّه من المناسب أن نتكلّم بالأمر خارج المكتب وأجواء السجن.

اكتفت إيزابيلا بالإيماء. تذوّق ڤايس البابونج ومسح شفتيه بلسانه.

- يا له من مشروب لذيذ. هو الأفضل في برشلونة. تفضّلي باحتسائه.

تجاهلت إيزابيلا دعوته.

- لعلّكِ تستوعبين أنّ الاحتياط واجب. هل لي أن أسألكِ إن كنتِ قد أخبرتِ أحدًا بأنّكِ آتيةٌ إلى هنا هذا المساء؟

هزّت إيزابيلا رأسها نافيةً.

- ولا حتّى زوجكِ؟

- زوجي يتابع الجرد في المكتب. لن يعود إلى البيت قبل الفجر. لا أحد يعلم أنّني هنا.

- هل أطلب لكِ مشروبًا آخر؟ إذا كان البابونج لا يروق لكِ...

رفضتْ إيزابيلا وأمسكت بالفنجان بين يديها.

- لا بأس بهذا.

ابتسم ڤايس مبتهجًا.

- كنت أقول... تلقّيتُ رسالتكِ. أستوعب استياءكِ، وأردت أن أشرح لكِ أنّ في الأمر سوءَ فهمٍ ليس إلّا.

- حضرتك تبتزّ مريضًا عقليًّا، مسكينًا، وسجينًا عندك، لترغمه على أن يكتب لك عملًا أدبيًّا من شأنه أن يشهرك. حتّى هذه النقطة، لا أعتقد أنّني أسأتُ الفهم.

زحف ڤايس بيده نحوها.

- إيزابيلا، هل لي أن أناديكِ باسمكِ؟

- لا تلمسْني.

سحب ڤايس يده، مبديًا لفتةً متفهّمة.

- حسنٌ، فلنتحدّث بهدوء على الأقلّ.

- لا شيء نتحدّث فيه. إن كنتَ لا تريد حضرتك أن تَدَعَ دافيد وشأنه، فإنّني عازمةٌ على نقل قصّتك هذه وأسباب احتيالك إلى مدريد، أو إلى أيّ مكانٍ أراه ضروريًّا. فالجميع يعلم أيَّ شخصٍ وأديبٍ أنت. لا شيء ولا أحد بإمكانه أن يوقفني.

كانت الدموع تتفتّح على عيني إيزابيلا، والفنجان يرتجف بين يديها.

- أرجوكِ يا إيزابيلا. اشربي من هذا الفنجان قليلًا. ستشعرين بحال أفضل.

شربت إيزابيلا رشفتين، وكانت سارحة الفكر.

- سيكون ممتازًا لو أضفتِ إليه قليلًا من العسل. - أردف ڤايس.

شربت إيزابيلا ثلاث رشفات أخرى.

- عليّ أن أخبركِ بأنّني معجبٌ بكِ يا إيزابيلا. - أكمل ڤايس - قلّةٌ هم الذين قد يتحمّسون بكلّ شجاعة وحزمٍ للدفاع عن شيطان مسكين كمارتين... فلقد أهمله الجميع وخانوه. الجميع ما عداكِ أنتِ.

ألقت إيزابيلا نظرةً عصبيّةً نحو الساعة التي خلف المصطبة. شربت رشفتين أخريين من البابونج حتّى أنهته.

- أنتِ تقدِّرينه كثيرًا. - ارتجل ڤايس - أتساءل أحيانًا يا ترى هل إنّكِ، إذ مرّ الوقت وتعرَّفتِ عليّ بشكل أفضل، ستقدِّرينني كما تقدِّرينه؟

- حضرتك تسبّب لي القرف يا ڤايس. أنت وكلّ الحثالة الذين على شاكلتك.

- أعلم ذلك يا إيزابيلا. إلّا أنّ الحثالة الذين على شاكلتي هم حكّام هذا البلد؛ والناس الذين مثلكِ هم الذين يبقون في الظلّ دائمًا. بغضّ النظر عمّن يمسك بزمام الأمور.

- هذه المرّة، كلّا. هذه المرّة سيتعرّف من هو أعلى منك مرتبةً على ألاعيبك.

- وما الذي يجعلكِ تؤمنين بأنّهم يهتمّون بذلك، أو أنّهم لا يفعلون الأشياء التي أقوم بها، وربّما أسوأ منها؟ فأنا لستُ سوى هاوٍ مبتدئ.

ابتسم ڤايس وأخرج من جيب سترته ورقةً مطويّة.

- إيزابيلا، أريدكِ أن تفهمي أنّي لستُ كما تتصوَّرين. ولكي أثبت لكِ ذلك، ها هو الأمر بالإفراج عن دافيد مارتين، يدخل حيّز التنفيذ اعتبارًا من صباح الغد.

أظهر ڤايس الوثيقة على مرآها. فتفحَّصتْها إيزابيلا غير مصدِّقةٍ ما ترى. أمسك ڤايس بالقلم ووقّع على الوثيقة دون أن يتردّد.

- وها قد انتهينا. دافيد مارتين حرٌّ، عمليًّا. والفضل لكِ يا إيزابيلا. الفضل لكِ...

رمقتْه إيزابيلا بنظرةٍ مطفأة. ولاحظ ڤايس أنّ بؤبؤي عينيها يذويان شيئًا فشيئًا، وكان خيطٌ من العرق يتفتّح فوق شفتيها.

- هل أنتِ بخير؟ لقد شحب وجهكِ...

نهضت إيزابيلا مترنِّحةً وتشبّثت بحافة الطاولة.

- هل أصابكِ الغثيان؟ هل أرافقكِ إلى مكان ما؟

تراجعت إيزابيلا بضع خطوات واصطدمت بالنادل الذي كان متّجهًا نحو المخرج. ظلّ ڤايس جالسًا، يتذوّق فنجانه، حتّى أشارت الساعة إلى العاشرة وخمس وأربعين دقيقة. ترك حينذاك بعض النقود على الطاولة، ومشى ببطء نحو الباب. كانت السيّارة قرب الرصيف، والسائق يُبقي الباب مفتوحًا.

- هل يرغب السيّد المدير في الذهاب إلى البيت أم إلى القلعة؟

- إلى البيت، ولكن قبل ذلك سنتوقّف عند بويبلو نويفو، عند مصنع فيلارديل القديم. - أمره.

ماوريسيو ڤايس، النجم الواعد في سماء الأدب الإسبانيّ، قُبَيْلَ استيلائه على الكنز الموعود، كان يرنو إلى تتابع الشوارع المظلمة والمقفرة في برشلونة اللعينة التي كان يكرهها كثيرًا. ذرف دموعه على إيزابيلا وعلى ما سيقع لها قريبًا.

١٩

عندما استيقظ سالغادو من سباته وفتح عينيه، لم ير في البداية إلّا رجلًا يقف بجانب السرير ويرمقه متسمِّرًا. أصابته حالة من الهلع، وشكّ لوهلةٍ أنّه ما يزال موجودًا هناك تحت الأرض. رسم وميض الضوء المتراقص، القادم من شُعَلِ الممرّ، ملامح مألوفة.

- فيرمين؟

هزّ الرجل رأسه مؤكّدًا، تحت الظلام، فتنفّس سالغادو الصعداء.

- أشعر بجفافٍ في فمي. هل بقي قليل من الماء؟

اقترب فيرمين ببطء. كان يحمل غرضًا في يده، خرقة وقارورة زجاجيّة.

رآه سالغادو يصبّ سائل القارورة على الخرقة.

- ما هذا يا فيرمين؟

فيرمين لم يردّ. بل كان وجهه خاليًا من أيّ تعبير. انحنى صوب سالغادو وحدّق في عينيه.

- فيرمين، لا . . .

وقبل أن يتمكّن سالغادو من نطق حرفٍ آخر، وضع فيرمين الخرقة على فمه وأنفه، وضغط بشدّة، وثبّته على رأس السرير. تخبّط

سالغادو بما تبقّى لديه من قوّة. وواصل فيرمين الضغط بالخرقة على وجهه. كان سالغادو ينظر إليه مرعوبًا. ولم تكد تمرّ ثانيتان إلّا وكان قد فقد وعيه. لم ينزع فيرمين الخرقة فورًا. عدّ خمس ثوانٍ أخرى، ثمّ نزعها حينذاك. وجلس على السرير، موليًا ظهره لسالغادو، وانتظر بضع دقائق. ثمّ اقترب من باب الزنزانة، كما أوصاه مارتين.

- أيّها السجّان! - نادى.

سمع خطوات الغرّ تدنو على امتداد الممرّ. كانت خطّة مارتين تتوقّع أن يكون بيبو مناوبًا في ذلك المساء، كما المعتاد، بدلًا من هذا المغفّل.

- وماذا هناك الآن؟ - سأل السجّانُ.

- سالغادو. . . لقد أسلم الروح.

هزّ السجّان رأسه وانطبعت على وجهه تعابير الإحباط.

- يا له من ابن عاهرة. والآن؟

- اجلب الصرّة لو سمحت.

أخذ السجّان يلعن قدره.

- سأدخله فيها بنفسي، إن أردتَ، يا سيّد. - تطوّع فيرمين.

أومأ السجّان بما ينمّ عن امتنانه.

- إذا توافرت الصرّة، أدخلتُه فيها، بينما تبلّغ عن موته، فهكذا يأتون لحمله بعيدًا قبل منتصف الليل.

أومأ السجّان مجدّدًا وانطلق يبحث عن الصرّة القماشيّة. ظلّ فيرمين واقفًا عند باب الزنزانة. وكان مارتين وساناوخا، في الجانب الآخر من الممرّ، يراقبانه في صمت.

بعد عشر دقائق، عاد السجّان حاملًا الصرّة برؤوس أصابعه، عاجزًا عن مقارعة الغثيان الذي تسبّبه رائحة الجيفة النتنة. تراجع فيرمين إلى عمق الزنزانة دون أن ينتظر تعليمات. فتح السجّان القضبان ورمى الصرّة إلى الداخل.

- بإمكانك أن تُبلِّغهم الآن يا سيّد، فهكذا يريحوننا من الجثّة قبل منتصف الليل، وإلّا اضطررنا لإبقائه هنا حتّى مساء الغد.

- هل أنت متأكد من أنّك قادر على إدخاله بمفردك؟

- لا تقلق يا سيّد، فنحن خبراء.

أومأ السجّان ثانيةً، عن غير اقتناع بالمجمل.

- نأمل أن يحالفنا الحظّ، لأنّ اليد المبتورة آخذةٌ في التقيُّح، وقد تنبعث منها رائحةٌ لن أصفها لك يا سيّد...

- اللعنة. - قال السجّان وهو يبتعد على عجالة من أمره.

وما إن سمع فيرمين خطواته تصل إلى الطرف البعيد من الممرّ، حتّى نزع ثياب سالغادو ونزع ثيابه نفسها. ارتدى لباس اللصّ القذرة وألبسه ثيابه. ثمّ أزاح جسدَ سالغادو إلى جانب السرير، موليًا وجهه إلى الحائط، ورمى عليه الغطاء حتّى حجب نصف وجهه. فأمسك بالصرّة القماشيّة وأدخل نفسه فيها. وما لبث يُغلِقها من الداخل حتّى تذكّر شيئًا ما.

خرج على عجلة وحيرة، ودنا من الحائط. حكّ بأصابعه بين الصخرتين هناك حيث رأى سالغادو يخبِّئ المفتاح، فتبدّى له مطلع طرفه. حاول أن يمسكه بأصابعه، لكنّ المفتاح كان ينزلق ويبقى حبيسَ الصخرة.

- استعجل. - قال له صوتُ مارتين من الجانب الآخر للممرّ.

ضغط فيرمين أصابعه على المفتاح وشدّ بقوّة. فاقتُلِع ظِفرُ البنصر، وكادت ومضة الألم تعمي فيرمين بضع ثوان. كبت صرخته وأخذ إصبعه إلى شفتيه. فامتلأ فمه بطعم دمائه، المالحة والمعدنيّة. فتح عينيه فرأى أنّ سنتمترًا من المفتاح ينتأ من الثغرة. فاستطاع أن يسحبه بكلّ هدوء هذه المرّة.

دخل في الصرّة من جديد، وعقد الرباط قدر الإمكان، وترك فتحةً بمقدار شبر تقريبًا. تمكّن من لجم دفعات التقيّؤ التي كانت تتصاعد إلى حلقه، واستلقى على الأرض، وربط الخيوط من داخل الصرّة ليترك فتحة لا يتعدّى حجمها قبضة اليد. سدّ أنفه بأصابعه، وفضّل أن يتنفّس عبْر قذارته نفسها على أن يستسلم لرائحة العفن تلك. والآن لم يبق سوى الانتظار، قال لنفسه.

٢٠

كانت شوارع البويبلو نويفو غارقةً في ظلامٍ دامس ورطبٍ يزحف قادمًا من مدينة الصفيح والأكواخ الواقعة على شاطئ السوموروسترو. وكانت سيّارة الستوديبكر تقطع أحجبة الضباب ببطء وتتقدّم بين أودية الظلّ التي شكّلتها المصانع والمحلّات والمخازن المعتمة والمتداعية. رسمت أضواء السيّارة نفقين من النور أمامها. حتّى تبدّى جانب مصنع فيلارديل القديم من بين الضباب. وارتسمت المداخن وقمم الأجنحة والمخابر المقفرة في آخر الشارع. وكانت البوّابة محميّةً بشباكٍ معدنيّة مدبّبة الرؤوس، تتراءى من خلفها متاهةٌ من أجماتٍ تتجلّى من خلالها هياكل الشاحنات والعربات المهملة. توقّف السائق عند بوّابة المصنع القديم.

- دع المحرِّك موقَدًا. - أمر السيِّدُ المدير.

كانت حزمتا ضوء السيّارة تتغلغلان في الظلام ما بعد البوّابة، لتكشفا عن الأوضاع الكارثيّة التي آل إليها المصنع، وقد طاوله القصف أثناء الحرب، وبات في عداد الأماكن المهجورة كالكثير من أبنية المدينة قاطبةً.

على أحد الجوانب، ثمّة أكواخ كبيرة مقفلة بألواح خشبيّة، فيما كانت المستودعات التي التهمتْها الحرائق، تبدو كأنّها البيت القديم

للحرّاس، كما تخيّلها ڤايس. إذ إنّ الأنفاس الحمراء لشمعةٍ أو لقنديلٍ زيتيّ كانت تفصّل حواف إحدى تلك النوافذ المغلقة. تمعّن السيّدُ المدير في المشهد من مقعده الخلفيّ، بلا عجالة. وبعد عدّة دقائق من الانتظار، مدّ جذعه إلى الأمام وتوجّه إلى السائق.

- خايمي، أترى ذلك المنزل البائس على الجهة اليسرى، قبالة المستودعات؟

كانت تلك أوّلَ مرّةٍ يتحدّث فيها المدير إليه بالاسم. وإنّ تلك النبرة، التي توشَّت باللطف والاحترام بغتةً، دفعتْه لتفضيل العلاقة الباردة والنافرة المعتادة.

- حضرتك تقصد ذلك الكوخ؟

- هو بالضبط. أريدك أن تذهب إلى هناك وتطرق على الباب.

- أتريد منّي حضرتك أن أدخل؟ إلى المصنع؟

تأفّف السيّد المدير نافد الصبر.

- ليس إلى المصنع. أصغ إليّ جيّدًا. ذلك البيت البائس، هل تراه؟

- أجل يا سيّدي.

- عظيم. اذهب إلى البوّابة الشبكيّة، واقطعها حتّى تصل إلى المدخل بين تلك القضبان، ثمّ اذهب إلى الكوخ واطرق على الباب. هل كلامي واضح حتّى الآن؟

أومأ السائق بحماسةٍ منطفئة.

- جيّد. بعد أن تطرق على الباب، سيفتح لك أحدهم. ستقول له: «دوروتي حيّ».

- دوروتي؟!

- لا تقاطعني. ردّد ما قلته لك فقط. سيعطيك شيئًا ما. حقيبة

أو طردًا على الأرجح. آتني به. هذا كلّ ما في الأمر. بسيطة، أليس كذلك؟

شحب وجه السائق وما انفكّ ينظر في المرآة العاكسة، كما لو أنّه يتوقّع ظهور أحدٍ أو شيءٍ ما من الظلمات بين اللحظة والأخرى.

- لا تقلق يا خايمي. لن يحدث شيء. أطلب منك ذلك كمعروفٍ شخصيّ. قل لي، هل أنت متزوّج؟

- بعد حين، سأكمل عامي الثالث على الزواج، يا سيّدي المدير.

- آه، جيّد. وهل لديك أولاد؟

- طفلة في عامها الثاني، وزوجتي تنتظر مولودًا يا سيّدي المدير.

- العائلة هي الشيء الأهمّ في الحياة، يا خايمي. وأنت إسبانيٌّ أصيل. أودّ أن تقبل منّي مئة بيسيتا، على أنّها هديّة المعموديّة سلفًا، تعبيرًا عن مودّتي، وعرفانًا لجهودك العظيمة. وإذا أسديتَ إليَّ هذا المعروف البسيط، فسأوصيهم بترقيتك. ما رأيك بعملٍ مكتبيٍّ في المقاطعة؟ لديّ أصدقاء أوفياء هناك، وقالوا لي إنّهم يبحثون عن رجالٍ أكفّاء لانتشال البلد من الهاوية التي أوقعه فيها البلشفيّون.

على ذِكر المال وانفتاح الآفاق، ارتسمت ابتسامةٌ طفيفةٌ على فم السائق.

- أليس في الأمر خطورة أو...؟

- خايمي، إنّني أنا، أنا السيّد المدير... هل من المعقول أن أطلب منك أن تقوم بمَهمّة خطيرة أو غير قانونيّة؟

حدّق إليه السائق صامتًا، فابتسم ڤايس في وجهه.

- أعد عليّ ما الذي ستفعله، هيّا!

- سأذهب إلى باب الكوخ وأطرقه. وعندما يفتحون، سأقول: «يحيا دوروتي!».

- «دوروتي حيّ».

- أجل. «دوروتي حيّ». يعطونني الحقيبة وآتي بها إلى حضرتك.

- وننصرف إلى بيوتنا. سهلة.

أومأ السائق، ونزل من السيّارة بعد لحظة تردّدٍ وجيزة، واتّجه إلى البوّابة الشبكيّة. نظر ڤايس إلى طيفه يجتاز حزمة الضوء ليبلغ المدخل. التفت برهةً لينظر إلى السيّارة.

- هيّا أيّها المغفّل، ادخل. - غمغم ڤايس.

تسلّل السائق من بين القضبان. واقترب ببطء من باب الكوخ متجنّبًا الأعشاب الضارّة والشراذم المكلّسة. أخرج السيّد المدير مسدّس الريفولفر الذي يحتفظ به في الجيب الداخليّ للمعطف وهيّأ القادح. وصل السائق إلى الباب وتوقّف. رآه ڤايس يطرق على الباب مرّتين وينتظر. مرّت حوالى الدقيقة دون أن يحدث شيء.

- مرّة أخرى. - غمغم ڤايس في نفسه.

بات السائق ينظر إلى السيّارة كأنّه لا يدري ما المطلوب فعله. وفجأةً، ارتسمت دفقةٌ من نورٍ مصفرّ هناك حيث كان الباب مغلقًا قبل لحظات. رأى ڤايس سائقَه يلفظ كلمة السرّ. التفت ثانيةً لينظر إلى السيّارة وهو يبتسم. فانفجر صدغه بفعل طلقةٍ من تلك المسافة القريبة، اخترقتْ جمجمته. وانبثقت غمامةٌ من الجانب الآخر للجمجمة، واستحال الجسد إلى جثّة، ظلّت واقفةً على القدمين برهةً، مطوّقةً بهالة البارود، قبل أن تتهاوى على الأرض مثل دمية محطّمة.

نزل ڤايس من مقعده الخلفيّ بكلّ ما أوتي من سرعة، وركب خلف دفّة الستودبيكر. ثبّت الريفولفر على لوحة القيادة، مصوِّبًا نحو مدخل المصنع بيده اليسرى، وأطلق الغيار إلى الخلف، وضغط على دوّاسة السرعة. تراجعت السيّارة نحو الظلمات، لتتخطّى الحفر وبرك المياه التي تتخلّل درب العربات. وبينما كان يبتعد، رأى لمعان أعيرة ناريّة كثيفة تنطلق من مدخل المصنع، لكنّ السيّارة لم تصب بأيٍّ منها. وما إن وصل على بُعد مئتي متر، استدار وضغط على دوّاسة السرعة بأقصى ما عنده، ليبتعد وهو يعضّ شفتيه من الغضب.

٢١

بعد أن أغلق على نفسه في الصرّة، استطاع فيرمين أن يسمع أصواتهم.

- لقد حالفنا الحظ، ها؟ - قال السجّان الغرّ.

- لقد نام فيرمين. - قال الطبيب ساناوخا من زنزانته.

- يا له من محظوظ... - قال السجّان - ها هي الصرّة، احملوها من هنا.

سمع فيرمين الخطوات من حوله، ثمّ أحسّ بخضّة مفاجئة عندما ربط أحد الدفّانين العقدة جيّدًا، وأحكم شدّها. رفعه الاثنان، وجعلا يسحلانه على امتداد الممرّ الحجريّ من دون أيّ اعتبار. لم يتجرّأ فيرمين أن يشدّ أيّ عضلة من عضلاته.

كانت الصدمات على السلالم، والزوايا، والأبواب، والعتبات، تمزّق جسده بلا رحمة. قرَّب قبضة يده إلى فمه وعضّ عليها كي لا يصرخ من الألم. وبعد مشوار طويل، أحسّ فيرمين بهبوطٍ حادّ بدرجة الحرارة، وانعدامِ أصداء رهاب الاحتجاز الذي لطالما راوده في أيّ مكان من القلعة. لقد خرج إلى الهواء الطلق إذن. جرّاه عدّة أمتار على أرضيّة من البحص المبقّع ببرك المياه. وسرعان ما بدأ البرد يتغلغل إلى داخل الصرّة.

شعر في نهاية المطاف أنّهما يرفعانه ويرميانه في الفراغ. حطّ على ما بدا أنّه سطحٌ خشبيّ، فيما كانت الخطوات تبتعد. التقط فيرمين نفسًا عميقًا. كانت الصرّة من الداخل تفوح برائحة الغائط واللحم المتعفّن والديزل. سمع تشغيلَ محرِّك الشاحنة، ثمّ أحسّ بخضّةٍ تحرَّكت على إثرها الشاحنة، واندفعت باتجاه منحدرٍ تقلَّبتْ جرّاءه الصرّة. فأدرك أنّ وسيلة النقل تلك تسير بحركةٍ متخبّطة وبطيئة على الطريق نفسها التي جاء عليها إلى القلعة منذ عدّة شهور. كان يذكر أنّ الصعود طويل ومليء بالمنعطفات. لكنّه بعد قليل، شعر بأنّ الشاحنة تنعطف وتسلك دربًا مغايرًا، على أرضيّةٍ سهلة، غير أنّها ليست ممهَّدة. لقد غيّروا الاتجاه، وتيقّن فيرمين من أنّهم يتقدّمون في الجبل عوضًا عن النزول نحو المدينة. لا بدّ أنّ شيئًا ما أفسد الخطّة.

فخطر في بال فيرمين حينذاك أنّه من المحتمل أنّ يكون مارتين قد رتّب كلّ شيء، ثمّ فاته تفصيلٌ ما. وفي المحصّلة، لا أحد كان على درايةٍ من مآل جثث المساجين. لعلّ مارتين لم يفكّر أنّهم قد يرمون بتلك الأجساد في محرقة كبيرة كي يتخلّصوا منها. فتخيَّل أنّ سالغادو يصحو من سباته الكلوروفورميّ وهو يقهقه ويقول إنّ فيرمين روميرو دي توريس، أو أيًّا يكن اسمه اللعين، قبل أن يحترق في الجحيم، سيتلظّى بالنار حيًّا.

دامت الرحلة عشر دقائق إضافيّة. وما إن أخذت الشاحنة بتخفيض سرعتها، حتّى أحسّ فيرمين للمرّة الأولى بتلك الرائحة. رائحة ثاقبة لم يشمّ مثلها من قبل. انقبض قلبه، وبينما كانت تلك النتانة التي لا توصف تسبّب له غثيانًا قاتلًا، قال فيرمين في سرّه: يا ليتني لم أصغِ إلى ذلك المجنون مارتين؛ يا ليتني بقيتُ في زنزانتي.

٢٢

عندما وصل السيّد المدير إلى قلعة مونتويك، نزل من السيّارة واتّجه إلى مكتبه بأقصى سرعة. كان السكرتير خلف منضدته الصغيرة أمام الباب، ينضِّد مراسلة اليوم على الآلة الكاتبة بإصبعين.

- دع عنك هذا وآتني بابن الكلبة سالغادو إلى هنا مباشرة.

نظر إليه السكرتير حائرًا، متردّدًا أيفتح فمه أم يغلقه.

- لا تبق هناك متسمّرًا. تحرّكْ، هيّا!

نهض السكرتير، على حرجٍ من أمره، وتجنَّب نظرات ڤايس المحتقنة.

- لقد توفّي سالغادو، يا سيادة المدير. في هذه الليلة تحديدًا...

أغمض ڤايس عينيه والتقط نفسًا عميقًا.

- سيادة المدير...

ودون أن يضيِّع الوقت في الكشف عن الأسباب، انطلق ڤايس راكضًا ولم يتوقّف إلّا عند وصوله إلى الزنزانة رقم ١٣. وحين رآه السجّان، انتفض من غفوته وأدّى له التحيّة العسكريّة.

- سيادتكم إنّ...

- افتح. هيّا بسرعة!

فتح السجّان الزنزانة فدخلها ڤايس مثل عنفة هائجة. واتّجه إلى السرير، وأمسك بكتف الرجل الراقد هناك، وشدّه بقوّة. فوجد سالغادو يغطّ في نوم عميق. انحنى ڤايس إلى جسده واشتمّ أنفاسه. فالتفت حينها نحو السجّان، الذي كان ينظر إليه مرعوبًا.

- أين الجسد؟

- لقد حمله الدفّانون بعيدًا...

سدّد إليه ڤايس صفعةً أودت به إلى الأرض. فظهر حارسان في الممرّ ينتظران تعليمات المدير.

- أريده حيًّا. - قال.

استجاب إليه الحارسان وانطلقا يهرولان. ظلّ ڤايس واقفًا هناك، مستندًا إلى قضبان الزنزانة التي يتقاسمها كلٌّ من مارتين والطبيب ساناوخا. نهض السجّان ثانيةً ولم يكن يجرؤ حتّى على التنفّس، وخُيِّل إليه أنّ السيّد المدير يضحك.

- أتصوَّر أنّها فكرتك. أليس كذلك يا مارتين؟ - سأل ڤايس في النهاية.

انحنى السيّد المدير إجلالًا، وراح يصفِّق ببطء بينما كان يبتعد في الممرّ.

٢٣

أحسّ فيرمين بالشاحنة تتباطأ وهي تواجه آخر خضّات ذلك الدرب غير الممهّد. وبعد دقيقتين من أنين الشاحنة على الفجوات، انطفأ المحرِّك. ما من قدرة تصف رائحة النتانة التي كانت تتسرّب من قماش الصرّة. تناهت إلى مسمع فيرمين خطوات الدفّانَين يقتربان من الصندوق الخلفيّ، ثمّ طقطقة الرافعة التي تُحكِم الإغلاق، ثمّ هزّة عنيفة بالصرّة وسقوطها في العدم.

هوت عظام أضلاع فيرمين على الأرض المبلّطة. فانفجر فيه وجعٌ أخرسُ حتّى كتفيه. وقبل أن يفكّر في ردّة فعل، حمل الدفّانان الصرّة من على الأرض، وأمسك كلٌّ منهما بطرف، ونقلاها إلى أعلى التلّة بضعة أمتار. وهناك، تركاها تهوي من جديد، فأحسّ فيرمين بأحدهما يجلس القرفصاء ويحلّ الربطة التي تغلق الصرّة. وخُيِّل إليه يسمع الآخر يبتعد مسافة مترين ليأتي بقطعة معدنيّة. حاول أن يلتقط أنفاسه، لكنّ تلك العفونة أحرقت حلقه. فأغمض عينيه. وضرب الهواءُ البارد وجهه. أمسك الدفّان الصرّة من آخرها وجرَّها بعنف. فقُذِف منها فيرمين ليتدحرج بين الصخور والأرض الملطّخة بالوحل.

- هيّا، سنرميه عند العَدّة الثالثة! - قال أحدهما.

أمسكت به أربع أيادٍ من الكاحلين والمعصمين. واستطاع فيرمين أن يكبت أنفاسه.

- ألا ترى أنّه يتعرّق؟

- يا لك من غبيّ، كيف لميّتٍ أن يتعرّق؟ لعلّه تجرجر بين برك المياه. هيّا. واحد. اثنان...

ثلاثة. شعر فيرمين بنفسه يُقذَف إلى الجوّ. وبعد لحظة، كان يطير مسلِّمًا أمره لمصيره. فتح عينيه أثناء الطيران، واستطاع أن يفهم قبل الصدمة أنّه كان يسقط نحو جرفٍ محفور في الجبل. ولم يسمح له ضياء القمر إلّا بتمييز شيء شاحب يكسو التراب. كان فيرمين متيقّنًا من أنّها حجارة، لكنّه في نصف الثانية من تلك السقطة، قرّر راضيًا أنّ الموت لا يعنيه.

وكان الهبوط عذبًا. أحسّ بأنّ جسده وقع على شيء هشّ ورطب. فوقه بخمسة أمتار، كان أحد الدفّانين يحمل مجرفة ويفرّغها في الهواء. فانتشر الغبار الأبيض بغمامةٍ متلألئة ومتناثرة، لامستْ بشرته بنعومة، وسرعان ما أخذتْ تنهشها كما لو كانت من أسيد. ابتعد الدفّانان، ونهض فيرمين ليكتشف بأنّه في خندق محفور تحت الأرض، مليء بالجثث المغطّاة بالكلس الحيّ. حاول أن ينفض عنه ذلك الغبار الناريّ، ووسّع لنفسه بين تلك الأجساد حتّى بلغ جدران الحفرة. وتسلّق موغلًا يديه في التراب ومتجاهلًا آلامه.

وعندما وصل إلى القمّة، تمكّن من جرجرة نفسه إلى بركة مياه آسنة ليغسل جسمه فيها من ذلك الكلس. نهض ورأى أضواء الشاحنة تبتعد في قلب الليل. التفت برهةً لينظر وراءه فرأى الحفرة تنبسط تحت قدميه مثل محيطٍ ملؤه جثثٌ مكدّسةٌ بعضها فوق بعض. اجتاحه الغثيان فسقط على ركبتيه، وتقيّأ من صفراء الكبد والدماء على يديه.

وكاد الهلع ونتانة الموت يمنعان عنه التنفّس. فسمع حينذاك صوتًا في البعيد. رفع عينيه فرأى أضواء سيّارتين تقتربان. ركض نحو سفح الجبل ووصل إلى فسحةٍ رأى من بعدها البحرَ عند أقدام التلّة ومنارة الميناء على رأس الرصيف الصخريّ.

وفي الأعلى، كانت قلعة مونتويك تبرز من بين الغيوم السوداء التي تتسابق في السماء، لتحجب القمر. كانت ضوضاء السيّارات تدنو. ودون أن يفكّر في الأمر مرّتين، انطلق فيرمين نحو أسفل الجبل، يقع تارةً ويتدحرج تارةً أخرى بين الجذوع والصخور والشجيرات، يصطدم بها حينًا وتمزّق جلده حينًا آخر. لم يعد يشعر بأيّ ألم، أو خوف، أو إرهاق، حتّى بلغ الشارع، ومن ثمّ ركض نحو مستودعات الميناء. ركض بلا أنفاس، ولم يعد لمفهوم الزمن أيُّ قيمةٍ عنده، وما عاد يكترث للجروح التي كانت تغطّي جسده.

٢٤

وكان الفجر يبزغ عندما وصل إلى متاهة الأكواخ اللامتناهية تطغى على شاطئ السوموروسترو. وقد صعد ضباب الفجر زاحفًا من البحر ليربض على السطوح. اندسّ فيرمين في أزقّة مدينة الفقراء وأنفاقها إلى أن سقط بين كومتين من الزبل. عثر عليه هناك طفلان يرتديان ثيابًا رثّة، كانا يجرّان صناديق خشبيّة. توقّفا يتمعّنان في ذلك الشكل العظميّ الذي بدا ينزف الدماء من كلّ مسام في جلده.

ابتسم فيرمين ورفع إشارة النصر بإصبعيه. تبادل الطفلان نظرةً، ثمّ قال أحدهما شيئًا لم يتمكّن فيرمين من سماعه. فوّض أمره للإنهاك، واستطاع أن يرى بعينيه المواربتين أربعة أشخاص يحملونه من على الأرض ويمدّدونه على سرير بجوار نار موقَدة. شعر بالحرارة تنفح جلده، واستعاد الإحساس بقدميه، ويديه، وساعديه شيئًا فشيئًا. فداهمه الألمُ بعدئذ، مثل موجة بطيئة لكنّها لا تلين. وكانت النساء من حوله يغمغمن بأصواتهنّ المخنوقة كلامًا عصيًّا على الفهم. جرَّدنه من تلك الخِرَق المهشّمة المتبقّية على جسمه. وأعددن قِطع القماش المغمَّسة بالماء الساخن والكافور ومسحن بها جسده العاري والنازف.

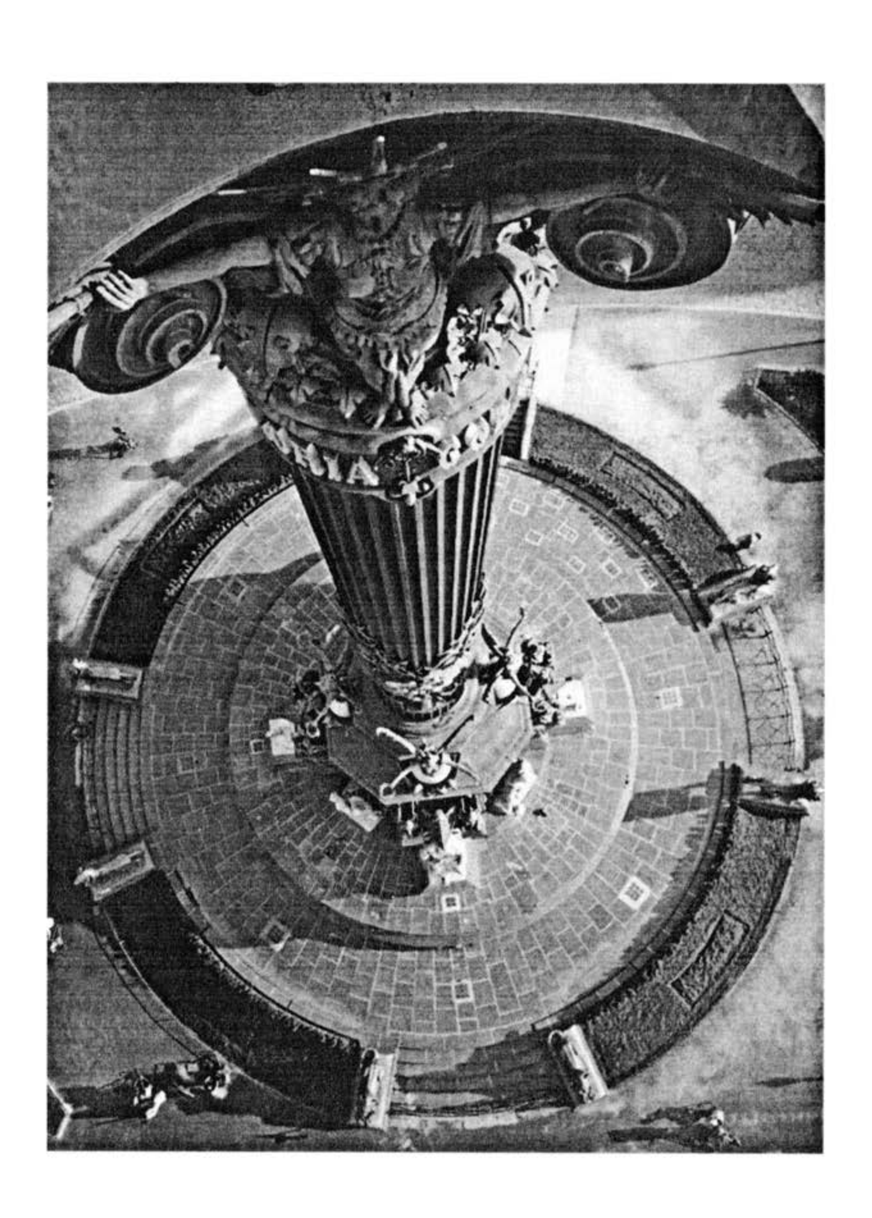
أغلق عينيه أو يكاد إذ أحسّ بامرأةٍ عجوز تحنو على جبينه بيدها، وكانت عيناها المتعبتان والحكيمتان مركَّزتَين على عينيه.

- من أين أتيتَ؟ - سألته المرأة التي حسِبها فيرمين والدته، من فرط الهذيان.

- من عالم الأموات، يا أمّاه. - غمغم قائلًا - لقد عدتُ من عالم الأموات.

الفصل الثالث

ولادةٌ جديدة



١

برشلونة، ١٩٤٠

لم تتحدّث الصحفُ عن الحادثة التي وقعت في مصنع فيلارديل القديم. إذ لم يكن من مصلحة أحد أن تُسَلِّط الأضواء على تلك القصّة. ولا يعرف ما وقع هناك إلّا مَن كان هناك، في قلب الحدث. ففي الليلة نفسها التي عاد فيها ماوريسيو ڤايس إلى القلعة، واكتشف أنّ السجين رقم ١٣ قد لاذ بالفرار، اتّصل بالمحقّق فوميرو في مباحث الأمن العام وبلّغه بوشاية أحد المحتَجزين. فطوّق فوميرو وأزلامه المكان قبل طلوع الضوء.

أمر فوميرو اثنين من رجاله بمراقبة المحيط وكثّف البقيّةَ على المدخل الرئيس، حيث بالإمكان مراقبة الكوخ، كما أشار ڤايس. كانت جثّة خايمي مونتويا، البطل سائق السيّد مدير السجن، الذي تطوَّع من تلقاء نفسه للتحقّق بمفرده من صحّة ما أفاد به أحد السجناء عن وجود بعض العناصر المتمرّدة، كانت جثّته ما تزال هناك، هامدةً بين الأنقاض. أمر فيرمين رجاله، قبل بزوغ الفجر بقليل، بمداهمة المصنع القديم. طوّقوا الكوخ، وعندما تنبّه المحتلّون لذلك - رجلان وامرأة شابّة - وقع حادث بسيط، إذ استطاعت المرأة المزوّدة

بسلاحٍ ناريّ أن تصيب ذراع أحد رجال الشرطة. لكنّ الجرح كان خدشًا طفيفًا. وبغضّ النظر عن ذلك العائق، استطاع فوميرو ورجاله إحكام قبضتهم على المتمرّدين، في غضون ثلاثين ثانية.

أمر المحقّق رجاله عندئذ أن يُدخِلوهم جميعًا إلى الكوخ، وأن يجرّوا جثّة السائق الميّت إلى الداخل أيضًا. لم يسأل فوميرو عن أسمائهم ولم يطلب وثائقهم. بل أمر بربط أيديهم وأرجلهم بحبالٍ حديديّة على الكراسي الصدئة الملقيّة في إحدى الزاويا. وحالما تمّ تكبيلهم، أشار فوميرو إلى رجاله بأن يتركوه وحيدًا وأن يتمركزوا عند باب الكوخ والمصنع، في انتظار توجيهاته. انفرد فوميرو بالمحتجزين، وأغلق الباب، وجلس قبالتهم.

- لم أنم طوال هذه الليلة، أنا متعب. أريد أن أذهب إلى بيتي. إذا أخبرتموني بمكان النقود والمجوهرات التي خبّأتموها لمصلحة سالغادو، أعدكم بأنّه لن يحدث أي شيء هنا. موافقون؟

حدّق إليه المحتجزون بمزيجٍ من الارتباك والرهبة.

- لا نعرف أيّ شيء عن هذا الموضوع، لا أموال ولا مجوهرات، ولا نعرف حتّى مَن يكون سالغادو هذا. - قال أكبرُهم سنًّا.

أومأ فوميرو باستياءٍ واضح. وأخذ يتفحّص المحتجزين واحدًا تلو الآخر، كما لو أنّه استطاع أن يقرأ أفكارهم حتّى أعياه الملل. وبعد عدّة لحظات من التردّد، اختار المرأةَ وقرَّب كرسيّه على بُعد سنتمترات قليلة منها. كانت الشابّة ترتجف.

- دعها وشأنها، يا ابن العاهرة. - انبرى الرجل الشابّ - أقسم أنّني سأقتلك، إن أنت مسستَها.

ابتسم فوميرو بما ينمّ عن التعاسة.

- لديك خطيبة جميلة جدًّا.

كان نافاس، العميل المتمركز عند باب الكوخ، يشعر بسيل عرقٍ بارد يبلّل ثيابه. وكان يتجاهل الصرخات الآتية من الداخل، وعندما توجّه إليه زملاؤه بنظرةٍ متوجّسة من بوّابة المصنع، اكتفى نافاس بهزّ رأسه.

لم يتفوّه أحد بأيّ كلمة. وقد مرّت نصف ساعة على دخول فوميرو إلى الكوخ، عندما فُتِحَ البابُ أخيرًا خلف ظهر نافاس. تنحّى جانبًا وحاد بأنظاره بعيدًا عن ثياب المحقّق الملطّخة ببقع رطبة. اتّجه فوميرو ببطء نحو المخرج، فألقى نافاس نظرةً سريعة إلى الداخل، وقاوم حاجته إلى التقيّؤ، وأغلق الباب. وبإشارةٍ من فوميرو، دنا رجلان يحملان برميلين من البنزين، قاما برشّ المحيط وجدران الكوخ. ولم يتوقّفا لرؤية المكان يشتعل بالنيران.

كان فوميرو ينتظرهما جالسًا في المقعد الأماميّ للسيّارة. غادروا المكان في صمتٍ مهيب بينما كانت أعمدة اللهب والدخان تتصاعد بين حطام المصنع القديم، مخلِّفةً خطًّا من الرماد الذي بعثرته الريح. أخفض فوميرو النافذة ومدّ كفّه المفتوحة في الهواء البارد والرطب. كان ثمّة دماءٌ بين أصابعه. وكان نافاس يقود السيّارة، وعيناه مركّزتان إلى الأمام، مع أنّهما لم تكونا تريان إلّا نظرة التوسُّل التي صوّبتها إليه المرأة الشابّة، التي كان ما تزال حيّة، قبل أن يغلق عليها الباب. أحسّ بأنّ فوميرو يرمقه، فشدّ يديه على المقود كي يخفي ارتعاشه.

كان هناك مجموعةٌ من الأطفال الفقراء على الرصيف، ينظرون

إلى السيّارة في مرورها بجانبهم. كان أحدهم يمسك بمسدّس بين أصابع يديه، فأخذ يطلق النار على سبيل التسلية. فابتسم فوميرو وردّ على تلك التحيّة بمثلها، قبل أن تضيع السيّارةُ في متاهة الطرقات المحيطة بأدغال مداخن المصانع والمستودعات. كما لو أنّها لم تلج إلى ذلك المكان من قبل.

٢

قضى فيرمين سبعة أيّامٍ يهذي في الكوخ. ما من خرقةٍ رطبة استطاعت أن تخفِّض حرارته؛ ولا مرهمٍ كان قادرًا على تهدئة المرض الذي كان ينهشه من الداخل على حدّ وصفهم. وكانت النساء، اللواتي غالبًا ما يتناوبن على العناية به وتزويده بالمقوّيات أملًا في إبقائه قيدَ الحياة، قلن إنّ جِنّيًّا تلبَّس هذا الرجل المجهول، جنّيّ الندم، وإنّ روحه تسعى إلى الفرار نحو نهاية النفق لتطمئنّ في فراغ الظلمات.

في اليوم السابع، دخل الشخص إلى الكوخ وجلس بجانب المريض. كان الجميع ينادي ذلك الشخص باسم أرماندو، وكانت سلطته على ذلك المكان أدنى من مكانة الربّ بسنتمترين فقط. تفحَّص جراح المريض، ورفع جفنيه بأصابعه، وقرأ الأسرار المكتوبة في بؤبؤ تينك العينين المطفأتين. تجمَّعت العجائز اللواتي يعتنين به في كوخٍ مجاور، ينتظرن في صمتٍ وقور. وبعد قليل، هزّ أرماندو رأسه وغادر الكوخ. تبعه شابّان، كانا ينتظرانه عند المدخل، إلى خطّ الزبد على الشطّ، حيث تتكسّر الأمواج، واستمعا إلى تعليماته بآذانٍ صاغية. رآهما أرماندو ينصرفان، فيما بقي هناك جالسًا على حطام أحد قوارب الصيّادين، الذي حطّمه الإعصار وأبقاه غائصًا بين الساحل والمطهر.

أشعل سيجارةً صغيرة ومجّ منها عند نسائم الفجر. وبينما كان يدخّن ويفكّر في ما ينبغي فعله، أخرج قطعةً من إحدى صفحات جريدة الطليعة التي ظلّت في جيبه منذ أيّام. وكان فيها خبر موجز - مدفون بين إعلانات أحزمة البطن والتعقيبات على العروض الأخيرة في مسارح الباراليلو - عن هروب أحد المساجين من سجن مونتويك. وكان النصّ مكتوبًا بذلك الأسلوب السمج عديم الذوق الذي عادةً ما يرافق الروايات المأخوذة كلمةً كلمة من المصادر الرسميّة. والاستثناء الوحيد الذي سمح المحرّر لنفسه به كان يكمن في تعليقه على الخبر، إذ أكّد أنّه لم يسبق لأحد من قبلُ أن تمكّن من الفرار من ذلك الحصن الحصين.

رفع أرماندو عينيه وحدّق إلى هضبة مونتويك الناتئة جهة الجنوب. كانت القلعة، بمظهرها المشوّش بتلك الأبراج المسنّنة في الضباب، تهيمن على برشلونة. ابتسم أرماندو بمرارة، وأحرق صفحة الجريدة بجمرة سيجارته، وراح ينظر إليها تستحيل رمادًا في الفراغ. الجرائد، كالعادة، تراوغ في تقديم حقائق الأمور كما لو أنّها تخوض مسألة حياة أو موت، وربّما كانت على حقّ. كلّ شيء، في ذلك الخبر، كانت تفوح منه رائحة أنصاف الحقيقة والتفاصيل المغيَّبة. ومن بينها مثلًا، التلميح إلى أنّ أحدًا لم يستطع الهرب من سجن مونتويك إطلاقًا. ولعلّ الأمر صحيحٌ في تلك الحالة - قال أرماندو في نفسه - لأنّه هو بعينه، الرجلُ الذي يسمّونه أرماندو، لم يكن ذا شأن إلّا في ذلك العالم المخفيّ من مدينة الفقراء والمهمّشين. هنالك أزمنةٌ وأمكنةٌ، أن تكون فيها لا أحد أشرف بكثير من أن تكون فيها أحدًا ما.

٣

كانت الأيّام تنقضي بهدوء بطيء. وكان أرماندو يعرّج إلى الكوخ مرّة في اليوم، ليطمئنّ على وضع الرجل المحتضر. بدأت حرارتُه تشير إلى التحسّن بشكلٍ طفيف، كما أنّ متاهة الضربات والصعقات والجروح - التي تغطّي جسده - بدا أنّها تُشفى ببطء بفضل المراهم. كان المحتضر يقضي جزءًا كبيرًا من يومه في النوم أو الغمغمة بكلمات مبهمة بين صحوته وغفوته.

- هل سيعيش؟ - كان أرماندو يسأل أحيانًا.

- لم يقرِّر ذلك بعد. - تجيب تلك العجوز البدينة التي شوّه الدهر أوصافها، وقد حسِبها المسكينُ أمّه.

تبلورت الأيّام في أسابيع، وسرعان ما بدا جليًّا أنّ أحدًا لن يأتي ليستعلم عن ذلك الرجل، فما من أحدٍ يطرح أسئلةً عن الشيء الذي يفضِّل تجاهله. وكان رجال الشرطة والحرس المدنيّ لا يدخلون إلى السوموروسترو بطبيعة الحال. إذ كان العرف السائد يرسّخ تلك الحقيقة بكلّ وضوح: المدينة والعالم بأسره ينتهيان عند أعتاب تلك القرية القائمة من أكواخ الصفيح؛ ومن مصلحة كلا الطرفين الحفاظ على تلك الحدود غير المرئيّة. وكان أرماندو بدوره يعلم أنّ الكثيرين من الناحية الأخرى يتوسّلون، سرًّا وعلانية، أن

يأتي يومٌ وتقتلع العاصفةُ مدينةَ الفقراء من جذورها إلى الأبد. ولكن، إلى أن يحين ذلك اليوم، يفضّل جميعُهم النظرَ إلى جهةٍ أخرى، فيشيحون أنظارهم عن البحرِ والناسِ الذين يعانون الأمرَّين في معيشتهم بين الشاطئ وغابة مصانع بويبلو نويفو. ومع ذلك، كان لدى أرماندو شكوكه. فالقصّة التي استشفّها من خلال النزيل الغريب الذي استضافوه، من الممكن جدًّا أن تحطّم ذلك العرف السائد.

بعد عدّة أسابيع، جاء عنصران مستجدّان من الشرطة ليسألا عمّا إذا كان أحدهم قد رأى رجلًا يشبه ذلك الرجل المجهول. ظلّ أرماندو مستنفرًا بضعة أيّام، لكنّه عندما لم يعد أحدٌ للبحث عنه، أدرك أنّ أحدًا لم يكن مهتمًّا في العثور على الرجل. لعلّه كان ميّتًا ولا يعرف حتّى ذلك.

وبعد مرور شهر ونصف على وصوله، بدأت جروح جسده تتماثل للشفاء. وعندما فتح عينيه وسأل أين يكون، ساعدوه على النهوض وشرب الحساء، لكنّهم لم يخبروه بأيّ شيء.

- عليك أن تستريح.

- هل أنا حيّ؟ - سأل.

لم يؤكّد له أحد ذلك. انقضت أيّامه بين النوم والتعب الذي لم يفارقه إطلاقًا. وكلّما أغمض عينيه واستسلم للإعياء، سافر نحو المكان نفسه. ففي منامه المتكرّر ليلة بعد ليلة، كان يرتقي جدران حفرة لا قرار لها تعجّ بالجثث. وكلّما وصل إلى القمّة، والتفت إلى الخلف، رأى أنّ ذلك البحر الممجوج بالأجساد الشبحيّة يتهيّج مثل دوّامةٍ من أسماك الأنقليس. عيونُ الأموات جاحظةٌ، يتسلّقون

الجدران اقتفاءً لخطاه. يسيرون خلفه عبْر الجبل، ويتغلغلون في شوارع برشلونة، يبحثون عمّا كانت بيوتًا لهم، ويطرقون أبواب أحبّتهم. ويذهب بعضهم للبحث عن قتلتهم، يطوفون أرجاء المدينة متعطّشين للثأر، لكنّ أكثرهم إنّما يرغبون في العودة إلى منازلهم، إلى أسرَّتِهم، ليعانقوا أبناءهم وزوجاتهم وعشيقاتهم بعد غيابٍ طويل. ولكن، لا أحد يفتح لهم الأبواب، لا أحد يصافحهم، لا أحد يبتغي تقبيل شفاههم. وهكذا يستيقظ المحتضر هلعًا، يتصبّب عرقًا، تحت الظلام، مُزلَزل الروح بعويل الأموات وبكائهم.

وغالبًا ما كان يأتيه مجهولٌ لزيارته. تفوح منه رائحة التبغ والكولونيا، ولم يكن لتينك المادّتين انتشارٌ واسع في تلك الآونة. كان يجلس على كرسيٍّ بجانبه، ويركّز عينيه الثاقبتين فيه. شعره أسود كالقطران، وتقاسيم وجهه قاطعة. وإذا انتبه ليقظة المريض، ابتسم في وجهه.

- هل أنت الربّ أمِ الشيطان؟ - سأله المحتضرُ ذات مرّة.

أبدى المجهول عدم اكتراثه، وراح يقيِّم السؤال.

- الاثنان معًا نوعًا ما. - أجاب في النهاية.

- أنا ملحد، من حيث المبدأ. - أعلمه المريضُ - مع أنّني في الحقيقة كلّي يقين.

- مثل كثيرٍ من الناس. استرحِ الآن يا صديقي. ففي وسع الجنّة أن تنتظر. الجحيم ضيّقٌ عليك.

٤

بين زيارةٍ وأخرى يقوم بها ذلك الرجل الغريب ذو الشعر فاحم السواد، كان المريض يهنأ بالنقاهة، ويتغذّى ويستحمّ ويرتدي ثيابًا نظيفة لا تأتي على مقاسه. وعندما بات قادرًا على الوقوف على قدميه والمشي عدّة خطوات، اصطحبوه إلى شاطئ البحر، حيث تسنّى له تغسيل قدميه وتنعَّم بدفء شمس البحر المتوسّط. وذات يوم، قضى الصباح يرنو إلى الأطفال يلعبون بالرمل، بملابسهم الرثّة ووجوههم المتسخة، ففكّر في أنّه يريد أن يعيش، ولو لفترة قصيرة. ومع مرور الوقت، بدأت الذكريات تبرز والغضب يتفتّح، فازدادت معهما الرغبة في العودة إلى المدينة والرهبة منها في الآن ذاته.

استعادت ساقاه وساعداه وبعض أعضائه الأخرى عملها بشكل طبيعيّ تقريبًا. واستردّ سروره النادر بالتبوّل في الهواء الطلق بلا حرقة أو حوادث مخزية، وقال لنفسه إنّ رجلًا يستطيع التبوّل واقفًا على قدميه ومن دون مساعدة أحد، فهو رجلٌ قادرٌ على تحمُّل مسؤوليّاته. وفي تلك الليلة نفسها، قبل بزوغ الفجر، نهض بحذر وابتعد في زنقات تلك المدينة حتّى وصل إلى الحدّ الذي ترسمه سكك القطار. كانت غابة المداخن، ورؤوس الملائكة وقمم أضرحة المقبرة، تنتأ من الجانب الآخر. وفي البعيد برشلونة، متدثّرةً بحجابٍ من الضوء

يكسو الهضاب المتاخمة. سمع خطواتٍ خلف ظهره، وعندما التفت وجد نفسه قبالة النظرة الوديعة للرجل ذي الشعر فاحم السواد.

- لقد ولدتَ من جديد. - قال.

- آمل أن تكون هذه الولادة أفضل من الأولى، فلديّ مسيرة نجاح مشرّفة خلف ظهري...

ابتسم صاحب الشعر الفاحم.

- اسمح لي بأن أقدِّم نفسي. أنا أرماندو، الغجريّ.

صافحه فيرمين.

- فيرمين روميرو دي توريس، من غجر الغاجي، لكنّني حسن السلوك نسبيًّا.

- صديقي فيرمين، بدا لي أنّك تفكّر في العودة إلى أولئك...

- العنزة تصعد نحو الجبل. - ردّ فيرمين - لقد تركتُ بعض الأمور على أنصاف حلولها.

أومأ أرماندو.

- أفهم ذلك، ولكن ليس بعد يا صديقي. - قال له - اصبر قليلًا. وابق معنا مزيدًا من الوقت.

دفعه الخوفُ ممّا كان سيلقاه عند عودته، إضافةً إلى كرم أولئك الأشخاص، إلى البقاء عندهم حتّى يوم أحدٍ، إذ استعار من أحد الفتية جريدة عثر عليها بين قمامة أحد الأكشاك على الشاطئ في ضاحية برشلونيتا. كان من الصعب تحديد كم من الوقت بقيت بين المهملات، لكنّها كانت بتاريخ ثلاثة شهور بعد ليلة فراره. قلّب صفحاتها بحثًا عن إشارة أو دلالة أو اقتباس، لكنّه لم يجد أيّ شيء. وفي عصر ذلك اليوم نفسه، عندما حسم أمره في الرجوع إلى

برشلونة ما إن هبط المساء، دنا منه أرماندو وأعلمه بأنّ أحد رجاله عرّج إلى النزل الذي كان يسكن فيه.

- فيرمين، من الأفضل ألّا تعود إلى هناك لتستردّ أغراضك.

- كيف استطعتَ أن تعرف مكان سكني؟

ابتسم أرماندو، متجاهلًا السؤال.

- قالت الشرطة إنّك قد متّ. لقد ظهر مقالٌ في الجرائد يتحدّث عن وفاتك قبل عدّة أسابيع. لم أشأ أن أخبرك بالأمر، لأنّني أفهم أنّ قراءة المرء لخبر وفاته، لاسيّما أثناء تماثله للشفاء، لا يساعده البتّة.

- وما الذي أماتني؟

- وفاة طبيعيّة. سقطتَ في هاوية سحيقة بينما كنتَ تحاول الهرب من قبضة العدالة.

- هل هذا يعني أنّني ميّت؟

- مثل رقصة البولكا.

قدَّر فيرمين عواقب حالته الاجتماعيّة الجديدة.

- وماذا أفعل الآن؟ إلى أين أذهب؟ لا يمكنني البقاء هنا إلى الأبد، متواكلًا على سخائكم، لئلا أورّطكم في المصاعب.

جلس أرماندو إلى جانبه، وأشعل إحدى تلك السجائر التي تتبرَّم تلقائيًّا وتفوح منها رائحة الكينا.

- فيرمين، بإمكانك أن تفعل ما يحلو لك، لأنّك لست موجودًا. بوسعي أن أستبقيك بيننا، لأنّك صرتَ واحدًا منّا، نحن الذين لا وجوه ولا أسماء لنا في أيّ مكان. نحن أشباح. خفيّون. لكنّني أعرف أنّك مضطرّ للعودة، كي تحلّ ما تركتَه معلّقًا. ومع الأسف، ما إن تغادر هذا المكان، لن يكون في مقدوري أن أقدّم لك الحماية.

- لقد قدّمتَ لي ما فيه الكفاية.

ربّت أرماندو على كتفه، وأعطاه بطاقة مطويّة كانت في جيبه.

- ابتعد عن المدينة بعض الوقت. دع عامًا يمرّ، ثمّ ابدأ من هذا العنوان حين تعود. - قال له وهو ينهض.

فتح فيرمين البطاقة وقرأ ما فيها:

فرناندو بريانس

محامٍ

شارع دي كاسبي، ١٢

الطابق الأعلى

برشلونة. هاتف ٥٦٤٣٧٥

- كيف لي أن أجازيكم على كلّ ما فعلتموه من أجلي؟

- حالما تنهي أمورك، تعال إلى هنا واسأل عنّي. سنذهب معًا لمشاهدة وصلة للراقصة كارمن أمايا، ثمّ تقصّ عليّ كيف استطعت الفرار من الأعلى هناك. إنّني متشوّق لمعرفة ذلك. - قال أرماندو.

نظر فيرمين إلى تينك العينين وهزّ رأسه ببطء.

- في أيّ زنزانة كنتَ يا أرماندو؟

- في الزنزانة رقم ١٣.

- هل أنت مَن رسم الصلبان على الجدران؟

- أنا أختلف عنك يا فيرمين. أنا مؤمن ولكن لم يعد لديّ يقين.

لم يمنعه أحد من المغادرة في ذلك المساء ولم يودّعه أحد. انطلق، كواحدٍ من بين كثيرٍ من الخفيّين أمثاله، نحو شوارع برشلونة

التي كانت تنبعث منها روائح الكهرباء. رأى في البعيد أبراج الساغرادا فاميليا تغوص في معطفٍ من الغيوم القرمزيّة التي تتوعّد بإعصارٍ توراتيّ، وتابع مسيره. ساقته خطواتُه باتجاه محطّة الحافلات في شارع ترافالغار. ووجد بعض النقود في جيوب المعطف الذي أهداه إليه أرماندو. اشترى بطاقةً للرحيل إلى أبعد ما استطاع، وقضى الليلة في الحافلة التي تجوب طرقاتٍ مقفرةً تحت المطر. وفعل الشيء ذاته في اليوم التالي، ثمّ قضى أيّامًا على متن القطارات، وسار على قدميه أحيانًا ثمّ استقلّ حافلة منتصف الليل، إلى أن بلغ مكانًا حيث الشوارع بلا اسم والبيوت بلا أرقام، حيث لا شيء ولا أحد كان سيتذكّره.

احترف مئة مهنة وما من صديق. تقاضى نقودًا وأنفقها. قرأ كتبًا تتحدّث عن عالمٍ لم يعد يؤمن به. بدأ يكتب رسائلَ لم يعرف كيف ينهيها. عاش يقارع الذكريات والندم. وأكثر من مرّة دفع بنفسه على أحد الجسور، أو على حافة منحدرٍ، وراح يتمعّن بالهاوية بكلّ ارتياح. وفي اللحظة الأخيرة، كان يعاوده ذلك الوعدُ، ونظراتُ سجين السماء. وبعد عام، ترك الغرفة التي استأجرها فوق إحدى الحانات، وأخذ حقيبة ليس فيها سوى نسخة واحدة من «مدينة الملاعين» التي عثر عليها في إحدى الأسواق الصغيرة، ومن الوارد أنّها النسخة الوحيدة من كُتُب مارتين التي نجت من الحرق، وقد قرأها فيرمين اثنتي عشرة مرّة. مشى مسافة كيلومترين حتّى محطّة السكك الحديديّة، حيث اشترى التذكرة التي كانت ينتظرها طوال كلّ الشهور المنصرمة.

- تذكرة إلى برشلونة، من فضلك.

سحب بائع التذاكر واحدةً وأعطاها له بنظرة احتقار.

- أهنّئك على رغبتك هذه... - قال - في الذهاب إلى أولئك الكتالونيّين الخرائيّين.

٥

برشلونة، ١٩٤١

كان الظلام يهبط عندما نزل فيرمين من القطار في محطة فرنسا. نفث القطار غيمةً من بخارٍ ودخانٍ طغت على الرصيف وحجبت خطوات المسافرين الذين ترجّلوا بعد رحلة طويلة. انضمّ فيرمين إلى تلك المشية الصامتة نحو المخرج، بين أناسٍ مسربلين في ثيابٍ بالية يجرّون حقائبهم المغلقة بالأحزمة، شيوخٍ هرموا قبل الأوان يحملون كلّ ما يملكون في صرر، وأطفالٍ فارغةٌ نظراتُهم وجيوبُهم.

ثمّة فرقة من عناصر الحرس المدنيّ يراقبون المدخل إلى السكك، رأى فيرمين إلى أعينهم التي تتحرّى المارّة، وإذ أوقفوا أحدهم طلبوا منه إبراز وثائقه. تابع فيرمين مسيره على خطٍّ مستقيم نحو واحد منهم. وعندما فصل بينه وبينهم أقلّ من عشرة أمتار، لاحظ فيرمين أنّ أحد العناصر يتفحّصه. في رواية مارتين التي رافقتْ فيرمين في سفره، تؤكّد إحدى الشخصيّات أنّ الطريقة الأفضل لتجريد السلطاتِ سلاحَها تكمن في مواجهتها قبل أن يحدث العكس. وهكذا، قبل أن يتسنّى للعنصر إيقافه، سار فيرمين باتّجاهه مباشرة وتكلّم إليه بصوتٍ وديع.

- مساء الخير يا سيّد. هلّا أعلمتني أين أجد فندق بروفينير من فضلك؟ يبدو لي أنّه في ساحة بالاسيو، لكنّني لا أعرف المدينة جيّدًا.

عاينه العنصر بصمت، وقد بانت عليه المباغتة. فاقترب منه زميله ليحمي جانبه الأيسر.

- عليك أن تطرح السؤال عند المخرج. - قال بنبرة ودّيّة نوعًا ما.

فأومأ فيرمين باحترام.

- المعذرة على الإزعاج. سأفعل كذلك.

وما لبث يتابع سيره نحو بهو المحطة حتّى استوقفه العنصر الآخر من ذراعه.

- لتخرج إلى ساحة بالاسيو من الجهة اليسرى. قبالة الحكومة المدنيّة.

- شكرًا جزيلًا. طاب مساؤكم.

تركه العنصر يمضي في شأنه، فابتعد فيرمين ببطء، وهو يقيس خطواته إلى أن وصل إلى البهو، ومنه إلى الشارع.

كانت السماء القرمزيّة تكسو برشلونة السوداء والمنسوجة بأجساد قاتمة ورفيعة. وكان الترام شبه المقفر يزحف وهو يلقي ضوءًا ذاويًا على البلاط. انتظر فيرمين مروره وقطع الشارع. وبينما كان يحاول تجنُّب السكك اللامعة، حدَّق إلى المنظر الذي يعرض جادّة كولون وفي خلفيّتها تبرز هضبة مونتويك والقلعة تهيمن على المدينة. أخفض نظره ودخل في شارع كوميرسيو باتجاه سوق البورني. كانت الطرقات

خاوية فيما تهبّ نسمات باردة من بين الأزقّة، ولم يكن يدري إلى أين يذهب.

تذكّر أنّ مارتين قال له إنّه سكن هناك في الجوار قبل أعوام، في مبنًى قديمٍ مرصَّعٍ في وادٍ ضيّقٍ من ظلال شارع فلاساديرس، بجانب مصنع ماوري للشوكولاتة. سار في ذلك الاتّجاه، لكنّه حينما وصل اكتشف أنّ المبنى والممتلكات الملاصقة له تعرّضت للقصف والدمار إبّان الحرب. ولم تكلّف السلطات نفسها لإزالة الأنقاض، فما كان من سكّان الحيّ إلّا أن أزاحوا بقايا الحطام وكدّسوها بحيث يستطيعون المرور بلا عراقيل، إذ كان الشارع أكثر ضيقًا من ممرٍّ في أحد منازل المنطقة النبيلة.

نظر فيرمين حوله. كان من الصعب التعويل على وميض النور الخافت لأضواء الشرفات وشموعها. تقدّم متملصًا من بين الركام والميازيب المحطّمة والدعائم المتشابكة، وانكمش في ظلّ صخرة ما زال الرقم ١٧ واضحًا عليها، وهو عنوان الإقامة القديم لدافيد مارتين. طوى معطفه والجرائد القديمة التي كانت تحت ثيابه، وأغمض عينيه وتقوقع على نفسه وحاول أن يغفو.

ولم تنقضِ نصف ساعة حتّى تغلغل البرد في عظامه. حُمِّلَت الرياحُ برطوبةٍ قصوى وأخذت تكتسح الحطام بحثًا عن تصدُّعاتٍ ومنافذ. فتح فيرمين عينيه ونهض، وبينما كان يبحث عن زاوية يتّقي فيها ذلك البرد فإذا هو يلاحظ طيفًا يحدّق إليه من الطريق. فظلّ متسمّرًا في مكانه. تقدّم الطيف نحوه بضع خطوات.

- من هناك؟ - سأل الطيفُ.

اقترب أكثر حتّى رسمت أصداءُ مصباحٍ بعيدٍ جانبًا من وجهه.

كان رجلًا طويل القامة ومكتنز البدن، متّشحًا بالسواد. تفطّن فيرمين إلى ياقة العنق. إنّه قسّ. فرفع يديه إشارةً إلى السلام.

- سأنصرف على الفور يا أبانا. لا تتّصل بالشرطة، أرجوك.

نظر إليه القسُّ من أعلاه إلى أدناه. كانت نظرته صارمة، كما أنّ هيئته تعطي انطباعًا بأنّه قضى نصف عمره يرفع الصناديق عند المرفأ بدلًا من الكؤوس.

- هل أنت جائع؟ - سأل.

لو سكب أحدٌ ما ثلاث قطرات من زيت الزيتون على تلك الحجارة، لكان فيرمين سيلتهمها بكلّ سرور. لكنّه هزّ رأسه نافيًا.

- لقد أنهيتُ عشائي توًّا في لاس سيبتي بويرتاس، وقد ابتلعتُ ما طاب لي من الرزّ بالصلصة السوداء. - قال.

ارتسمت ابتسامة على وجه القسّ. استدار ومشى.

- تعال معي. - أمره.

٦

كان باليرا يسكن في الطابق الأخير من بنايةٍ في آخر شارع البورني، وبيته يطلّ على سطوح السوق مباشرةً. تحمَّس فيرمين في تجرُّع ثلاثة أقداح من حساء الخضار، كما ابتلع كلّ الخبز والنبيذ الممزوج بالماء الذي وضعه القسّ أمامه بينما كان يعاينه بفضول.

- ألا تتعشّى يا أبانا؟

- لا أتعشّى بالعادة. كلْ أنت، إذ تبدو لي أنّك تتضوّر جوعًا منذ العام ١٩٣٦.

وبينما كان يزدرد الحساء مصوِّتًا، ويمضغ لقم الخبز، كان ينظر حوله في صالة الطعام. ثمّة خزانة زجاجيّة إلى جانبه، فيها مجموعة من الكؤوس والأطباق، وتشكيلة متنوّعة من القدّيسين، إضافةً إلى ما بدت أنّها عُدّة طعام فضيّة متواضعة.

- أنا أيضًا قرأتُ «البؤساء»، لذا لا تفكِّر في الأمر حتّى. - حذّره القسّ.

هزّ فيرمين رأسه متأسّفًا.

- ما اسم حضرتك؟

- فيرمين روميرو دي توريس، في خدمة جلالتك.

- هل أنت مطلوب يا فيرمين؟

- حَسَب الموضوع. إنّها مسألة معقّدة.

- مسألةٌ لا تخصّني. لا تحدّثني عنها إن أردت. لكنّك لن تستطيع التجوّل في الخارج بمثل هذه الثياب. ستنتهي في السجن قبل أن تصل إلى شارع لايتانا. ما زالوا يوقِفون كثيرًا من الأشخاص الذين تواروا عن الأنظار منذ زمن. ينبغي توخّي الحذر جيّدًا.

- حالما أحدِّد موقع مواردي المصرفيّة التي تركتُها في حالة سبات، سأعرّج إلى ديكه فلوتانتي، وأخرج منه متأنّقًا بملابس أمير.

- سنرى. قم وانهض.

ترك فيرمين الملعقة ونهض على قدميه. فتفحّصه القسّ بعناية.

- كان رامون أضخم منك بمرّتين، لكنّي أعتقد أن أحد ثيابه عندما كان شابًا قد يناسب مقاسك.

- رامون؟

- شقيقي. لقد قتلوه في الطريق، عند مدخل هذه البناية، في مايو ١٩٣٨. كانوا يبحثون عنّي، لكنّه واجههم. كان موسيقيًّا. يعزف في فرقة البلديّة على البوق الأوّل.

- يؤسفني جدًّا يا أبانا.

أعرب القسّ عن استيعابه.

- ما من أحد إلّا وفقد عزيزًا، بنسب متفاوتة، من كلّ الأطراف.

- أنا لا أنتمي إلى أيّ طرف. - ردّ فيرمين - وأكثر من ذلك: الرايات تبدو لي خِرَقًا ملوّنة تفوح منها رائحة العفونة. ولكي أصاب بالإسهال، يكفيني أن أرى أحدهم يلفّ نفسه بها ليملأ فمه بالأناشيد والشعارات والخطابات. لطالما فكّرتُ في أنّ الذي يودّ الانتساب إلى قطيع ما، لا بدّ أنّه يتّسم بإحدى صفات الخروف.

- لا بدّ أنّ حياتك صعبة جدًّا في هذا البلد.

- لا يمكنك أن تتخيّل إلى أيّ حدّ. لكنّي أقول لنفسي دائمًا إنّ التوجّه مباشرةً إلى الخنزير الجبليّ المجفّف يعوّض كلّ شيء. ثمّ إنّ العالم بأسره قرية صغيرة.

- هذا صحيح. قل لي يا فيرمين. منذ متى لم تتذوّق الخنزير الجبليّ المجفّف؟

- ٦ مارس ١٩٣٤. لوس كاراكوليس، شارع إسكوديرس. في حياةٍ أخرى.

ابتسم القسّ.

- بإمكانك أن تبيت هنا الليلة يا فيرمين. لكنّك ستبحث عن مأمن آخر في الغد. فالناس يثرثرون. بوسعي أن أمدّك ببعض النقود لتستأجر غرفة في النزل، ولكنْ اعلمْ بأنّهم جميعًا يطلبون الوثائق، ويدوِّنون أسماء النزلاء في سجلّ المخفر.

- لا داعي حتّى لتذكيري بذلك يا أبانا. غدًا، وقبل طلوع الضوء، سأختفي بسرعةٍ تضاهي اختفاء الإرادة الحسنة. لكنّني لن أقبل قرشًا واحدًا، فلقد أفرطتُ بما فيه الكفاية...

رفع القسّ كفّه وهزّ رأسه.

- فلنذهب لرؤية مقاس ثياب رامون عليك. - قال وهو ينهض عن الطاولة.

أصرّ الأب باليرا على أن يُظهِر لفيرمين حذاءً ذا وضعٍ جيّد، ولباسًا صوفيًّا متواضعًا لكنّه نظيف، وزوجين من الثياب الداخليّة وبعض أغراض الطهارة الجسديّة، وأعطاها له في حقيبة. كان على أحد الرفوف بوقٌ لامع وصورٌ مختلفة لرجلين شابّين أثناء ما بدا أنّه

عيد الشكر. وكان من الصعب معرفة أنّ أحدهما هو الأب باليرا، الذي بدا آنذاك أكبر ثلاثين عامًا ممّا عليه في الصورة.

- ليست لديّ مياه دافئة. لن يملأوا الخزّان قبل الغد. لذا عليك إمّا أن تنتظر، أو أن تستعمل ذلك السطل.

وبينما كان فيرمين يتحمّم على قدر المستطاع، حضّر الأب باليرا مشروبًا من نبتة تشبه الهندباء في آلة القهوة، وقد مزجها بمستخلصاتٍ تولِّد انطباعًا مريبًا بعض الشيء. لا وجود للسكّر، لكنّ فنجان الماء المكدرة ذاك كان دافئًا، والصحبة ممتعةً.

- يُخيَّل إليّ أنّني في كولومبيا، أتذوّق خلاصة الحبوب المنتقاة.

- قال فيرمين.

- أنت رجل استثنائيّ يا فيرمين. هل لي أن أطرح عليك سؤالًا شخصيًّا؟

- هل يشملني سرّ الاعتراف؟

- فلنقل كذلك.

- أطلِقْ إذن.

- هل قتلتَ أحدًا؟ في الحرب، أقصد.

- لا. - أجاب فيرمين.

- أنا، بلى.

تجمَّد فيرمين والفنجان نصف ممتلئ. أخفض القسّ أنظاره.

- لم أبح بذلك لأيّ أحد.

- حضرتك مشمول بسرّ الاعتراف. - أكّد فيرمين.

فرك القسّ عينيه وتنهَّد. فتساءل فيرمين منذ متى كان هذا الرجل بمفرده هناك، لا رفيق له سوى ذلك السرّ وذكرى شقيقه المقتول.

- لا شكّ أنّ هنالك أسبابًا دفعتْكَ لذلك، يا أبانا.

هزّ القسّ رأسه.

- لقد هجر الربُّ هذا البلد. - قال.

- كن مطمئنًّا. فما إن يرى الأحوال في شمال جبال البيريني، سيعود وذيله بين ساقيه.

ظلّ القسّ صموتًا لوقت طويل. شربا بديل القهوة ذاك، وعمد فيرمين إلى أن يصبّ لنفسه فنجانًا آخر، لعلّه ينشّط الرجلَ المسكين الذي كان يزداد اكتئابًا كلّما مرّت الدقائق.

- هل يعجبك حقًّا؟

أومأ فيرمين بنعم.

- هل تريد أن أسمع منك اعترافًا؟ - سأل القسّ فجأةً - هذه المرّة بلا مزاح.

- أرجو ألّا تنزعج يا أبانا، فأنا لا أؤمن كثيرًا بهذه الأشياء...

- ولكن ربّما كان الربّ يؤمن بك.

- أشكّ في ذلك.

- ما من داعٍ للإيمان بالربّ كي يندفع المرء إلى الاعتراف. إنّه أمرٌ بينك وبين ضميرك. فما الذي لديك لتخسره؟

وعلى امتداد ساعتين، قصّ فيرمين على مسمع الأب باليرا كلّ شيء كان قد سكت عنه منذ هروبه من القلعة، قبل أكثر من عام. وكان الأب آذانًا صاغية، يهزّ برأسه من حين إلى حين. وفي النهاية، عندما شعر فيرمين بالخلاص، وبأنّه أزاح عبئًا لا يطاق كان يخنقه منذ شهور من دون حتّى أن ينتبه لذلك، أخرج الأب باليرا من أحد الأدراج قنّينة مشروبٍ روحيّ، وسكب لفيرمين، من دون استئذانه، ما تبقّى لديه من المخزون.

- ألا تمنحني الغفران يا أبانا؟ رشفة كونياك فقط؟

- لا فرق. ثمّ مَن أنا كي أسامح أحدًا أو أحكم عليه؟ لكنّي أعتقد أنّ التفريغ يبعث على الارتياح. ما الذي تفكّر في فعله الآن؟

عبّر فيرمين عن لامبالاته.

- إن كنتُ قد عدتُ، لأخاطر برأسي، فذلك لصون الوعد الذي قطعتُه لمارتين. سأبحث عن ذلك المحامي، ثمّ عن السيّدة إيزابيلا وطفلها، دانيال، لأحميهما.

- كيف؟

- لا أدري. ستخطر فكرة في بالي. أتقبَّل الاقتراحات.

- لكنّك حتّى لا تعرفهما. إنّهما مجرّد غريبَين حدّثك عنهما رجلٌ عرفتَه في السجن...

- أعرف. يبدو جنونًا والحال هذه. أليس كذلك؟

نظر إليه القسّ كما لو أنّه قادرٌ على الرؤية من خلال الكلمات.

- أليس لأنّك شهدتَ على كثيرٍ من الأسى والبلاء ينزلان بالناس، إذ أردتَ أن تقوم بفعل الخير، حتّى لو كان أشبه بالجنون؟

- ولم لا؟

ابتسم باليرا.

- كنت متيقّنًا من أنّ الربَّ يؤمن بك.

٧

خرج فيرمين في اليوم التالي على رؤوس أصابعه، كي لا يوقظ الأب باليرا الذي كان نائمًا على الأريكة، وديوان الشاعر ماشادو بين يديه، يشخر مثل ثيران المصارعة. طبع على جبينه قبلة قبل خروجه، وترك على طاولة الطعام النقود التي لفّها القسّ في منديلٍ دسّه في الحقيبة. هبط السلالم بثيابٍ وضميرٍ نظيفين، مُصِرًّا على البقاء حيًّا، عدّة أيّامٍ على الأقلّ.

كان الطقس مشمسًا في ذلك الصباح، والنسائم النقيّة الآتية من البحر تنبسط على سماءٍ متألّقة ومصقولة مثل الفولاذ الذي يرسم ظلالًا طولانيّةً لمرور الناس. كرّس فيرمين تلك الأصبوحة للتجوال في الطرق التي كان يعرفها، والتوقّف أمام واجهات المحلات، والجلوس على المقاعد يرنو إلى الفتيات الجميلات، أيْ كلّ الفتيات. وفي منتصف النهار، ذهب إلى مطعم شعبيّ عند أعتاب شارع إسكوديرس، قرب مطعم لوس كاراكوليس ذي الذاكرة العطرة. وكان المطعم الشعبيّ ذاك سيّئ الصيت لأنّه يقدّم الشطائر بسعر معقول منقطع النظير في برشلونة قاطبةً، فضلًا عن بقيّة الأطعمة الفاتحة للشهيّة والخالية من أيّ تكلُّف. تكمن الحيلة في عدم السؤال عن المكوّنات، على حدّ قول الخبراء.

بملابسه الأكابريّة الجديدة، مدرّعًا بعدّة نسخ من جريدة الطليعة المطويّة تحت الثياب اكتسابًا للهيبة، وبتلميحاتٍ رخيصةٍ لعضلاته وحميِّته، جلس فيرمين إلى المصطبة. وبعد أن تمعّن في لائحة المأكولات الشهيّة التي تناسب جيوب المتواضعين وبطونهم، افتتح المفاوضات مع النادل.

- سؤالٌ أيّها الشابّ. بخصوص طبق اليوم، المكوّن من المرتديلا وشرائح لحم الكورنيا المقدّدة مع الخبز البلديّ؛ هل الخبز بالطماطم الطازجة؟

- لقد قطفناها للتوّ من بساتيننا في إل برات، خلف مصنع الحمض الكبريتيّ.

- باقةٌ رفيعة المستوى. قل لي إذن أيّها الرجل الطيّب: هل يتمّ التعامل بالثقة هنا؟

أبدى النادل تعبيرًا ممازحًا، وانثنى خلف المصطبة وهو يرمي الخرقة على كتفه بطريقة عدائيّة.

- ولا حتّى مع الربّ.

- ألا يوجد استثناءات للشرفاء المتضرّرين من الحرب.

- هل تنصرف من هنا أم نتّصل بالشرطة المدنيّة؟

وفقًا للمنحى الذي سلكته المحادثة، انسحب فيرمين بحثًا عن ركن منعزل وهادئ ليعيد صياغة استراتيجيّته. وبينما كان يرتّب لنفسه مربّعًا تحت سلّم إحدى البوّابات، حتّى مرّ بجانبه طيف فتاة، لم تكن لتتجاوز السبعة عشر عامًا، رغم مياسة قدّها كالراقصات، وتهاوت على الأرض فجأةً.

وثب فيرمين ليساعدها. وما إن أمسك بذراعها حتّى أحسّ

بخطواتٍ تدنو من خلف ظهره وسمع صوتًا يجعل من صوت النادل الفظّ الذي طرده منذ قليل أقرب إلى همس الملائكة.

- انظري أيّتها القحبة الخرائيّة، إيّاكِ أن تسوّل لكِ نفسك التلاعب معي بعد الآن، وإلا هشّمتُ وجهكِ وتركتُكِ جثّةً على قارعة الطريق، أيّتها العاهرة الكبيرة.

كان صاحبُ ذلك الخطاب قوّادًا، جلده زيتيّ اللون، عديم الذوق في ما يخصّ مجوهراته الزائفة. وبصرف النظر عن أنّ المذكور أعلاه كان يعادل حجم فيرمين مرّتين، وأنّه كان يحمل بين يديه ما يثبت أنّه أداة باترة، أو مدبّبة على الأقلّ، فإنّ فيرمين وقف متوسّطًا بين الفتاة والرجل، وهو الذي بات يضيق ذرعًا بالقوّادين والمنحرفين.

- ومن أنت أيّها البغل المعتوه؟ هيّا، اختفِ من هنا قبل أن أحطّم وجهك.

شعر فيرمين بأنّ الفتاة - التي تتضوّع بمزيجٍ غريب من القرفة والمقالي - كانت تتشبّث بذراعه. فاكتفى بإلقاء نظرة بسيطة على ذلك المنحرف، ليستنتج أنّ الوضع لن يُحَلّ عن طريق الحوار، لذا حسم أمره وقرّر أن ينتقل إلى الفعل. وإذ قام بتحليلٍ خاطف ونهائيٍّ لخصمه، أدرك أنّ كتلته الجسديّة تتمثّل غالبيّتها العظمى من الدهون، أمّا العضلات، أو المادّة الرماديّة، فليست كبيرة على الإطلاق.

- لا يجدر بحضرتك أن تتوّجه إليّ بهذا الأسلوب، ولا حتّى إلى الآنسة.

نظر إليه القوّاد مشدوهًا، من دون إبداء أيّ دليل على أنّه سمع تلك الكلمات. ولم تكد تمرّ ثانية، حتّى وجد نفسه يتلقّى ضربةً فتّاكة ومباغتة من تلك البعوضة التي توقّع منها كلّ شيء عدا أن تبادر إلى

القتال. سدّد فيرمين تلك الضربة بحقيبته ذات الزوايا الفولاذيّة على أعضاء الرجل الرخوة، فتهافت على الأرض يحمي خصيتيه بيديه، ليتلقّى أربع ضربات متتالية على تلك الأماكن الحسّاسة، فالخامسة، حتّى خارت قواه وانهارت عزيمته.

كان هنالك ثلّة من المارّة، توقّفوا ليشاهدوا العراك، وأخذوا يصفّقون، وعندما التفت فيرمين ليتحقّق من أنّ الفتاة بخير، وجد نفسه قبالة نظراتها المحقونة بالانتشاء والامتنان والعذوبة.

- فيرمين روميرو دي توريس، في خدمتكِ يا آنسة.

وقفت الفتاة على رؤوس أصابع قدميها وقبّلت خدّه.

- أنا روسيتو.

وكان الغوريلا خلفهما يحاول النهوض ثانية مستردًّا أنفاسه. وقبل أن يعود توازن القوى إلى وضعٍ غير مرغوب فيه، قرّر فيرمين أن يأخذ مسافةً عن مشهد الشجار.

- ينبغي أن نغادر بعجالة. - صرّح - فإذا فُقِدت المبادرة، صعبت الحربُ...

ساقته روسيتو من ذراعه واقتادته نحو شبكةٍ من الأزقّة الضيّقة المؤدّية إلى بلاسا ريال/ الساحة الملكيّة. وعندما وصلا إلى الشمس والهواء الطلق، توقّف فيرمين لحظةً ليلتقط أنفاسه. لاحظت روسيتو أنّ وجهه يصفرّ بين الفينة والأخرى، وأنّه لم يكن يتمتّع بحسن المظهر. واستشعرت أنّ عواطف اللقاء، أو الجوع، سبّبت هبوطَ ضغطٍ لبطلها الشجاع، فرافقته إلى شرفة نزل دوس موندوس، حيث استرخى فيرمين على أحد الكراسي.

على الرغم من أنّ روسيتو كانت في سنّ السابعة عشرة تقريبًا، فإنّها كانت تمتاز بعينٍ تحليليّة قد يحسدها عليها أمهر الأطبّاء،

كالطبيب ترويتا. طلبت لفيرمين تشكيلة من المقبّلات تعيد له قواه. فاستنفر الأخير حينما رأى خيرات اللّه تصل إلى الطاولة.

- روسيتو، ليس في جيبي أيّ فلس...

- هذه على حسابي. - قاطعته بعزّة نفس - فأنا التي تحرص على رجلها ولا أجعله يُحرَم من أيّ شيء.

أخذت روسيتو تحشوه بقطع اللحم المجفّف والخبز والبطاطس المقليّة، وترويه برشفات كبرى من البيرة. استعاد فيرمين ألقه شيئًا فشيئًا، واستردّ لونه الحيويّ تحت عيني روسيتو الراضيتين.

- سأحضّر لك حلوّى خاصّة من صنع المنزل، ستدهشك لذّتُها.

- تطوّعت الفتاة ومرّرت لسانها على شفتيها.

- ولكن، ألا يجدر بكِ أيّتها الصغيرة أن تكوني في المدرسة في هذه الساعة، مع الأخوات؟

أضحكتِ النكتةُ روسيتو.

- يا لك من ماكر... أيُّ لسانٍ سليطٍ يمتلك هذا الفتى...

كلّما تقدّم فيرمين في المأدبة، أدرك أنّه لو تعلّق بروسيتو كانت ستنفتح أمامه آفاقٌ واعدة من النجاح في العمل قوّادًا. غير أنّ مسائل أخرى، ذات أهمّيةٍ كبرى، كانت تستدعي انتباهه.

- كم عمركِ يا روسيتو؟

- ثمانية عشر عامًا ونصف، يا سيّد فيرمين الصغير.

- تبدين أكبر من ذلك.

- هذا بسبب الواجهة المتقدّمة. لقد نَهَدَ صدري باكرًا في سنّ الثالثة عشرة. وإنّ رؤيته تبعث على السرور، علمًا بأنّه لستُ أنا مَن عليها الإشادة بذلك.

حاول فيرمين أن يستعيد صواب السلوك، وهو الذي لم يكن قد رأى ثنايا فاتنةً كتلك منذ أيّامه الخوالي في الهافانا.

- روسيتو. - بادر - أنا لا أستطيع أن أعتني بك...

- أعلم يا سيّد، لا تعاملني على أنّي غبيّة. أعلم أنّ حضرتك لستَ من نوع الرجال الذين يعيشون متواكلين على امرأة. لعلّي ما أزال صغيرة، لكنّني تعلّمتُ كيف أكتشف كنه الرجال من مسافة بعيدة...

- عليكِ أن تعطيني عنوانًا أحوّل إليه ثمن هذه المأدبة، فلقد صادفتِني الآن في لحظة اقتصاديّة حرجة...

هزّت روسيتو رأسها.

- لديّ غرفة هنا، في هذا النزل، أتقاسمها مع لالي، لكنّها تقضي أغلب النهار في الخارج، لأنّها موفدة إلى السفن التجاريّة... لم لا يصعد السيّد الوسيم، كي أكافئه بجلسة تدليك؟

- روسيتو...

- هديّة من المنزل...

كان فيرمين يحدّق إليها بنظرة تشوبها التعاسة.

- لديك عينان حزينتان، يا سيّد فيرمين الصغير. دع المهمّة لروسيتو كي تبثّ البهجة في حياتك، ولو قليلًا. ما الضير في هذا؟

أخفض فيرمين عينيه، ملء نفسه خجلٌ.

- منذ متى لم يعاشر السيّد امرأة كما يشاء الربّ؟

- لم أعد أذكر حتّى.

مدّت روسيتو يدها إليه، وإذ جذبتْه إليها جرّته معها على السلالم إلى غرفة صغيرة لا تحتوي على أكثر من سرير صغير ومغسلة. كانت

للغرفة شرفة صغيرة تطلّ على الساحة. أسدلت روسيتو الستارة ونزعت عنها ثوبها المزدان بالأزهار في غضون ثانية، ولم يكن تحته أيّ شيء يخفي جلدها العاري. تمعّن فيرمين في معجزة الطبيعة تلك وأسلم نفسه لأحضان قلبها الذي كان هرمًا مثل قلبه أو يكاد.

- لسنا مضطرين لفعل شيء، إذا كان هذا ما يريده السيّد الصغير. ها؟

جعلته روسيتو يستلقي على السرير واضطجعت بجانبه. وعانقته وداعبت رأسه.

- ششششش، ششششش. - كانت تهمس.

فما كان من فيرمين، الذي هام بوجهه في صدرٍ لا يتجاوز الثمانية عشر ربيعًا، إلّا وأجهش بالبكاء.

في المساء، عندما توجّب على روسيتو الشروع في مناوبتها، أخرج فيرمين القطعة الورقيّة التي تحتوي على عنوان المحامي بريانس، تلك التي أعطاها له أرماندو قبل عام، وقرّر الذهاب للقائه. ألحّت روسيتو أن تسلِّفه بضعة قروش ليستقلّ الترام أو ليشرب فنجان قهوة، وحلَّفتْه سواء على الصدق أو الكذب بأن يعود لزيارتها، ليصطحبها إلى السينما على الأقلّ، أو إلى صلاة الأحد، لأنّها كانت مؤمنة مخلصة لعذراء الكارمن، وكانت تحبّ الاحتفالات الدينيّة، لاسيّما عندما يبتهلون فيها. رافقته إلى الأسفل حتّى البوّابة وعندما ودّعها رسمتْ على شفتيه قبلةً وعلى قفاه قرصة.

- يا أشهى من الشوكولاتة. - قالت له بينما كانت تراه يمشي تحت أقواس الساحة.

وحين قطع فيرمين ساحة كاتالونيا، احتشدت عقدةٌ من السحب

المشحونة في السماء. وراحت أسراب الحمام - التي عادةً ما تحلّق فوق الساحة - راحت تبحث عن ملاذ بين الأشجار، وترقّبتْ هناك.

تنبَّه الناس إلى وميض الكهرباء في الجوّ، فأسرعوا الخطى نحو مداخل المترو. حتّى إذا هبّت رياحٌ مزعجةٌ، جرجرتْ معها أمواجًا من أوراق الشجر المتيبّسة. عجّل فيرمين، وحين وصل إلى شارع كاسبي، كان الطوفان قد بدأ للتوّ.

٨

كان المحامي بريانس رجلًا شابًّا، تشوبه ملامحُ بوهيميّةٌ تفشي دلائلَ عن تغذيته القائمة على القهوة والمأكولات الجاهزة. وبالفعل كان مكتبه يتضوّع بتلك الروائح: مأكولات جاهزة، قهوة، وأوراق مغبرّة. كان يعمل في غرفة صغيرة، في نهاية ممرٍّ ليس فيه ضوء، فوق سطح البناية التي تستضيف قاعات مسرح تيفولي الكبير. كان ما يزال هناك حين وصل فيرمين عند الثامنة والنصف مساءً. فتح له الباب وكان مشمِّرًا عن ساعديه، وحالما رآه اكتفى بإيماءةٍ وتنهيدة.

- أفترض أنّك فيرمين. لقد حدّثني عنك مارتين. وكنت أتساءل للتوّ متى ستأتي إلى هذه الأنحاء.

- كنتُ بعيدًا لبعض الوقت.

- طبعًا. تفضّل، ادخلْ.

تبعه فيرمين إلى داخل الحُجرة.

- أمسيةٌ جميلة، أليس كذلك؟ - سأله المحامي، هائج الأعصاب.

- مجرّد ماءٍ يتساقط.

نظر فيرمين حوله وتبيّن أنّ هناك كرسيًّا واحدًا في المجال. ترك

بريانس الكرسيّ لضيفه، ورتّب جلسته على كومة مجلّدات عن القوانين الاقتصاديّة.

- ما زلت أنتظر وصول المزيد من الأثاث.

فكّر فيرمين في أنّ الفسحة المتبقّية في ذلك المكان لا تسمح بإدخال حتّى مبراة لأقلام الرصاص، لكنّه فضّل عدم التفوّه بشيء. ثمّة طبقٌ على الطاولة، فيه شطيرة محشوّة باللحم، وزجاجة بيرة. وهناك منديلٌ ورقيٌّ يثبت أنّ عشاء المحامي المترف إنّما كان آتيًا من المقهى المجاور.

- كنت أهمّ بالعشاء. يسرّني أن أتقاسم الطعام معك.

- تناولْ طعامك يا سيّدي، فأنتم الشبّان عليكم بالنموّ، وأنا قد تناولتُ عشائي مسبقًا.

- ألا أقدّم لك شيئًا ما؟ فنجان قهوة؟

- إذا كان لديك من السوغوس...

نبّش بريانس في أحد الأدراج الذي قد يحوي كلّ شيء، ما عدا سكاكر السوغوس.

- حبّة خوانولا؟

- لا تتعبْ نفسك، شكرًا.

- بالإذن.

عضّ بريانس من الشطيرة ومضغ متلذّذًا. فتساءل فيرمين أيًّا منهما يا ترى كان ميّتًا من الجوع أكثر من الآخر. هنالك باب موارب، بجانب المنضدة، يؤدّي إلى غرفة ملاصقة، يتراءى منها سريرٌ قابل للطيّ، وقمصان مجعّدة معلّقة على مشجب، وكومة كتب.

- هل تعيش هنا حضرتك؟ - سأله فيرمين.

لم تكن إيزابيلا لتختار محاميًا من أجل مارتين يكون أمير الميدان، بطبيعة الحال. تابع بريانس نظرة فيرمين، وتوجّه إليه بابتسامة متواضعة.

- أجل، هذا مكتبي وبيتي مؤقّتًا. - أجاب وهو يمدّ جذعه ليغلق باب غرفة النوم - لا بدّ أنّك تفكّر في أنّ مظهري لا يبدو مظهر محامٍ. فاعلمْ أنّك لست الوحيد، هكذا يراني الجميع، بدءًا من والدي.

- لا تشغلْ بالًا. كان والدي يقول دومًا لي ولإخوتي إنّنا كنّا نكرات وسننتهي بالعمل في تحطيم الحجارة. وها أنذا، في أحسن حال كما لم أكن من قبل. لا استحقاق البتّة من النجاح في الحياة عندما تدعمك العائلة وتعوّل عليك.

أومأ بريانس وهو يشدّ على أسنانه.

- طالما أنّ الأمور على هذا النحو... فالحقّ يقال، لقد بدأت العيش على حسابي الخاصّ منذ مدّة قصيرة. وكنت في السابق أعمل في مكتب مهمّ، عند مفترق هذا الطريق مع شارع دي غراسيا. لكنّنا واجهنا عديدًا من الخلافات. ومنذ ذلك الحين، لم تتيسّر الأحوال.

- لا تقل لي. ڤايس؟

أومأ بريانس، وهو ينهي البيرة بثلاث رشفات.

- منذ أن تسلّمتُ قضيّة السيّد مارتين، لم يكفّوا عن مضايقتي حتّى استطاعوا أن يفرّقوا بيني وبين جميع زبائني تقريبًا، ومن ثمّ تسريحي من العمل. أمّا القلّة التي تبعتني فهم ممّن ليس في جعبتهم فلس واحد لدفع الأتعاب.

- والسيّدة إيزابيلا؟

أظلمتْ نظراتُ المحامي. وضع البيرة على الطاولة وحدّق إلى فيرمين متردّدًا.

- ألم تدرِ؟

- بم؟

- إيزابيلا سيمبيري، لقد توفّيت.

٩

كان الإعصار يعصف بالمدينة بعنف شديد. وكان فيرمين يحمل فنجان القهوة بين يديه، بينما وقف بريانس عند النافذة المفتوحة، يتأمّل في الأمطار التي تجلد سطوح منطقة الإنسانش، ويروي الأيّام الأخيرة لإيزابيلا.

- أصابها المرض على حين غرّة، بلا أيّ مبرّرات. لو أنّك عرفتَها... إيزابيلا كانت شابّة، مفعمةً بالحيويّة. كانت تتمتّع بعافيةٍ حديديّة وقد صمدت إزاء كلّ بلايا الحرب. ثمّ حدث ما حدث بين عشيّة وضحاها. في الليلة التي تمكّنتَ فيها من الهرب من القلعة، كانت إيزابيلا عائدةً إلى بيتها في وقت متأخّر. وعندما وجدها زوجُها، كانت جاثمةً على ركبتيها في الحمّام: تتصبّب عرقًا، وتعاني من خفقان القلب. قالت إنّها لم تكن بخير. فاتّصلوا بالطبيب، لكنّها أخذتْ تتشنّج وتتقيّأ الدماء قبل وصوله. قال الطبيب إنّه بصدد حالة تسمّم، وينبغي لها القيام بحميةٍ صارمة عدّة أيّام، لكنّ وضعها تدهور مع طلوع صباح اليوم التالي. دثّرها السيّد سيمبيري بأغطية كثيرة، واستعان بجاره سائق الأجرة لإسعافها إلى مستشفى دل مار. برزت على جلدها بقع قاتمة، تشبه القرحات، وتساقطت خصلاتُ شعرها. انتظروا ساعتين في المستشفى، لكنّ الأطباء في النهاية رفضوا

الكشف عليها، إذ كان في الغرفة نفسها مريضٌ ينتظر، وقد قال إنّه يعرف سيمبيري، واتّهمه بأنّه شيوعيّ أو شيء سخيف من هذا القبيل. أتخيّل أنّه فعلها كي يمرّ قبلهم في الطابور الطويل. أعطتها إحدى الممرّضات شرابًا وقالت إنّه سيشفيها وسيغسل معدتها، لكنّ إيزابيلا لم تكن لديها القدرة على ابتلاع أيّ شيء. فاحتار سيمبيري في أمره؛ وأعادها إلى البيت، وراح يستدعي الأطباء واحدًا تلو آخر. لم يفلح أيٌّ منهم في اكتشاف سرّ ما كانت تكابده. إلى أن جاء مساعدٌ طبّيٌّ، وهو زبونٌ اعتياديّ للمكتبة، وكان لديه معارفه في مستشفى إل كلينيكو. فأخذها سيمبيري إلى هناك.

قالوا له في الكلينيكو إنّ احتمال إصابتها بالكوليرا واردٌ جدًّا، لذا بإمكانه إعادتها إلى البيت، لأنّ الوباء بدأ حينها بالانتشار. وكان الموت قد حصد عديدًا من الأرواح في الحيّ، فيما كانت صحّة إيزابيلا تتدهور يومًا بعد يوم. وكانت تهذي. بذل زوجها قصارى جهده، وحرّك الأرض والسماء لأجلها، لكنّ إيزابيلا خارت قواها لدرجة أنّها لم تعد حتّى قادرة على الذهاب إلى المستشفى. وتوفّيت بعد أسبوع من صراعها مع المرض، في البيت، في شارع سانتا آنا، فوق المكتبة...

هبط عليهما صمتٌ طويل، لا يتخلّله سوى نقر المطر وأصداء الرعود التي غدت تبتعد كلّما هدأت الرياح.

- ولم يخبروني إلّا بعد شهر من وفاتها بأنّهم رأوها ذات مساء في مقهى الأوبرا، قبالة المعهد. كانت جالسة صحبة ماوريسيو ڤاليس. تجاهلت إيزابيلا نصائحي، وهدّدتْه بفضح نيَّتِه استغلالَ

مارتين لتحرير إحدى كتاباته المقرفة، التي ظنّ أنّه سيحصل على الشهرة من خلالها ويغرق في بحر من الأوسمة. فذهبتُ إلى المقهى لأسأل. كان النادل يتذكّر أنّ ڤايس قد وصل بالسيّارة من قبل، وقال لي إنّه طلب فنجانين من البابونج إضافةً إلى العسل.

قيّم فيرمين نتائج كلام المحامي الشابّ.

- وهل تعتقد أنّ ڤايس قد سمّمها؟

- لا يمكنني أن أجزم في ذلك، لكنّني كلّما توغّلتُ في التفكير في ما حدث، بدا لي الأمر بديهيًّا. لا بدّ أنّ ڤايس هو المسبِّب.

ركّز فيرمين أنظاره في الأرض طويلًا.

- وهل علم السيّد مارتين بما جرى؟

هزّ بريانس رأسه نافيًا.

- لا. فبعد فرارك، أمر ڤايس بأن يُعزَل مارتين في زنزانة منفردة في أحد الأبراج.

- وماذا عن الطبيب ساناوخا؟ ألم يضعوه معه؟

تنهّد بريانس متألّمًا.

- ساناوخا خضع لمحاكمة ميدانيّة بتهمة الخيانة. أعدموه رشقًا بالرصاص بعد أسبوعين.

أحكم الصمت الطويل خناقه على الغرفة. نهض فيرمين وراح يطوف في دائرة، متوتّر الأعصاب إلى حدٍّ بعيد.

- وأنا، لماذا لم يبحث أحدٌ عنّي؟ أنا السبب في كلّ شيء...

- أنت لست موجودًا. عمد ڤايس إلى تجنُّب الإهانة من رؤسائه، وخشي أن تُدمَّر مسيرتُه الواعدة في سلّم النظام، لذا أجبر فرقة الحرس على الحلفان بأنّه أرسلهم للبحث عنك، وأنّهم أصابوك

بنيرانهم بينما كنت تهرب إلى أسفل هضبة مونتويك، وأنّهم ألقوا جثّتك في الحفرة الجماعيّة.

تحسّس فيرمين طعم الغضب على شفتيه.

- اسمع ماذا سأفعل إذن. سأخرج من هنا للتمركز قبالة مبنى الحكومة العسكريّة، وأصرخ: «ها أنذا، ها هما خصيتاي». سنرى كيف سيبرّر ڤايس قيامتي.

- لا تتفوّه بالترّهات. لن تحلّ أيّ مشكلة بفعلك هذا. ولن يحدث شيء سوى أنّهم سيأخذونك إلى نقطة بعيدة عن الأنظار على طريق راباسادا، وسيطلقون رصاصة على رقبتك. تلك الحشرة لا تستحقّ منك هذه التضحية.

أومأ فيرمين متفهّمًا، على الرغم من أنّ العار والندم كانا يعذّبان ضميره.

- ومارتين؟ ما الذي سيؤول إليه؟

أنهض بريانس كتفيه.

- ما أعلمه سرّيٌّ للغاية. لا يُفشى خارج نطاق هذه الغرفة. ثمّة سجّانٌ في القلعة، يدعى بيبو، أسديتُ إليه أكثر من معروف. كادوا يقتلون شقيقه، لكنّني استطعتُ أن أخفّف عنه العقاب لحبسٍ لا يزيد عن عشرة أعوام في أحد سجون بلنسية. بيبو رجلٌ طيّب، يقصّ عليّ كلّ ما يراه ويسمعه في القلعة. ولئن منعني مدير السجن من لقاء مارتين، علمتُ بوساطة بيبو أنّه ما يزال على قيد الحياة وأنّ ڤايس يغلق عليه في البرج، تحت مراقبة على مدار الساعة. وقد أعطاه أوراقًا وقلمًا. بيبو يقول إنّ مارتين يكتب.

- ماذا يكتب؟

- ومن يدري! ڤايس يعتقد - حسب ما نقله إليّ بيبو على الأقلّ

- أنّ مارتين همّ بكتابة ذلك الكتاب الذي كلّفه به، مستندًا إلى أفكاره. لكنّ مارتين الذي كلانا يعلم أنّ رأسه ليس على ما يرام، يبدو أنّه غارقٌ في شيء آخر. يردّد بصوت جهير ما يكتبه أحيانًا، أو ينهض ليبدأ بالطواف بين جدران السجن، وهو يردّد مقتطفات من بعض الحوارات أو فقرات بأكملها. بيبو يناوب في الليل بجانب زنزانته، وكلّما سنحت له الفرصة مرّر له السجائر وظروف السكّر، وهذا هو طعامه الوحيد. ألم يحدّثك مارتين قطّ عمّا يسمّيه بـ«لعبة الملاك»؟

نفى فيرمين بهزّة من رأسه.

- هل هو عنوان الكتاب الذي يعمل على تأليفه الآن؟

- هذا ما يقوله بيبو. بناءً على ما يتمكّن من فهمه لما يقصّه عليه مارتين، وعلى ما يصله من حوارٍ مفتوح مع نفسه بصوتٍ مرتفع، يبدو أنّ الكتاب شبيهٌ بسيرة ذاتيّة أو باعتراف... إذا أردتَ رأيي، لقد أدرك مارتين أنّه بات يفقد صوابه، لذا يحاول أن يضع على الورق كلّ ما يذكره، قبل فوات الأوان. كما لو أنّه يكتب رسالةً إلى ذاته لعلّه يفهم من يكون...

- وما الذي سيقع عندما سيكتشف ڤايس أنّ مارتين لم يمتثل لأوامره؟

ردّ المحامي بريانس عليه بنظرة جنائزيّة.

١٠

توقّف هطول الأمطار في حدود منتصف الليل. وكانت برشلونة تعرض، من خلال نافذة المحامي بريانس، مشهدًا مريبًا تحت سماءٍ من سحبٍ منخفضة تزحف فوق سطوح المباني.

- هل لديك مكانٌ تأوي إليه، يا سيّد فيرمين؟

- تلقّيتُ عرضًا مغريًا للعمل خليلًا وحارسًا شخصيًّا لفتاةٍ سهلة المراس، لكنّها طيّبة القلب وفاتنة الحسن بما يجلي الآلام. ورغم هذا، لا أرى نفسي مناسبًا للعيش على حساب الآخرين، حتّى لو تعلّق الأمر بعذراء خيريس.

- لا تقنعني فكرةُ بقائك في الشارع يا فيرمين. هذا في منتهى الخطورة. بإمكانك البقاء هنا ما تشاء من وقت.

نظر فيرمين حوله.

- أعرف أنّه ليس فندق كولون، لكنّني أمتلك سريرًا قابلًا للطيّ في الغرفة المجاورة، إضافةً إلى أنّني لا أشخر، كما لا أخفيك مسرّتي في أن يؤانسني أحد ما.

- أليس لديك خطيبة؟

- خطيبتي كانت ابنة الشريك المؤسّس للمكتب القانونيّ الذي استطاع ڤايس وشركاه أن يسرّحوني منه.

- إنّ قضيّة مارتين تكلّفك غاليًا. نُذرُ عفّةٍ وفقر.

ابتسم بريانس.

- أعطني قضيّة خاسرة، واجعلْ منّي سعيدًا.

- اسمع إذن، سأثق بكلمتك. شرط أن تسمح لي بالمساعدة والمساهمة. بإمكاني أن أنظّف، أن أرتّب، أن أنضّد على الآلة الكاتبة، أن أطبخ، أن أقدّم لك استشاراتٍ وخدماتٍ في التحرّي والمراقبة. وإن مرّتْ بك لحظاتُ ضعفٍ وضاقت عليك، فبإمكاني الاستعانة بصديقتي روسيتو في تأمين خدمات امرأةٍ خبيرة تعيد لك ألقك. ففي سنّ الشباب، يجدر بنا منع العطور البذوريّة من التراكم لئلا تصل إلى الرأس، وإلّا كانت العواقب وخيمة.

مدّ بريانس يده نحو فيرمين.

- اتفقّنا إذن. عيَّنتُك متدرّبًا في مكتب المحامي بريانس وشريكه بريانس، المدافع عن المفلسين.

- وحقِّ اسمي فيرمين، سأؤمّن لك زبونًا من أولئك الذين يدفعون عدًّا ونقدًا، وسلفًا، قبل أن ينتهي هذا الأسبوع.

وهكذا نزل فيرمين روميرو دي توريس في المكتب الصغير للمحامي بريانس مؤقتًا، حيث باشر ترتيب المكان وتنظيفه، وتحديث كلّ المعاملات والملفّات والقضايا المفتوحة. وبدا مظهر المكتب مضاعفًا في غضون أيّام، بفضل مهارات فيرمين في تنظيفِه وجعلِه مثل نقاوة المرآة. وكان يقضي معظم نهاره منغلقًا على نفسه هناك، غير أنّه يُمضي ساعتين في مهام متعدّدة، يعود منها محمّلًا بباقات الأزهار التي يختلسها من بهو مسرح تريفولي، فضلًا عن القهوة التي يؤمّنها

بالتحايل على النادلة في المقهى أسفل البيت، وموادّ غذائيّة يحصل عليها من صيدليّة كيلميس، ويسجّلها على حساب المكتب الذي طُرِد منه بريانس، مقدِّمًا نفسه على أنّه موظّف التوصيلات الجديد لديهم.

- فيرمين، هذا النوع من اللحم المجفّف قنبلة. من أين أتيتَ به؟

- جرّبْ جبن المانشيغو، ترَ النور.

في الصباح، كان يمحّص كلّ القضايا قبل تمريرها لبريانس، ثمّ ينضّد ملاحظاته. وبعد الظهر، كان يمسك السمّاعة ويختار أرقامًا من دليل الهاتف، لا على التعيين، وينغمس في البحث عن زبائن من المفترض أنّهم يسدّدون المال. وكلّما شمّ إمكانيّة ما، كلّل المكالمة بزيارة منزليّة. فكان الناتجُ من مجمل خمسين اتصالًا بأصحاب المحلّات، والمهنيّين، وبعض الأفراد في الحيّ، عشرَ مراجعات وثلاثةَ زبائن جدد للمحامي بريانس.

كان الزبون الأوّل أرملةً رفعت قضيّةً على شركة تأميناتٍ رفضت أن تدفع لها مستحقّات وفاة زوجها، زاعمةً بأنّ السكتة القلبيّة التي أصابته بعد إفراطه في التهام جراد البحر، في مطعم لاس سييتي بويرتاس، هي حالة انتحار، لا تشملها بوليصة التأمين. وكان الزبون الثاني يعمل محنِّطًا للحيوانات، وقد حمل إليه أحد المصارعين ثورًا من فصيلة الميورا يزن خمسمئة كيلوغرامًا كان سببًا في إنهاء مسيرته داخل الحلبة، ثمّ رفض استلامَه ودفْعَ أجور تحنيطه، لأنّ عينيه الزجاجيّتين اللتين وضعهما المحنِّط أضفت عليه طابعًا شيطانيًّا أرعب الماتادور وجعلته يهرب من المختبر راكضًا، وهو يصيح: «الخبيث، الخبيث!». أمّا الزبون الثالث، فكان خيّاطًا من روندا سان بيدرو، اقتلع طبيبُ الأسنان، الذي لم يحصل على الشهادة، خمسة أضراس

من فمه، ولم يكن أيٌّ منها متسوّسًا. كانت القضايا هزيلة، لكنّ الزبائن كلّهم دفعوا أتعاب المحامي سلفًا ووقّعوا معه عقدًا.

- فيرمين، سأعطيك راتبًا ثابتًا.

- لا تتحدّث بالأمر حتّى.

رفض فيرمين أيّ نوعٍ من أنواع الربح على المكاسب التي حقّقها بأعماله الماهرة، سوى أنّه استدان النقود، في بعض المرّات النادرة، كي يصطحب روسيتو في أمسيات الأحد إلى السينما، أو للرقص في لا بالوما أو للهو في منتزه تيبيدابو، حيث مصّت الفتاة عنقه في بيت المرايا، وظلّت المصّة تحرقه أسبوعًا كاملًا؛ هناك حيث انتهز فيرمين عدم وجود أيّ راكب على متن الطائرة الصغيرة التي تحلّق دائريًّا في السماء، فوق برشلونة، فعوّض التمرينات الكاملة واستردّ متعته بمزاياه الذكوريّة، بعد زمانٍ طويلٍ كان فيه بعيدًا عن مسارح الحبّ المستعجَل.

ذات يوم، كان يتحسّس محاسن روسيتو، في أعلى العجلة البانوراميّة في المنتزه، فقال في سرّه إنّه يعيش أيّامًا جميلة بحقّ، خلافًا لكلّ التكهّنات. وهكذا غزا الخوف فؤاده، لأنّه كان يعلم جيّدًا أنّ الأيّام الجميلة لا تدوم طويلًا، وأنّ لحظات الطمأنينة والسعادة المسروقة كانت ستتبخّر قبل أن تذوي جذوةُ الشباب في جسد روسيتو وعينيها.

١١

في ذلك المساء نفسه، جلس فيرمين في المكتب ريثما يعود بريانس من جولته بين المحاكم والمكاتب ووكلاء النيابة والسجون، حيث كان يضطرّ ألف مرّة لتقبيل الأيادي مقابل الحصول على بعض المعلومات. كانت الساعة في حدود الحادية عشرة حين سمع خطوات المحامي الشابّ تقترب على امتداد الممرّ. فتح له الباب، فدخل بريانس وهو يجرّ روحه بخطًى متثاقلة، مدمَّر النفس كما لم يكن من قبل. استرخى في إحدى الزوايا ووضع يديه على رأسه.

- ما الذي حدث يا بريانس؟

- جئتُ من القلعة.

- هل من أنباءٍ سارّة؟

- رفض ڤايس استقبالي. تركوني أنتظر أربع ساعات ثمّ أمروني بالانصراف. وسحبوا منّي الإذن بالزيارات والترخيص بالدخول إلى داخل السجن.

- هل سمحوا لك برؤية مارتين؟

هزّ بريانس رأسه نافيًا.

- لم يكن موجودًا.

نظر إليه فيرمين ولم يفهم المقصود. مرّر بريانس بعض اللحظات في الصمت بحثًا عن الكلمات المناسبة.

- بينما كنت أنصرف، لحق بي بيبو وروى لي ما كان يعرفه. لقد حدث الأمر منذ أسبوعين. كان مارتين قد وهب نفسه للكتابة، يكتب ليلًا نهارًا، كأنّه ممسوس، من دون أدنى قسط من الراحة. لكنّ هذا لم يرق لڤايس، فأمر بيبو بأن يصادر الأوراق التي كتبها مارتين حتّى تلك اللحظة. وتطلّب ذلك ثلاثة حرّاس لاحتجازه وانتزاع المخطوط من بين يديه. كان قد ملأ ما يربو على خمسمئة صفحة في أقلّ من شهرين. سلّم بيبو الأوراق للمدير، وما إن همّ الأخير بقراءتها حتّى استبدّ به الغضب.

- أتخيّل أنّه وجد فيها ما لم يكن ينتظره...

نفى بريانس.

- قرأ ڤايس طوال الليل. وفي الصباح التالي صعد إلى البرج محاطًا بأربعة رجال. شدّوا وثاق مارتين، من يديه وقدميه، ثمّ دخل المدير إلى الزنزانة. كان بيبو يتنصّت من ثقب الباب، فسمع جزءًا من المحادثة. كان ڤايس يزمجر غاضبًا. قال له إنّه خيّب آماله، وإنّه أوكل إليه بذور رائعة أدبيّة عظيمة، لكنّ ناكر الجميل، بدل أن يتّبع تعليماته، راح يكتب ذلك النصّ العبثيّ الذي كان بلا رأسٍ أو ذيل. «ليس هذا الكتاب الذي كنت أنتظره منك يا سيّد مارتين»، كان يردّد.

- وماذا كان مارتين يقول؟

- لا شيء. كان يتجاهله. كما لو أنّه ليس موجودًا هناك. ما أدّى إلى إغضاب ڤايس أكثر وأكثر. أحسّ به بيبو يهاجم مارتين صفعًا ولكمًا، غير أنّه لم يُصدِر أيّ تعبير عن الألم. وعندما تعب ڤايس من ضربه وإهانته دون أن يتمكّن من إنطاقه بأيّ كلمة، يقول

بيبو إنّ المدير أخرج من جيبه رسالةً كان السيّد سيمبيري قد أرسلها إلى مارتين منذ عدّة شهور وتمّت مصادرتها. وكانت في الرسالة ورقةٌ كتبتْها إيزابيلا لمارتين وهي على فراش الموت...

- اللعنة عليك يا ڤايس يا ابن العاهرة...

- تركه ڤايس هناك، وحيدًا مع تلك الرسالة، لأنّه يعرف حقّ المعرفة أنّه ما من شيء قد يؤذيه أكثر من إعلامه بوفاة إيزابيلا... بيبو يقول ما إن انصرف المدير وبدأ مارتين بقراءة الرسالة، حتّى هام بصراخٍ لم ينته طوال الليل، وما انفكّ يضرب الحيطان والباب الحديد بيديه ورأسه...

رفع بريانس عينيه. كان فيرمين قد جلس القرفصاء قبالته، وحطّ يده على كتفه.

- هل أنت بخير يا بريانس؟

- أنا محاميه. - قال بصوت مرتعش - واجبي أن أدافع عنه وأخرجه من هناك...

- لقد بذلتَ كلّ ما في وسعك يا بريانس، ومارتين على دراية بذلك.

هزّ بريانس رأسه.

- لكنّها لا تنتهي هنا. - استأنف كلامه - قال لي بيبو إنّ مارتين - بعد أن منع عنه ڤايس الحبر والأوراق - بدأ يكتب على ظهر الصفحات التي رماها في وجهه. وإذ انعدم الحبر، جرَّح مارتين يديه وذراعيه ليستخدم دماءه حبرًا... كان بيبو يحاول أن يكلِّمه ويهدّئ من روعه... لم يعد يقبل منه السجائر، ولا حتّى ظروف السكّر التي كان يحبّها كثيرًا... لم يعد يعترف حتّى بوجوده. يرى بيبو أنّ مارتين، حالما تلقّى نبأ وفاة إيزابيلا، فقد صوابه كليًّا، ولم يعد

يعيش إلّا وسط ذلك الجحيم الذي بناه في عقله... ففي الليل يصيح حتّى يسمعه الجميع. وبدأت ألسنة الزوّار والمساجين وموظّفي السجن تتناقل الشائعات. ما أدّى إلى إثارة أعصاب المدير. وفي النهاية، ذات ليلة، أمر اثنين من الرماة باقتياده بعيدًا...

ابتلع فيرمين ريقًا.

- إلى أين؟

- بيبو ليس متأكدًا. وبحسب ما وصله من أخبار، يعتقد بيبو أنّهم ساقوه إلى فيلا مهجورة قرب منتزه غويل... ويبدو أنّهم في ذلك المكان، قبل الحرب، قد قتلوا فيه أحد الأشخاص ثمّ دفنوه في الحديقة... وعندما عاد الرماة، قالوا لڤايس إنّ المشكلة قد حُلَّت، لكنّ بيبو أفادني بأنّه تنصّت عليهم في الليلة نفسها يتناقشون في ما بينهم، وأنّهم ليسوا متيقّنين مئة بالمئة. لقد حدث شيء ما في ذلك البيت. يبدو أنّ أحدًا آخر كان فيه.

- أحدٌ آخر؟

أنهض بريانس كتفيه.

- هل هذا يعني أنّ مارتين حيّ؟

- لا أدري يا فيرمين. لا أحد يدري.

١٢

برشلونة، ١٩٥٧

بات فيرمين يتحدّث بصوتٍ رفيع ونظرة محطّمة. يبدو أنّ استرجاع تلك الذكريات أفقده الروح، وغدا يتوازن على الكرسيّ بالكاد. سكبتُ له آخر كأس من النبيذ، ورأيتُه يمسح دموعه بيديه. أعطيتُه المنديل، فتجاهله. عاد الزبائن الآخرون في مطعم خان يويس إلى منازلهم منذ مدّة، فتصوّرتُ أنّ الساعة تجاوزت منتصف الليل، لكنّ أحدًا لم يقل لنا شيئًا، بل تركونا على راحتنا في صالة الطعام. كان فيرمين ينظر إليّ منهكًا، كما لو أنّ الكشف عن تلك الأسرار المستورة أعوامًا طويلة انتزع منه الرغبة في الحياة.

- فيرمين...

- أعلم عمّا ستسألني. الجواب هو لا.

- فيرمين، هل دافيد مارتين هو والدي؟

نظر إليّ بحزم.

- والدك هو السيّد سيمبيري يا دانيال. إيّاك أن يساورك الشكّ حول ذلك. أبدًا.

أومأتُ راضيًا. وظلّ فيرمين راسيًا على الكرسيّ، مغيَّبًا، وضاعت نظراته في الفراغ.

- وماذا عنك يا فيرمين، ما الذي حدث لك بعد ذلك؟

ماطل فيرمين في الإجابة، كما لو أنّ ذلك الجزء من الحكاية لا أهميّة له.

- عدت إلى الطرقات. لم يكن بوسعي البقاء هناك، مع بريانس. ولم أكن أستطيع البقاء مع روسيتو. ولا مع أيّ أحد آخر...

ترك فيرمين قصّته معلّقة هناك، حتّى استأنفتُ الحديث فيها بنفسي.

- عدتَ إلى الطرقات، شحّاذًا بلا اسم، ليس له أحدٌ ولا يملك شيئًا في الحياة، رجلًا ظنّ الجميع أنّه مجنون، رجلًا يفضِّل الموت لولا أنّه حكم على نفسه بصون وعدٍ أطلقه...

- كنتُ قد وعدتُ مارتين بأنّني سأعتني بإيزابيلا وابنها... أنت، يا دانيال. لكنّني كنتُ جبانًا. أهدرتُ كثيرًا من الوقت متواريًا عن الأنظار، وكنت أخشى العودة كثيرًا، وحين عدتُ، كانت والدتك قد رحلت...

- ألهذا السبب وجدتُك تلك الليلة في بلاسا ريال؟ ألم يكن اللقاء مصادفةً؟ منذ متى وأنت تتبعني؟

- شهور. أعوام...

تخيَّلتُ أنّه يتبعني عندما كنتُ صغيرًا، أذهب إلى المدرسة، وعندما كنت ألعب في منتزه سوداديلا، وعندما كنت أتوقّف مع والدي أمام تلك الواجهة لأشبع نظري في القلم الذي كنت متيقّنًا من أنّه لفيكتور هيغو، وعندما كنت أجالس كلارا في الساحة، لأقرأ لها

وأتحسّسها بعينيّ، مقتنعًا كلّ الاقتناع بأنّ أحدًا لا يراني. شحّاذٌ، ظلٌّ، شكلٌ يفلت من اهتمام الجميع، وتتحاشاه نظرات الجميع. فيرمين، حارسي وصديقي.

- ولماذا لم تخبرني بالحقيقة فيما بعد؟

- في البدء، كنت أنوي أن أخبرك. ثمّ أدركتُ أنّني لو فعلتُها كنت سأضرّك أكثر ممّا أفيدك. إذ إنّ لا شيء في وسعه أن يغيّر الماضي. فقرّرتُ أن أخفي عنك الحقيقة لأنّني فكّرتُ أنّه من الأفضل لك أن تشبه والدك، لا أن تشبهني.

غطسنا في صمت عميق، نتبادل في أثنائه نظراتٍ خاطفة، دون أن ندري ماذا نقول.

- أين ڤايس؟ - سألته في النهاية.

- إيّاك أن تفكّر مجرّد تفكيرٍ في هذا. - اختصر فيرمين.

- أين هو الآن؟ - سألته مجدّدًا - إن لم تخبرني بذلك، فسأكتشفه بنفسي.

- وما الذي ستفعله؟ هل ستذهب إلى بيته لتقتله؟

- لم لا؟

أطلق فيرمين ضحكة مريرة.

- لديك زوجة وولد. لديك حياتك وأشخاصٌ يحبّونك وأنت تحبّهم. لديك كلّ شيء يا دانيال.

- كلّ شيء، عدا والدتي.

- الثأر لن يُرجِعها إليك، يا دانيال.

- ما أسهل القول. لم يقتل أحدٌ والدتَك...

أراد فيرمين أن يتفوّه بشيء ما، لكنّه عضّ على لسانه.

- لماذا، برأيك، لم يحدِّثك والدك أيّ شيء عن الحرب يا دانيال؟ هل تعتقد أنّه لا يعرف حقيقة ما جرى؟

- وإن كان كذلك، لماذا آثر السكوت؟ لماذا لم يفعل شيئًا؟

- من أجلك يا دانيال. من أجلك. والدك، مثل كثيرٍ من الناس الذين قُدِّر عليهم العيش في تلك الأعوام، هضم كلَّ شيء فهضمه السكوتُ. لم يعد يمتلك الشجاعة. أناسٌ من كلّ الأطراف والأطياف. تصادفهم في الشارع كلّ يوم، ولا يمكنك حتّى أن تراهم. تعفَّنوا أحياءً طوال هذه الأعوام، واحتملوا الألم الذي ينهشهم من الداخل كي تتسنّى لك ولكثيرين غيرك فرصُة الحياة. إيّاك أن تفكّر مجرّد تفكير في الحكم على والدك. هذا ليس من حقّك.

شعرتُ كما لو أنّ صديقي المفضّل سدّد لكمة على فمي.

- لا تغضب منّي يا فيرمين...

هزّ رأسه نافيًا.

- لن أغضب.

- إنّني أحاول فقط أن أفهم أكثر. دعني أطرح عليك سؤالًا. سؤالًا واحدًا لا غير.

- عن ڤايس؟ كلا.

- مجرّد سؤال يا فيرمين. أقسم لك. بإمكانك أن لا تجيب، إن أردتَ.

أومأ فيرمين على مضض.

- هل ماوريسيو ڤايس هو نفسه الذي في بالي؟ - سألتُ.

أومأ فيرمين بنعم.

- هو بعينه. هو ذاك الذي أصبح وزيرًا للتعليم حتّى أربع أو

خمس سنوات مضت. هو ذاك الذي كان حتّى وقتٍ قصير لا يتغيّب يومًا عن الظهور على صفحات الجرائد. ماوريسيو ڤايس العظيم. المؤلّف، الناشر، المفكّر، والمسيح الذي أنجبه الفكرُ الوطنيّ. يا له من ڤايس! - قال فيرمين.

ففهمتُ حينذاك أنّني رأيتُ صورة ذلك الفرد على الجرائد عشرات المرّات، وسمعتُ اسمه ورأيتُه مطبوعًا على أضلاع بعض الكتب عندنا في المكتبة. حتّى ذلك المساء، كان ماوريسيو ڤايس اسمًا بين كثير من الأسماء العامّة المتزاحمة التي تشكّل جزءًا من مشهد مضطرب لا يُعار أيّ انتباه من نوعٍ خاصّ، لكنّه موجود دائمًا. حتّى ذلك المساء، لو سألني أحدهم من هو ماوريسيو ڤايس، لأجبتُ بأنّه شخصيّة تبدو لي مألوفة بعض الشيء، اسمٌ ملحوظ في تلك الأعوام التعيسة التي لم أتوقّف عندها مطلقًا. حتّى ذلك المساء، لم يخطر في بالِي إطلاقًا أن أتصوّر أنّ هذا الاسم، هذا الوجه، سيبقى إلى الأبد اسم ووجه الرجل الذي قتل والدتي.

- ولكن... - احتججتُ.

- هذا يكفي. قلتَ لي إنّك ستطرح سؤالًا واحدًا، وها قد أجبتُك.

- فيرمين، لا يمكنك أن تتركني هكذا...

- أصغِ إليّ جيّدًا يا دانيال. - ركّز أنظاره في عينيّ وأمسك معصمي - أقسم لك أنّني، عندما تحين اللحظة، سأساعدك بنفسي في العثور على ابن العاهرة ذاك، كي نصفّي حساباتنا معه، ولو كان ذلك آخر ما أفعله في حياتي. ولكن، ليس الآن. وليس هكذا.

نظرتُ إليه متردّدًا.

- عدني بأنّك لن ترتكب حماقةً يا دانيال. وأنّك ستنتظر اللحظة حتّى تحين.

أخفضتُ عينيّ.

- لا يمكنك أن تطلب منّي هذا يا فيرمين.

- بل يمكنني ويتوجّب عليّ.

أومأتُ في النهاية، فحرّر فيرمين ذراعي.

١٣

وصلتُ إلى البيت في حدود الثانية ليلًا. وعندما كنتُ على وشك الدخول من البوّابة، انتبهتُ إلى ضوء منير في المكتبة، ووميضٍ طفيف من خلف ستارة المستودع. فدخلتُ من الباب الذي في بهو البناية ووجدتُ والدي، جالسًا إلى المنضدة، يمجّ أوّل سيجارة رأيتُه يدخّنها في حياتي كلّها. كان أمامه، على الطاولة، ظرفٌ مفتوح وأوراقُ رسالة. قرّبتُ كرسيًّا ورتّبتُ جلوسي قبالته. كان ينظر إليّ صامتًا، محصَّنًا.

- أخبارٌ سارّة؟ - سألته مشيرًا إلى الرسالة.

مرّرها إليّ.

- رسالة من خالتك لاورا، تلك التي من نابولي؟

- هل لديّ خالةٌ في نابولي؟

- أجل، شقيقة والدتك، وقد هاجرت لتستقرّ في إيطاليا مع عائلة أمّها في ذات العام الذي ولدتَ فيه.

أومأتُ مشوّشًا. لم أكن أذكرها، وقد حفظتُ اسمها بالكاد بين الغرباء الذين جاؤوا قبل أعوام إلى جنازة والدتي ثمّ.لم ألتقِ بهم قطّ ثانيةً.

- تقول إنّ ابنتها ستأتي للدراسة في برشلونة، لذا تسأل إن كان بوسعها المكوث عندنا بعض الوقت. تدعى صوفيا.

- هذه أوّل مرّةٍ أسمع بها. - قلت.

- صرنا اثنين.

لم يكن والدي مقتنعًا بتقاسم الشقّة مع مراهقةٍ لا يعرفها.

- بم ستجيبها؟

أنهض والدي كتفيه، معبّرًا عن لامبالاته.

- لا أدري. عليّ أن أجيبها بشيء ما.

بقينا في صمت حوالى الدقيقة، نتبادل النظرات دون أن يتجرّأ أحدٌ منّا على الخوض بالموضوع الذي يشغل تفكير كلٍّ منّا، والذي لا شأن له بزيارة الأقارب البعيدين.

- أتخيّل أنّك كنت مع فيرمين. - قال والدي في النهاية.

أومأتُ بنعم.

- ذهبنا لتناول العشاء في خان يويس. التهم فيرمين كلّ شيء، حتّى المناديل. وعند دخولنا، رأيتُ البروفسور ألبوركركي يتعشّى هناك، وأوصيته بالمجيء إلى المكتبة.

كانت نبرة صوتي، بالحديث عن المواضيع التافهة، تغصّ بأصداء اتّهاميّة. وكان والدي يحدّق إليّ متوتّرًا.

- هل صارحك بما يحدث له؟

- أعتقد أنّه مضطّرب، بشأن الزواج وتلك الأشياء التي لا تطيب له.

- فقط؟

إنّ الكاذب البارع يعرف جيّدًا أنّ الكذبة الأكثر فاعليّةً هي حقيقةٌ طُرِحَ منها عنصرٌ أساسيّ.

- حسنٌ، قصّ عليّ أشياءَ من الزمان الفائت، عن أيّامه في السجن وباقي ما تبقّى.

- أفترض إذن أنّه حدّثك عن المحامي بريانس. ما الذي قصّه عليك؟

لم أكن أعلم بدقّة إلى أيّ مدًى تصل معرفة والدي أو شكوكه، لذا قرّرتُ أن أتابع بحذر.

- قصّ عليّ أنّهم سجنوه في قلعة مونتويك، وأنّه تمكّن من الفرار بمساعدة رجلٍ يدعى دافيد مارتين، وعلى ما يبدو أنّك تعرفه.

ظلّ والدي في صمته طويلًا.

- لم يتجرّأ أحدٌ على قول هذا في حضوري، لكنّني أعرف أنّ هنالك أشخاصًا كانوا يعتقدون، وما زالوا، أنّ والدتك كانت مغرمة بمارتين. - قال بابتسامة حزينةٍ من شأنها أن تُفهِمني على الحال بأنّه كان يعتقد ذلك هو أيضًا. كانت لديه عادة، مثل الكثيرين غيره، أن يرسم ابتسامةً مبالغٌ فيها كلّما أراد أن يلجم دموعه - والدتك كانت امرأة صالحة. وزوجةً صالحة. لا يسرّني أن تخطر في بالك أفكار غريبة عنها بسبب ما استطاع فيرمين أن يقصّه عليك. فهو لم يعرفها. أمّا أنا، بلى.

- فيرمين لم يلمِّح بشيء. - كذبتُ - سوى أنّ أمي ومارتين كانا على صداقة متينة، وأنّها حاولت أن تخرجه من السجن، مستعينة بذلك المحامي، بريانس.

- أتخيّل أنّه حدّثك عن ذلك الرجل، ڤايس...

تردّدتُ قبل أن أومئ مؤكّدًا. فلمح والدي الذعرَ الذي مرّ في عينيّ، ونفى.

- والدتك توفّيت بداء الكوليرا يا دانيال. لكنّ بريانس أصرّ على

اتّهام ذلك الرجل، ولن أفهم السبب أبدًا. رجلٌ ذو سلطة مكتبيّة، يعاني من جنون العظمة، يتمّ اتّهامه بجريمةٍ بلا دلائل أو إثباتات.

لم أقل شيئًا.

- عليك أن تنزع تلك الفكرة من رأسك. أريد منك أن تعدني بأنّك لن تفكّر فيها.

التزمتُ الصمت، متسائلًا ما إذا كان أبي ساذجًا حقًّا كما يبدو، أم إنّ ألم الفقدان أعمى بصيرته ودفعه نحو جبن الذين بقوا أحياءً. تذكّرتُ كلمات فيرمين وقلت لنفسي لا أنا ولا غيري يحقّ لنا أن نحكم على والدي.

- عدني بأنّك لن تتهوّر وترتكب حماقة البحث عن ذلك الرجل.

- أصرّ.

أومأتُ عن غير اقتناع. فأمسك معصمي.

- احلف لي. احلف بذكرى والدتك.

انتابني ألمٌ يعتصر وجهي، وانتبهتُ أنّني كنت أشدّ على أسناني بقوّة، حتّى كدتُ أطحنها. أشحتُ نظري، ولمّا يُخلِ والدي سبيلي. فحدّقتُ إلى عينيه، وأنا أفكّر حتّى اللحظة الأخيرة في أنّني قادر على الكذب عليه.

- أقسم لك بذكرى والدتي، أنّي لن أفعلها ما دمتَ على قيد الحياة.

- ليس هذا ما طلبته منك.

- هذا كلّ ما يسعني تقديمه.

أغرق والدي وجهه في كفّيه وتنهّد بعمق.

- في المساء الذي توفّيت فيه والدتك، في البيت، في هذه البناية...

- أذكره بدقّة.

- كنتَ توشك على إتمام عامك الخامس. في ذلك المساء، طلبت منّي إيزابيلا أن لا أقصّ عليك ما جرى. كانت تعتقد أنّ ذلك خيرٌ لك.

كانت تلك أوّل مرّةٍ أسمعه يشير إلى والدتي باسمها.

- أعرف يا أبتِ.

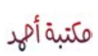
نظر في عينيّ.

- سامحني. - غمغم.

ساندتُ نظرة والدي، الذي كان يبدو أحيانًا أنّه يشيخ كلّما رآني وتذكَّر. فنهضتُ وعانقته بصمت. احتضنتني ذراعاه بقوّة، وعندما انفجر باكيًا، اندلق الغضبُ والألمُ - اللذان دفنهما في صدره طوال تلك الأعوام - مثل نزيف الدماء. فأحسستُ حينذاك بشيءٍ لا يسعني تبريره بدقّة، مفاده أنّ والدي كان يهبط إلى عالم الموت، ببطءٍ وبلا هوادة.

الفصل الرابع

شكّ


مكتبة أحمد

١

برشلونة، ١٩٥٧

فوجئتُ بضوء الفجر وأنا عند عتبة غرفة خوليان الصغير، الذي كان نائمًا لمرّةٍ نادرة بعيدًا عن كلّ شيء وأيّ أحد، هانئ البسمة على الشفتين. سمعتُ خطوات بيا تقترب في الممرّ، وأحسستُ بملمس يديها على ظهري.

- منذ متى وأنت هنا؟ - سألت.

- منذ قليل.

- وماذا تفعل؟

- أنظر إليه.

دنت بيا من مهد خوليان وانحنت لترسم قبلة على جبينه.

- في أيّ ساعةٍ عدتَ البارحة؟

لم أجب.

- كيف حال فيرمين؟

- لا بأس.

- وأنت؟

ابتسمتُ على مضض.

- هلّا حدّثتني عن حالك؟ - ألحّت.

- في مرّةٍ أخرى.

- كنت أظنّ أنّه ما من أسرار بيننا. - قالت بيا.

- وأنا كذلك.

نظرت إليّ مذهولةً.

- ماذا تقصد يا دانيال؟

- لا شيء. لا أقصد شيئًا. إنّني متعب جدًّا. هلّا خلدنا إلى النوم؟

أخذتني بيا من يدي واقتادتني إلى الغرفة. استلقينا على الفراش وعانقتُها.

- هذه الليلة حلمتُ بأمّك - قالت بيا - إيزابيلا.

استأنف المطر نقره على الزجاج.

- كنتُ طفلة صغيرة وكانت تمسكني من يدي. كنّا في بيت كبير جدًّا وقديم جدًّا، فيه صالات رحبة وبيانو كبير وقاعة لها شرفة زجاجيّة تطلّ على حديقة فيها بركة ماء. وبالقرب من البِركة كان ثمّة طفل شبيه بخوليان، لكنّني كنت أعرف أنّه أنت، لا تسألني لماذا. كانت إيزابيلا تجلس القرفصاء بجانبي وتسألني إن كنتُ أستطيع رؤيتك. كنتَ تلهو بزورق ورقيّ صغير على سطح الماء. وكنتُ أقول لها أجل. فقالت لي حينذاك إنّه عليّ أن أعتني بك. عليّ أن أعتني بك دائمًا لأنّها كانت مضطرةً للرحيل بعيدًا.

بقينا في صمت، نصغي إلى نقر المطر الطويل على الزجاج.

- ماذا قال لك فيرمين مساء أمس؟

- الحقيقة. - أجبتُ - قال لي الحقيقة.

كانت بيا تصغي إليّ وأنا أحاول إعادة بناء حكاية فيرمين. في البداية، شعرتُ بالغضب ينمو فيّ مجدّدًا، لكنّني كلّما استرسلتُ في الحكاية اكتسحني حزنٌ عميق وغمٌّ كبير. كانت تلك الأشياء كلّها جديدةً بالنسبة إليّ، ولم أعرف حينها كيف كنت سأتعايش مع الأسرار والنتائج التي صارحني بها فيرمين. لقد وقعت تلك الأحداث عشرين عامًا مضت، وقد أحالني الزمن إلى أداء دور المشاهد البسيط لتمثيليّةٍ كانت خيوطُ مصيري قد نُسجِتْ فيها.

في نهاية قصّتي، انتبهتُ أنّ بيا تنظر إليّ مشغولة البال، وهناك قلقٌ يحوم في عينيها. ولم يكن من الصعب التكهّن بما كانت تفكّر.

- لقد وعدتُ والدي أنّه ما دام حيًّا، لن أبحث عن ذلك الرجل، ڤايس، ولن أُقدِم على أيّ شيء. - أضفتُ كي أطمئنها.

- ما دام هو حيًّا؟ ألم تفكّر فينا؟ في خوليان؟

- فكّرتُ فيكما طبعًا. لا وجود لأيّ سببٍ تقلقين بشأنه. - كذبتُ - فبعد أن تحدّثتُ مع والدي، اتّضح لي أنّ ما وقع قد وقع في زمن بعيد، ولم يعد بالإمكان فعل شيء لتغييره.

بدت بيا غير مقتنعة بصراحتي.

- إنّها الحقيقة. - كذبتُ مجدّدًا.

نظرت إليّ بارتياب بضع لحظات، لكنّها ما كانت تريد إلّا أن تسمع تلك الكلمات، وهذا ما جعلها في النهاية تنصاع لتصديقها.

٢

في عصر ذلك اليوم، الذي ما انفكّت الأمطار فيه تجلد الشوارع المقفرة والمليئة ببرك المياه، تجلّى طيف سيباستيان سالغادو أمام المكتبة، طيفٌ عابسٌ أنهكه الزمان. كان يرمقنا بهيئته المتميّزة بالشراسة، من خلال الواجهة الزجاجيّة، فيما كانت أضواء مجسّم الميلاد تتماوج على وجهه. يرتدي زيّه المعتاد، الذي دخل به المكتبة للمرّة الأولى، سوى أنّه كان مبلّلًا للغاية. ذهبتُ لأفتح له الباب.

- ما أجمل مجسّم الميلاد هذا! - قال.

- ألا تدخل؟

تركتُ له الباب مفتوحًا فدخل سالغادو وهو يعرج. توقّف بعد بضع خطوات، متكئًا على عكّازه. كان فيرمين ينظر إليه من على المصطبة، بريبة وتوجّس. ابتسم سالغادو.

- كم مضى من زمن يا فيرمين. - نغَّم قائلًا.

- ظننتُ أنّك قد متّ. - ردّ فيرمين.

- وأنا أيضًا ظننتُ أنّك قد متّ. مثل الجميع. هذا ما رووه على مسامعنا. أنّهم ألقوا القبض عليك وأنت تحاول الفرار، وأعدموك.

- لم يحالفني الحظّ في ذلك.

- إن أردت الحقيقة، كنتُ أتمنّى على الدوام أن تتمكّن من الهرب. فمن المعلوم أنّ العشبة الضارّة. . .

- أثرتَ مشاعري يا سالغادو. متى خرجت؟

- منذ شهر تقريبًا.

- لا تقل لي إنّهم أطلقوا سراحك بناءً على حسن السلوك. - قال فيرمين.

- أعتقد أنّهم سئموا من انتظار أجلي. هل تعلم أنّهم قدّموا لي العفو؟ لديّ ورقة العفو بإمضاء فرانكو شخصيًا.

- أتخيّل أنّك وضعتها في إطار أنيق.

- بل إنّني أحتفظ بها في ركن الشرف، عند مقعدة المرحاض، في حال نفد ورق التنظيف.

اقترب سالغادو خطواتٍ من المصطبة وأشار إلى كرسيّ في الزاوية.

- هل يزعجكما إن جلستُ؟ ما زلت غير معتاد على المشي أكثر من عشرة أمتار بخطٍّ مستقيم، فينال منّي التعب بسهولة.

- الكرسيّ لك يا سيّدي. - دعوتُه.

استرخى سالغادو على الكرسيّ والتقط أنفاسه بعناء، وأخذ يدلّك ركبته. كان فيرمين يحدّق إليه كمن يراقب فأرًا خرج للتوّ من بالوعة المرحاض.

- من الغرابة أن يطول أجل مَن راهن الجميع على موته مبكّرًا. . . هل تعلم ما الذي أبقاني على قيد الحياة طوال هذه الأعوام يا فيرمين؟

- لو لم أكن أعرفك حقّ المعرفة، لنسبتُ الفضل إلى جودة التغذية وهواء البحر.

انفجر سالغادو يحاول القهقهة، فبدت في حالته أشبه بالسعالَ الأجشّ قُبَيلَ الإغماء.

- ما زلتَ خفيف الظلّ يا فيرمين. وهذا ما جعلني أستلطفك دومًا. يا لذلك الزمان! لا أريد أن أسبّب لكما الضجر بالحديث عن معاركي الصغيرة، ثمّ إنّ الفتى ينتمي إلى جيلٍ لم يعد يهتمّ بشؤوننا. إنّهم يفكّرون في الشارلستون أو أيًّا كان اسمه اليوم. هلّا تحدّثنا بخصوص العمل؟

- تفضّل.

- بل تفضّل أنت يا فيرمين. فلقد قلتُ كلّ ما لديّ. هلّا سلّمتني ما عليك تسليمه لي؟ أم يجدر بي إحداث فضيحةٍ لا تناسبك البتّة؟

ظلّ فيرمين متمنّعًا عدّة لحظاتٍ غرقتْ في صمتٍ محرج. وكانت نظرات سالغادو مصوّبةً عليه، وبدا على وشك أن يبصق سمًّا. التفت إليّ فيرمين بنظرةٍ لم أفهمها، وتنهّد محطّمًا.

- لقد فزتَ يا سالغادو.

أخرج فيرمين من جيبه غرضًا صغيرًا وأعطاه له. مفتاح. أو «المفتاح»، إيّاه. لمعت عينا سالغادو كعيون الأطفال. نهض واقترب ببطء من فيرمين. أخذ المفتاح باليد الوحيدة التي تبقّت لديه، وكان يرتعش من شدّة التأثّر.

- إن كنتَ تنوي إيلاجه في المنفذ المستقيم، فأرجوك أن تذهب إلى الحمّام، فهذا المحلّ مفتوحٌ للعائلات. - نبّهه فيرمين.

ذاب سالغادو في ابتسامةٍ تعبّر عن رضاه غير المحدود، وقد استعاد لونه وروح شبابه الأوّل.

- إذا فكّرنا مليًّا في الأمر، فلقد أسديتَ إليّ معروفًا كبيرًا، إذ حفظتَ المفتاح طوال تلك السنوات. - صرّح سالغادو.

- هذا ما يقوم به الأصدقاء. - ردّ فيرمين - اذهب بعون الربّ. ولا تتردّد في عدم التفكير في العودة إلى هذه الأنحاء.

ابتسم سالغادو وغمز بعينه. ومشى نحو الباب، يلهج أساسًا في توافهه. استدار برهةً قبل الخروج، ورفع يده بتحيّةٍ مسالمة.

- أتمنّى لك حظًّا سعيدًا وحياةً مديدة يا فيرمين. وكن مطمئنًّا، فالسرّ في مأمن.

رأيناه يسير تحت المطر، كان عجوزًا لدرجة أن يحسَبه الجميع محتضرًا، لكنّني كنت متيقّنًا بأنّه في تلك اللحظة لم يكن يشعر بقطرات المطر الباردة تنهال على وجهه ولا بأعوام الحبس والعوز اللذين يحملهما في دمائه. نظرتُ إلى فيرمين، وكان قد ظلّ متسمّرًا في مكانه، شاحب الوجه ومشوّش الذهن من رؤيته لرفيق زنزانته القديم.

- هل سنتركه يمضي بهذه السهولة؟ - سألتُ.

- هل لديك خطّة أفضل؟

٣

وبعد أن انقضت دقيقة الحذر المعهودة، انطلقنا إلى الشارع مسلّحين بواقٍ مطريّ غامق، وبمظلّة أكبر من مظلات الشواطئ، كان فيرمين قد حصل عليها من إحدى أسواق الميناء، إذ راودته فكرة استعمالها صيفًا أم شتاءً خلال نزهاته مع برناردا على شواطئ ضاحية برشلونيتا.

- فيرمين، إنّنا وهذا الماموث على رؤوسنا، نلفت الانتباه أكثر من جوقة ديوك. - حذّرته.

- اطمئنّ، فذلك النذل لا يرى الآن إلّا دنانيرَ الذهب تمطرها عليه السماء. - ردّ فيرمين.

كان سالغادو يسبقنا على بُعد مئة متر، يعرج بخطوة سريعة تحت الأمطار في شارع كوندال. قلّصنا المسافة قليلًا، فاستطعنا أن نراه يستقلّ الترام للتوّ، ليصعد به إلى شارع لايتانا. طوينا المظلة مباشرة، وهممنا بالركض حتّى تمكّنّا من القفز على حافة الترام بأعجوبة. وقضينا الرحلة ونحن معلّقانِ من الخلف، كما درجت العادة في تلك الآونة. وجد سالغادو مكانًا في القسم الأماميّ، تنازل عنه سامريٌّ لا يعرف مع من كان يتعامل.

- هذه هي روعة الشيخوخة. - قال فيرمين - لا أحد يذكر أنّ العجزة أيضًا كانوا حقراء.

سار الترام في شارع ترافالغار حتّى بلغ قوس النصر. أطلنا عنقينا قليلًا فرأينا سالغادو يراوح مكانه. وكان مراقب التذاكر، صاحب الشاربين الكثيفين على النمط العسكريّ، يراقبنا متجهّمًا.

- لا تظنّا أنّي سأقدّم لكما تخفيضًا لأنّكما معلّقان هكذا، فأنا أراقبكما منذ أن صعدتما.

- لم يعد أحدٌ يقدِّر الواقعيّة الاجتماعيّة. - غمغم فيرمين - يا لهذا البلد!

مددنا إليه بعض النقود فقطع لنا تذكرتين. وكاد يساورنا الشكّ في أنّ سالغادو قد غطّ في غفوة عميقة، فإذا هو ينهض ويشدّ الحبل طلبًا للموقف، عندما دخل الترام الشارع الذي يفضي إلى محطّة الشمال. انتهزنا لحظة الكبح وقفزنا إلى أسفل، قبالة المبنى الحداثيّ المتبرّم الذي كان مقرًّا لمكاتب شركة الطاقة المائيّة، ولحقنا بالترام على الأقدام حتّى الموقف. رأينا سالغادو ينزل بمساعدة اثنين من الركّاب، ويتجه نحو المحطة.

- هل تفكّر في ما أفكّر؟ - سألتُ.

أومأ فيرمين. ورحنا نتبع سالغادو حتّى بهو المحطة الفسيح، متخفّيين بمظلة فيرمين التي لا لزوم لها إلّا لإظهار حضورنا بوضوحٍ مؤسف. وحين صار سالغادو في الداخل، اقترب من صفّ من الخزائن المعدنيّة الصغيرة، المعلّقة على أحد الجدران كأنّها لوحة منمنمات تجسِّد مقبرةً كبيرة. تمركزنا على أحد المقاعد تحت الظلّ. كان سالغادو قد توقّف أمام تلك الخزائن التي لا تنتهي واسترسل في التمعّن فيها.

- هل نسي في أيّ خزانةٍ خبّأ الغنيمة؟ - سألتُ.

- إطلاقًا. إنّه ينتظر هذه اللحظة منذ عشرين عامًا. لا بدّ أنّه يتذوّقها.

- انظروا من يتكلّم... أنا أعتقد أنّه نسيها.

بقينا هناك، ننظر وننتظر.

- لم تقل لي قطّ أين خبّأتَ المفتاح عندما هربتَ من القلعة...

- ارتجلتُ.

رماني فيرمين بنظرةٍ معادية.

- ليس لديّ نيّة للخوض في هذا الموضوع يا دانيال.

- لا مشكلة.

استمرّ الانتظار مزيدًا من الدقائق.

- ربّما لديه شريك... - قلت - وها هو ينتظر وصوله.

- سالغادو ليس من النوع الذي يتقاسم شؤونه مع آخرين.

- ربّما هناك شخصٌ آخر...

- ششششش. - أسكتني فيرمين وهو يشير إلى سالغادو الذي تحرّك أخيرًا.

اقترب من إحدى الخزائن وأسند يده إلى الباب المعدنيّ. أخرج المفتاح وأدخله في القفل. فتحه ونظر إلى الداخل. وفي تلك اللحظة، كان هناك عنصران من الحرس المدنيّ، آتيان من جهة المقاعد، انعطفا عند زاوية البهو وتقدّما إلى حيث كان سالغادو يحاول أن يأخذ شيئًا ما من داخل الخزانة.

- آه، آه، آه... - غمغمتُ.

التفت سالغادو وألقى التحيّة عليهما. تبادلوا بعض الكلام، ثمّ

أخرج أحدهما حقيبة وأنزلها على الأرض عند قدمي سالغادو. شكرهما اللصُّ جزيل الشكر على المساعدة، فألقيا عليه تحيّة بطرف القبّعة، وتابعا دوريّتهما.

- تحيا إسبانيا. - غمغم فيرمين.

أمسك سالغادو بالحقيبة وجرّها إلى أحد المقاعد في الجهة المقابلة للجهة التي كنّا فيها.

- هل سيفتحها هنا؟ - سألتُ.

- إنّه بحاجة إلى التأكّد من أنّها تحوي كلّ شيء. - ردّ فيرمين - فذلك القذر صمد أعوامًا طويلة من انتظارٍ ومعاناةٍ كي يستردّ كنزه.

نظر سالغادو حوله مرارًا وتكرارًا، للتأكد من عدم وجود أحد في الجوار، ثمّ حسم أمره في النهاية. رأيناه يفتح الحقيبة بضعة سنتمترات فقط، ويسترق النظر إلى داخلها.

ظلّ متجمّدًا بتلك الوضعيّة قرابة الدقيقة. تبادلتُ وفيرمين نظرةً من دون أن نفهم شيئًا. أغلق سالغادو الحقيبة فجأة ونهض. سار نحو المخرج، بلا تمهُّل، وترك الحقيبة خلف ظهره، قبالة الخزانة المفتوحة.

- ما الذي يفعله؟ - سألتُ.

نهض فيرمين وأومأ بإشارة من يده.

- ابق هنا وراقب الحقيبة، ريثما ألحق به...

سارع فيرمين نحو المخرج، دون أن يعطيني مجالًا للردّ. فاتّجهتُ بخطوات رشيقة صوب المكان الذي ترك فيه سالغادو الحقيبة. كان هناك ماكرٌ يقرأ الجريدة على أحد المقاعد المجاورة، وقد تلصّص على ما جرى، فنظر يمنة وشمالًا ليتأكد من أنّ أحدًا لم

يره، ثمّ نهض واقترب مثل النسر الذي يحدّد فريسته. فأسرعتُ الخطى. كاد الرجل يأخذ الحقيبة عندما استطعتُ أن أقتلعها من يده بأعجوبة.

- هذه الحقيبة ليست لحضرتك. - قلت.

ركّز فيّ الرجل نظرته العدائيّة وأحكم يده على قبضة الحقيبة.

- هل أنادي الحرس المدنيّ؟ - سألتُ.

اضطرب الجبان وترك الحقيبة واتّجه ليضيّع أثره بين المقاعد. حملتُ الحقيبة إلى المقعد، وفتحتُها بعد أن تأكدتُ أنّ أحدًا لا يراقبني.

كانت فارغة.

في تلك اللحظة فقط، تناهت الجلبة إلى مسامعي، فرفعتُ نظري لأكتشف مشادّة عند مخرج المحطة. نهضتُ، واستطعتُ أن أرى من خلال الزجاج أنّ فرقة الحرس المدنيّ كانت في خضمّ دائرة من الفضوليّين الذين توقّفوا تحت المطر. وعندما تفرّق الناس، رأيتُ فيرمين جالسًا القرفصاء على الأرض، يسند سالغادو بين ذراعيه. كانت عينا العجوز مفتوحتين تحت الأمطار. وهنالك امرأة تدخل في تلك اللحظة، وقد حملت يدها إلى فمها من الدهشة.

- ما الذي حدث؟ - سألتها.

- العجوز المسكين، لقد أغمي عليه... - قالت.

خرجتُ واقتربتُ ببطء من مجمع الناس الذين كانوا يتابعون المشهد. رأيتُ فيرمين يرفع أنظاره ويتبادل الكلام مع عناصر الحرس، إلى أن أومأ أحدهم. فنزع فيرمين عنه الواقي المطريّ وألقاه على جسد سالغادو، ليغطّي وجهه أيضًا. وعندما وصلتُ، رأيتُ يدًا بثلاثة أصابع فقط تبرز من تحت الغطاء، وفي الكفّ ثمّة

مفتاحٌ يلمع تحت المطر. فتحتُ المظلة لوقاية فيرمين، ووضعتُ يدي على كتفه. ثمّ ابتعدنا ونحن نمشي ببطء.

- هل أنت بخير يا فيرمين؟

أنهض صديقي الطيّب كتفيه لامباليًا.

- فلنذهب إلى البيت. - استطاع أن يقول.

٤

وبينما كنّا نبتعد عن المحطة، خلعتُ عنّي الواقي المطريّ ووضعتُه على كتفَي فيرمين، إذ كان قد ترك رداءه على جثة سالغادو. وكان من الواضح أنّ صديقي لم يكن في ظرفٍ يساعده على التنزّه طويلًا، لذا قرّرتُ أن أوقف سيّارة أجرة. فتحتُ له الباب. وبعد أن جلس، أغلقتُ الباب وركبتُ من الطرف الآخر.

- كانت الحقيبة فارغة. - قلت - لا بدّ أنّ أحدهم مكر بسالغادو.

- من يسرقْ لصًّا، لا يقترفْ إثمًا.

- من الفاعل برأيك؟

- لعلّه الشخص ذاته الذي أخبره بأنّ مفتاحه عندي، وأعلمه بمكاني. - غمغم فيرمين.

- ڤايس؟

تنهّد فيرمين مغمومًا.

- لا أدري يا دانيال. لم أعد أعرف بما أفكّر.

انتبهتُ إلى السائق ينظر إلينا من خلال المرآة العاكسة، مترقّبًا.

- سنذهب إلى مدخل بلاسا ريال، شارع فرناندو. - قلت.

- ألا نعود إلى المكتبة؟ - سأل فيرمين الذي لم تعد لديه قدرةٌ حتّى على المجادلة بشأن مشوارٍ بسيّارة الأجرة.

- أنا سأعود إلى المكتبة. ولكن أنت ستذهب إلى بيت الدون غوستابو لتقضي بقيّة النهار مع برناردا.

ساد الصمت على رحلتنا، بينما كانت برشلونة تزداد غموضًا تحت المطر. وعندما وصلنا إلى أقواس شارع فرناندو، حيث عرفتُ فيرمين منذ عدّة أعوام، دفعتُ الأجرة ونزلنا. رافقتُه حتّى بوّابة بناية الدون غوستابو وعانقتُه.

- احذر يا فيرمين. وكُلْ شيئًا ما، وإلّا طحنتَ برناردا بعظامك في أوّل يومٍ من الزواج.

- كن مطمئنًّا. عندما تتملّكني الإرادة، أصبح قابلًا للبدانة أكثر من أيّ مغنّية سوبرانو. سأملأ بطني الآن من حلويات البولفورون التي يشتريها الدون غوستابو من كاسا كيليث، وستراني في الغد مكتنزًا مثل كرش الخنزير.

- نأمل أن يتحقّق ذلك. أبلغْ تحيّاتي للعروس.

- سأفعل. . . مع أنّني أرى نفسي أعيش في جانب الحرام، وفقًا لمجريات الأمور من الناحية القانونيّة والإداريّة.

- ترّهات. ألا تذكر ما قلتَه لي ذات مرّة؟ أنّ القدر لا يقوم بزيارات إلى المنازل، إنّما ينبغي الشروع في البحث عنه؟

- عليّ أن أعترف بأنّني اقتبستها من إحدى روايات كاراكس. مقولة رائعة.

- لكنّني وثقتُ بها وما أزال كذلك. لذا أقول لك إنّ قدرك هو الزواج ببرناردا نظاميًّا وفي الموعد المحدّد، في حضور الخوارنة والرزّ، والاسم والكنية.

نظر إليّ فيرمين متشكّكًا.

- وحقِّ اسمي دانيال، ستتزوّج بكلّ روائح الميرون العطرة. - تعهّدتُ لفيرمين الذي كان حينذاك مدمّرًا لدرجة أنّني شككتُ في قدرة علبة كاملة من سكاكر السوغوس، أو فيلم طويل في سينما فيمينا ببطولة كيم نوفاك وحمّالات صدرها المدبّبة التي تتحدّى قانون الجاذبيّة، على رفع معنويّاته.

- إن كنتَ أنت من يقول ذلك يا دانيال...

- لقد أعدتَ إليّ الحقيقة. - أعلنتُ - فسأعيد إليك اسمك.

٥

عندما عدت إلى المكتبة، في عصر ذلك اليوم نفسه، بدأتُ تنفيذ خطّتي لإنقاذ هويّة فيرمين. وكانت الخطوة الأولى تتمثّل في إجراء عديد من الاتصالات، من خلف ستارة المستودع، وتثبيت آليّةٍ زمنيّة. أمّا الخطوة الثانية فتكمن في الاستعانة بمواهب الخبراء الذين يتمتّعون بكفاءة معترف بها.

وفي صباح اليوم التالي، المشمس والرائق، اتجهتُ صوب مكتبة كارمن، حيث كان لديّ موعد مع البروفسور ألبوركركي، وأنا على اقتناع تامّ بأنّه إذا كان لا يعرف أمرًا ما، فمن الصعب أن يعرفه أحدٌ غيره.

وجدته في صالة القراءة الرئيسة، محاطًا بكتب وأوراق، مندمجًا، والقلم في يده. جلستُ قبالته إلى الطرف الآخر من الطاولة، وتركتُه يعمل. تأخّر قرابة الدقيقة حتّى تنبّه لوجودي. وإذ رفع عينيه عن المنضدة، اكتنفت المفاجأة نظراته.

- لا بدّ أنّ ما تكتبه رائعٌ للغاية. - ارتجلتُ.

- إنّني أعمل على مجموعة من المقالات حول الكتّاب البرشلونيّين الذين حلّت عليهم اللعنة. - فصّل - هل تذكر أحدهم

باسم خوليان كاراكس؟ لقد نصحتني أنت بقراءته منذ شهر عندما أتيت إلى المكتبة.

- بالتأكيد. - أجبت.

- حسنٌ، أجريتُ بعض التحقيقات عنه، وفوجئتُ بقصّته الخارجة عن المألوف. هل كنتَ تعرف بوجود شخصيّة شيطانيّة تدور العالم منذ أعوام بحثًا عن كتب كاراكس ومن ثمّ إحراقها؟

- لا تقل ذلك! - هتفتُ مصطنعًا المفاجأة.

- إنّها قضيّة نادرةٌ جدًّا. سأمرّرها لك حالما أنجزها.

- لعلّك تستطيع تأليف كتابٍ حول هذا الموضوع. - اقترحتُ - تاريخ برشلونة السرّيّ، بتسليط الضوء على كتّابها الملاعين والمحظورين من المشهد الرسميّ.

قدَّر البروفسور الاقتراحَ، مبديًا اهتمامه.

- الحقّ يقال، إنّ الفكرة خطرت في بالي، لكنّني مشغول بعمل لا ينتهي بين الصحف والجامعة...

- إن كنتَ حضرتك لا تفكّر في الكتابة عن هذا الأمر، فلن يكتب عنه أحد...

- حسنٌ، انظر، ربّما لا أهتمّ بتلك الأشياء وأنكبّ على تأليف هذا الكتاب. لكنّني لا أعرف كيف أجد الوقت...

- مكتبة سيمبيري وأبناؤه تعرض خدماتها الاستشاريّة ومواردها المكتبيّة، تلبيةً لكلّ احتياجاتك يا سيّدي.

- سآخذ هذا بعين الاعتبار. والآن؟ هل نذهب إلى الغداء؟

طوى البروفسور ألبوركركي أشرعته في ذلك اليوم، وذهبنا نحو

كاسا ليوبولدو، حيث جلسنا برفقة كأسين من النبيذ ومقبّلات الخنزير الجبليّ الشهيّة، ننتظر ذيل الثور لكلٍّ منّا، طبق ذلك اليوم.

- كيف حال صديقنا فيرمين؟ لقد رأيتُه مهمومًا جدًّا، قبل أسبوعين، في خان يويس.

- أردتُ أن أحدّثك بشأنه تحديدًا. إنّها مسألة حسّاسة نوعًا ما، وأطلب منك أن تبقى سرًّا بيننا.

- بدون طلب. ما الذي يمكنني فعله؟

شرحتُ له المشكلة بخطوطها العريضة، متجنّبًا الغوص في التفاصيل الشائكة أو غير المجدية. استشفّ البروفسور أنّ في الأمر خفايا أكثر من تلك التي أطلعته عليها؛ لكنّه آثر أن يتباهى برزانته.

- فلنر إن كنتُ قد فهمتُ جيّدًا. - قال - فيرمين لا يستطيع استخدام هويّته إذ تمّ التصريح بموته رسميًّا منذ حوالى العشرين عامًا، وعليه فإنّه في نظر الدولة ليس موجودًا.

- تمامًا.

- ولكن، بناءً على ما رويته لي، الهويّة التي تمّ شطبها كانت من صنع الخيال أساسًا، ابتكارًا من صنع فيرمين نفسه خلال الحرب كي يحمي نفسه.

- تمامًا.

- وهنا تمامًا إذ أضيّع الخيط. ساعدني يا دانيال. إن كان فيرمين قد ابتكر لنفسه هويّة مزيّفة ذات مرّة، فما الذي يمنعه الآن من استخدام أخرى ليتسنّى له الزواج؟

- لسببين أيّها البروفسور. الأوّل عمليٌّ محض: سواءٌ استخدم اسمه أو اسمًا مبتكرًا، فإنّ فيرمين لا يمتلك هويّةً ذات تأثير، لذا فإنّ أيّ هويّة يقرّر استخدامها لا بدّ أن تكون مصنوعةً من الصفر.

- لكنّه ما زال يريد الحفاظ على كونه فيرمين على ما أعتقد.

- صحيح. وهذا هو السبب الثاني، ليس عمليًّا لكنّه روحانيّ، إذا صحّ التعبير، وهو على درجة قصوى من الأهميّة. فيرمين يريد الحفاظ على كونه فيرمين لأنّه الشخص الذي وقعت برناردا في غرامه، ولأنّه الشخص الذي صار صديقنا، والذي بتنا نعرفه جيّدًا، والذي يريد هو نفسه أن يبقى عليه. إذ لم يعد الشخصُ الذي كان عليه في الماضي موجودًا منذ أعوام. كأنّه جلدٌ خلّفه وراء ظهره. حتّى أنا، باعتباري صديقه المفضّل على الأرجح، لا أعرف ما الاسم الذي اعتمدته العائلة له إبّان المعموديّة. بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلى كلّ أولئك الذين يكنّون له المودّة، وبالنسبة إليه نفسه، هو فيرمين روميرو دي توريس. باختصار، إن كان من الواجب خلق هويّة جديدة له، فلماذا لا يتمّ خلق هويّته نفسها؟

أومأ البروفسور ألبوركركي في النهاية.

- صحيح. - صرّح.

- فهل ترى العمليّة ممكنةً أيّها البروفسور؟

- حسنٌ، إنّها مهمّةٌ دونكيشوتيّةٌ نادرةٌ قلّ نظيرها. - قيّم البروفسور - كيف نزوّد النبيل النحيل الدون فيرمين دي لا مانشا دي كاستا، بكلب صيد وملفٍّ من الوثائق المزوّرة كي يتزوّج من خلالها، تحت أعين الربّ ومكاتب الدولة المدنيّة، بجميلته برناردا دل توبوسو؟

- تمعّنتُ في الموضوع، ورجعتُ إلى كتب القانون. - قلت - إنّ هويّة الفرد في هذا البلد تبدأ بشهادة ميلاد، وهي وثيقة في منتهى البساطة، إذا درسناها جيّدًا.

قطّب البروفسور حاجبيه.

- ما تقترحه حسّاسٌ جدًّا. كي لا نقول إنّه يُعَدُّ جريمةً كبرى، أكبر من بيتٍ برمّته.

- لكنّها غير مسبوقة، في المنشورات الحقوقيّة السنويّة على الأقلّ. لقد تحقّقتُ من ذلك.

- تابع، فالأمر يهمّني.

- فلنفترض أنّ أحدهم - على سبيل الافتراض - تمكّن من إيجاد منفذ إلى مكاتب الدولة المدنيّة، واستطاع - فلنقل - أن يركّب شهادة ميلاد في الأرشيف... ألا يمكن لهذه الشهادة أن تكون دليلًا كافيًا لإثبات هويّة شخصٍ ما.

هزّ البروفسور رأسه.

- قد يكون هذا ممكنًا لحديث الولادة، ولكن إذا تعلّق الأمر بمن بلغ سنّ الرشد - على سبيل الافتراض - فسيكون من الضروريّ خلقُ تاريخٍ وثائقيّ من ألفه إلى يائه. وحتّى لو تمكّنتَ من إيجاد ذلك المنفذ - على سبيل الافتراض - إلى الأرشيف، فمن أين ستأتي بكلّ تلك الوثائق؟

- فلنقل إنّه بالإمكان تكوين سلسلة من النسخ المعقولة. هل ترى الأمر ممكنًا؟

تمعّن البروفسور طويلًا.

- الخطر الجوهريّ يكمن في أن يكتشف أحدهم الحيلة ويسعى إلى فضحها. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الطرف المهدِّد، في هذه الحالة، الذي من شأنه أن يكشف ما سنسمّيه رخاوةَ الوثائق، ميّتٌ أصلًا، فإنّ المشكلة ستقتصر على التالي: أوّلًا، النفاذ إلى الأرشيف وإدخال ملفٍّ، بتاريخ وثائقيّ لشخصيّة متخيّلة لكنّها محقّقة، في سجّلات النظام. ثانيًا، تكوين سلسلة من الوثائق الضروريّة لإثبات

تلك الهويّة. أتحدّث عن وثائق من كلّ نوع وضرب، من شهادات المعموديّة في الدوائر الخوريّة إلى شهادات...

- بالنسبة إلى النقطة الأولى، يتّضح لي أنّ حضرتك، بتوكيل من المقاطعة، تعمل على كتابة مجموعة مقالات حول أعاجيب النظام القضائيّ الإسبانيّ لصالح منشورات المؤسّسة. تقصّيتُ قليلًا واكتشفتُ أنّ كثيرًا من أقسام الأرشيف في مكاتب الدولة المدنيّة قد تعرّضت للدمار، بسبب القصف أثناء الحرب. ما يعني أنّهم اضطروا لإعادة تكوين مئات، بل آلاف الهويّات في أحسن الأحوال. لستُ خبيرًا، لكنّي أجرؤ على التصوّر أنّ هذا من شأنه أن يفتح منفذًا لمن لديه خبرةٌ ومعلومات، باستخدام شبكة معارف واعتماد خطّة معيّنة، من الممكن استثمارها...

نظر إليّ البروفسور خلسةً.

- أرى أنّك قمتَ بعملٍ استقصائيّ حقيقيّ يا دانيال.

- اعذر تطاولي أيّها البروفسور، لكنّ سعادة فيرمين بالنسبة إليّ تساوي ذلك وأكثر.

- هذا شرفٌ لك. ولكن قد تكون الكلفة تهمةً ثقيلة لمن يحاول تحقيق شيء من هذا القبيل ويتمّ اكتشافه متلبّسًا.

- ولهذا فكّرتُ في ما لو كان أحدهم - على سبيل الافتراض - لديه منفذ إلى أحد أقسام الأرشيف المرمّمة في مكاتب الدولة المدنيّة، يمكنه اصطحاب مساعدًا، فلنقل إنّه يتحمّل تبعات الجزء الأخطر من العمليّة.

- لا بدّ أن يكون المساعد المفترض، والحال هذه، قادرًا على إكرامِ مُيسِّر المّهمة بتخفيضٍ بنسبة عشرين بالمئة على سعر كلّ كتابٍ

يبتاعه من مكتبة سيمبيري وأبناؤه على مدى الحياة. إضافةً إلى دعوة لحضور عرس المولود.

- لا مشكلة من هذه الناحية. بل بإمكاني أن أخفِّض حتّى الخمسة والعشرين بالمئة. مع أنّني أعرف أنّ هناك مَن هو مستعدٌّ للتعاون لما فيه خير الجميع، ومن دون الحصول على أيّ مقابل، لا لشيء سوى لأنّه يودّ، على سبيل الافتراض، تسجيل هدفٍ في مرمى نظامٍ فاسدٍ ومفسِد.

- إنّني رجلٌ أكاديميّ يا دانيال. الابتزاز العاطفيّ لا ينفع معي.

- من أجل فيرمين إذن.

- هذه قصّة أخرى. فلننتقل إلى الجوانب التقنيّة.

أخرجت قطعة المئة بيسيتا الورقيّة التي أعطاها سالغادو لي، وأريتُها للبروفسور.

- هذه هي ميزانيّتي لتغطية تكاليف الحملة. - أوضحتُ.

- أرى أنّك لا تحرص على الإنفاق، لكنّك ستحصل على خدماتي مجّانًا، فاحتفظ بهذه الأموال، ستكون بحاجة إليها في هذه العمليّة. - أجاب البروفسور - الجزء الذي يشغل بالي، يا مساعدي النجيب، هو اضطرارنا لإحداث مؤامرة وثائقيّة. فالقادة الجدد في النظام، ناهيك بالمستنقعات والكتيّبات المقدّسة، ضاعفوا الهيكل البيروقراطيّ، المعطوب في حدّ ذاته، حتّى أصبح مناسبًا لأسوأ كوابيس صديقنا فرانس كافكا. كما قلت لك سابقًا، في حالةٍ من هذا النوع ينبغي لنا ابتكار مختلف الرسائل والبرقيّات والتوسّلات وما هنالك من وثائق يتقبّلها العقل وتتمتّع بصلابةٍ ونبرةٍ ورائحةِ ملفٍّ بالٍ ومغبرٍّ ومن الصعب دحضه...

- لدينا مَن يغطّينا في هذا المجال...

- يجدر بك أن تفيدني بلائحة المتواطئين في هذه المؤامرة، كي أطمئنّ من عدم التحايل.

شرحتُ له بقيّة الخطّة.

- من الممكن أن تنجح. - ختم قائلًا.

وما إن وصل الطبق الرئيس، حتّى غيّرنا الموضوع وسلكت المحادثة دروبًا أخرى. وإذ حان موعد القهوة، لم أعد أتمالك نفسي، مع أنّني استطعتُ أن ألجم لساني طوال فترة الغداء. فطرحتُ السؤال، متظاهرًا بأنّ الأمر ليس له أيّ أهميّة عندي.

- بالمناسبة أيّها البروفسور. جاءنا زبون إلى المكتبة منذ يومين، وروى لي شيئًا ما فقفز اسم ماوريسيو ڤايس، وزير التعليم وباقي ما تبقّى. ما الذي تعرفه عنه؟

قوّس البروفسور أحد حاجبيه.

- عن ڤايس؟ أعرف ما يعرفه الجميع.

- لا بدّ أنّك تعرف عنه أكثر من الجميع، أيّها البروفسور.

- حسنٌ، الحقّ يقال إنّني لم أعد أسمع بهذا الاسم منذ مدّة، لكنّ ماوريسيو ڤايس كان شخصيّة ملحوظة في الآونة الأخيرة. وكما قلتَ أنت، كان ڤايس وزيرنا القدير والشهير عدّة سنوات، ومديرًا لمختلف المؤسسات والمنظومات، له وزنه في النظام ويحظى بمكانة مرموقة في الوسط، كما أنّه كان عرّابًا للكثيرين، وضيفًا مدلّلًا لدى الصفحات الثقافيّة في الصحافة الإسبانيّة... كما قلتُ لك، شخصيّة مشهورة.

ابتسمتُ ابتسامة ضعيفة، كأنّ المفاجأة بدت لي مستحسنة.

- والآن لم يعد كذلك؟

- دعني أقول بصراحة إنّه قد اختفى من الأجواء منذ مدّة، أو من الوسط العام على الأقلّ. لا أدري إن كانوا قد أوكلوه سفارة ما أو منصبًا في مؤسسة دوليّة، فأنت تعرف كيف تجري هذه الأمور، ولكنّي في الحقيقة لا أعرف ما آل إليه في هذه الأنحاء. . . أعرف أنّه أنشأ دار نشر مع عدّة شركاء منذ عام. ومشروعه هذا يجري على قدم وساق ويواصل النشر. وبالفعل، لا يمرّ شهرٌ إلا واستلمتُ دعواتٍ إلى تقديم كتبٍ من العناوين التي يصدرها. . .

- وهل يشارك ڤايس شخصيًّا بهذه التقديمات؟

- في السابق، أجل. لطالما ضحكنا لأنّه يتحدّث عن نفسه أكثر ممّا يتحدّث عن الكتاب أو المؤلّف الذي يقدّمه، لكنّ ذلك كان قبل أعوام. لم أعد أصادفه منذ زمن. هل لي أن أسألك عن سبب اهتمامك به يا دانيال؟ لم أكن أعتقد أنّك فضوليٌّ بشأن الدائرة الصغيرة التي تضمّ أدباءنا المتعجرفين.

- فضول لا أكثر.

- حقًّا.

وبينما كان البروفسور ألبوركركي يدفع الحساب، كان ينظر إليّ خلسةً.

- لماذا يبدو لي دائمًا أنّك لا تقول نصف الحقيقة فحسب، بل أقلّ من ربعها؟

- سأقصّ عليك ما تبقّى يومًا ما أيّها البروفسور. وعدٌ منّي.

- هذا أفضل، لأنّ المدن ليست لها ذاكرة، وتظلّ بحاجة دائمة إلى رجلٍ مثلي، حكيم لا يسهو، كي يحافظ على ذاكرتها حيّة.

- الشرط هو التالي: حضرتك تساعدني في حلّ قضيّة فيرمين،

وأنا أقصّ عليك يومًا ما بعض الأشياء التي تفضِّل برشلونة نسيانها. من أجل تاريخها السريّ.

مدّ البروفسور يده نحوي فصافحتُها.

- كلمة شرف منك. والآن، بالعودة إلى فيرمين والوثائق التي علينا إخراجها من القبّعة...

- أعتقد أنّ لديّ الرجل المناسب لهذه المهمّة. - اقترحتُ.

٦

أزفالدو داريو دي مورتنسن، أمير الكتّاب العموميّين في برشلونة، أحد معارفي القدامى، كان يتنعّم باستراحة الظهيرة في كوخه، بجانب بالاسيو دي لا فيرينا، يتذوّق القهوة والسيجار، عندما رآني آتيًا إليه، فحيّاني بيده.

- عودة الابن الضالّ. هل غيّرت الفكرة؟ هل سننغمس في كتابة رسالة الحبّ تلك التي ستؤمّن لك مدخلًا إلى المكامن المحرّمة للدجاجة الفتيَّة الشبقة؟

أريته خاتم الزواج، فأومأ متذكّرًا.

- المعذرة. أقول هذا بحكم العادة. حضرتك من الطراز القديم. ما الذي بوسعي فعله من أجلك؟

- أمس الأوّل تذكّرتُ لماذا كان اسمك مألوفًا بالنسبة إليّ، يا دون أزفالدو. إنّني أعمل في مكتبة، وقد وجدتُ روايةً لك من العام ١٩٣٣ «فرسان المغيب».

انقضّت الذكرياتُ على أزفالدو، فابتسم من مرارة الشوق.

- يا لذاك الزمان! لقد سرقني ناشراي اللعينان، باريدو وإسكوبياس، حتّى الفلس الأخير. آمل أن يتغمّدهما الشيطان بلعنته

ويسجنهما في ملكوته. لكنّ أحدًا لا يستطيع أن ينزع من ذاكرتي المتعة في كتابة تلك الراوية.

- إن أتيتُك بها يومًا ما، فهلّا كتبتَ لي إهداءً عليها؟

- بالطبع. إنّها جوهرتي الأدبيّة. لم يكن العالم مستعدًّا بعد لآداب رعاة البقر، لاسيّما إذا كانت أحداثها تدور في دلتا نهر الإبرو، وأبطالها من المجرمين الذين يستقلّون الزوارق بدلًا من الأحصنة، وفيها بعوضٌ أكبر من البطيخ حجمًا.

- حضرتك بمثابة زان غري الكتالونيّ.

- كان هذا سيسعدني حقًّا. ما الذي بوسعي فعله من أجلك أيّها الفتى؟

- أن تهبني من فنّك ومهارتك لإنجاح عمليّة بطوليّة للغاية.

- كلّي آذان صاغية.

- أحتاج إلى مساعدتك في خلق ماضٍ وثائقيّ لأحد أصدقائي كي يتمكّن من إمضاء عقد الزواج بالمرأة التي يحبّ، بلا عوائق قانونيّة.

- هل هو رجلٌ طيّب؟

- الأفضل من بين الذين عرفتُهم.

- لن نتجادل إذن. فلطالما كانت المشاهِد المفضّلة عندي هي المخصّصة للزفاف والمعموديّة.

- سنكون في حاجة إلى برقيّات وتقارير وطلبات وشهادات وشراكات رائعة.

- لا مشكلة. سنفوّض جزءًا لوجستيًّا إلى لويسيتو، وحضرتك تعرفه مسبقًا، فهو شخص جدير بالثقة التامّة، ناهيك بكونه فنّانًا يتقن اثنتَي عشرة طريقة في التخطيط.

أخرجتُ من جيبي القطعة الورقيّة، المئة بيسيتا، التي رفضها البروفسور، وأعطيتها له. جحظت عينا أزڤالدو حتّى صارتا مثل طبقين وسرعان ما غلّها في جيبه.

- ثمّ يأتيك مَن يقول إنّه يستحيل العيش من مهنة الكتابة في إسبانيا. - قال.

- هل يكفي هذا المبلغ لتغطية نفقات العمليّة؟

- يكفي ويزيد. عندما أنتهي من تنظيم الأمر برمّته، سأخبرك بدقّة كم كلّفنا هذا المقلب. أمّا الآن، وبحسبة تقريبيّة، يمكنني التكهّن بأنّ خمسة وسبعين بيسيتا ستكون كافية.

- سأترك القرار لك يا سيّد أزڤالدو. صديقي البروفسور ألبوركركي...

- قلمٌ عظيم. - قاطعني أزڤالدو.

- فضلًا عن كونه جنتلمان. كنتُ أقول إنّ البروفسور سيعرّج إلى هنا ليعطيك قائمةً بالوثائق الضروريّة والتفاصيل الأخرى. إن احتجتَ إلى أيّ شيء، وجدتَني في مكتبة سيمبيري وأبناؤه.

أشرق وجهه بسماعه ذلك الاسم.

- المكان المقدّس. كنت أقصد إليه في شبابي كلّ يوم سبت، ليفتح السيّد سيمبيري عينيّ على العالم.

- جدّي.

- لم أعد أتردّد إلى المكتبة منذ زمن طويل، لأنّ أوضاعي الماديّة تحت الحدّ الأدنى، لذا توجّهتُ إلى الاستعارة من المكاتب العامّة.

- شرِّفْنا بالعودة إلى المكتبة يا دون أزڤالدو! فالمكتبة بيتك، ولن نختلف على الأسعار معك إطلاقًا.

- سأفعل.

مدّ يده نحوي فصافحتها.

- شرفٌ كبير لي أن أتعامل مع آل سيمبيري.

- سيكون بيننا مزيدٌ من التعاون.

- وماذا عن ذلك الأعرج الذي كان يغازل واجهة محلّ المجوهرات بعينيه؟

- اكتشف بأنّ ليس كلّ ما يلمع ذهبًا. - قلت.

- علامة الأزمان...

٧

برشلونة، ١٩٥٨

وصل شهر يناير مرتديًا سماواتٍ نقيّة، وضوء متجمّد ينفض غبار الثلج على سطوح المدينة. وكانت الشمس تلمع كلّ يوم، وترجم واجهات المباني بشظايا الضوء والظلّ، في برشلونة الشفّافة التي تطوف فيها الحافلات ذات الطابقين بسقفها المكشوف، والترامات التي تخلّف هالة من البخار عند مرورها على السكك.

كانت أنوار الزينة تتلألأ بأكاليل من نارٍ ضاربةٍ إلى الزرقة على طرقات المدينة القديمة. كما أنّ الدعوات العذبة للسلام والإرادة الطيّبة، التي ترشح من أناشيد الميلاد باستمرار، عبْر مكبّرات الصوت الكثيرة المعلّقة على أبواب المحلات والمستودعات، كانت تلج إلى القلوب بما فيه الكفاية. حتّى إنّ ضابط الحرس غفر لأحد المشاكسين، إذ خطر في ذهنه أن يغلّ القبّعة برأس يسوع الطفل في مجسّم الميلاد الذي نصبته البلديّة في ساحة سان خايمي؛ وبدل أن يصفعه ويسحله إلى المخفر، أغمض عينًا إلى أن أعلم أحدُهم الأسقفيّةَ بما جرى فتدخّلت ثلاث راهبات لإصلاح الضرر.

صعد مؤشّر المبيعات إبّان الميلاد، وبشّرتنا النجمة المذنَّبة على هيئة أرقام من حبرٍ أسود، في سجلّ حسابات سيمبيري وأبناؤه، بأنّنا كنّا سنواجه فواتير الكهرباء والتدفئة على الأقلّ، وإذا حالفنا الحظ فسنستطيع تحضير وجبة ساخنة مرّةً في اليوم على الأقلّ. بدا أنّ والدي استعاد شجاعته، وأصدر مرسومًا بأنّنا في العام المقبل لن ننتظر حتى اللحظة الأخيرة لتزيين المكتبة.

- ستُكتَب علينا مجسّمات الميلاد لفترة طويلة. - غمغم فيرمين بحماسة معدومة.

وبعد أن مرّ عيد الملوك الثلاثة [٦ يناير]، أعطانا والدي تعليماته بتفكيك المجسّم وصندقته بعناية، وإنزاله إلى القبو.

- برفق. - نبّهنا - لا تأتِ لتقول لي بأنّ الصناديق انزلقت من بين يديك عن طريق الخطأ يا فيرمين.

- مثل الذهب يا سيّد سيمبيري. أجيب بنزاهة مجسّم الميلاد وكلّ الماشية التي تعمل بجوار المسيح المغطّى باللفافات.

بعد أن أفسحتُ المجال للصناديق التي تحتوي على كلّ زينة الميلاد، توقّفتُ لحظةً لإلقاء نظرة على القبو وزواياه المنسيّة. في آخر مرّة كنّا هناك، سلكت المحادثة دربًا لم نشأ أنا وفيرمين أن نسير فيه، لكنّه ظلّ حاضرًا، في الذاكرة على الأقلّ. بدا أنّ فيرمين قرأ أفكاري فهزّ رأسه.

- لا تقل لي إنّك ما زلتَ تفكّر في رسالة ذلك المتصابي.

- بين الفينة والأخرى.

- ولم تتحدّث بهذا الشأن مع السيّدة بياتريز؟

- لا. أرجعتُ الرسالة إلى جيب معطفها ولم أفتح فمي.

- وماذا عنها؟ ألم تخبرك بأنّها تلقّت رسالة من الدون جوان تينوريو؟

هززتُ رأسي نافيًا. جعّد فرمين أنفه، كأنّه يقول إنّه لا يرى بشارة خير في ذلك.

- هل قرّرتَ ما الذي ستفعله؟

- بخصوص ماذا؟

- لا تتغابَ يا دانيال. هل ستلاحق زوجتك إلى الموعد مع ذلك الفرد كي تُحدِث فضيحة أم لا؟

- حضرتك تفترض أنّ زوجتي ستذهب إليه. - اعترضتُ.

- وأنت، ألا تفترض ذلك؟

أخفضتُ نظري، متضايقًا من نفسي.

- أيُّ نوعٍ من الرجال أولئك الذين لا يثقون بزوجاتهم؟ - سألته.

- هل تريد منّي أن أعطيك أسماءهم وكناهم، أم تكفيك إحصائيّة؟

- أنا أثق ببيا. لن تكون لتخونني. هي ليست من هذا الصنف. لو كان لديها ما تقوله لي، لقالته لي وجهًا لوجه، بلا مراوغات.

- فلا داعي للقلق إذن، أليس كذلك؟

كان شيء ما في نبرة فيرمين يدفعني للتفكير في أنّ شكوكي وهواجسي أثارت في نفسه الخيبة. ومع أنّه لم يكن ليقرّ بذلك، فإنّه كان حزينًا لأنّني أهدر الساعات في أفكار شؤم وأشكّ في نزاهة امرأةٍ لا أستحقّها.

- أنت تفكّر أنّني غبيّ، يا فيرمين.

نفى بهزّةٍ من رأسه.

- بل أعتقد أنّك رجلٌ محظوظ، في الحبّ على الأقلّ، وأنّك لا تدرك ذلك، مثل جميع المحظوظين أمثالك.

استدعى انتباهنا طرقٌ على الباب في أعلى السلّم.

- أسديا إليّ معروفًا بالصعود حالًا، فلدينا الكثير من العمل، اللهم إلّا إذا اكتشفتما النفط هناك في الأسفل. - صاح والدي.

تنهّد فيرمين.

- منذ أن انتهت أزمة الحسابات، أصبح والدك طاغية. - قال - المبيعات تبثّ الفرحة في قلبه. وها هو من سيّئ إلى أسوأ...

كانت الأيّام تمضي بالقطّارة. وافق فيرمين في النهاية على تفويض والدي والدون غوستابو ترتيبات الزفاف وتفاصيل المأدبة، وما كان منهما إلّا أن تسلّما دور الأبوّة والتسلُّط. أمّا أنا، بصفتي إشبين العريس، فعملتُ مستشارًا في الهيئة الإداريّة، بينما كانت بيا تقوم بوظائف المديرة الفنيّة التي تنسّق مع جميع الأشخاص المعنيّين بقبضةٍ حديديّة.

- فيرمين، تأمرنا بيا بالذهاب إلى كاسا بنطليوني كي تجرِّب الفستان.

- يكفي ألّا يكون الفستان مخطّطًا...

حلفتُ له مرارًا وتكرارًا بأنّ اللحظة لن تحين إلّا وكان اسمه معرَّفًا في القانون، وأنّ صديقه القسّ عندما سيصدح بـ«فيرمين، هل تريد برناردا زوجةً لك»، لن ننتهي في الثكنة العسكريّة جميعًا. ورغم ذلك، كان فيرمين عرضةً للقلق والهمّ كلّما اقترب موعد العرس. وكانت برناردا تصارع التشويق بقوّة الأدعية وحلوى التوسينو، مع أنّها منذ أن تثبّتت من حملها عن طريق طبيب موثوق وقدير، باتت

تقضي جزءًا كبيرًا من أيّامها في مقارعة الغثيان، ما يولِّد انطباعًا بأنّ نجل فيرمين كان آتيًا إلى الدنيا متلهّفًا لخوض الحروب.

كانت تلك الأيّام تمضي بهدوءٍ وهميّ، لكنّني تحت السطح استسلمتُ لتيارٍ مقلقٍ وغامض، يسحبني ببطء إلى أعماقِ إحساسٍ جديد لا يمكن مقاومته: الحقد.

ففي أوقات الفراغ، ومن دون إخبار أحد بالجهة التي أذهب إليها، كنت أهرع إلى الجامعة في شارع كانودا لاقتفاء أثر ماوريسيو ڤايس في أرشيف الصحف وموارد اللوائح. تحصّلتْ تلك الصورةُ، التي ظلّت بالنسبة إليّ مشوّشةً وعديمة الأهميّة على مدى أعوام، تحصّلتْ على وضوحٍ ودقّة تبعث على الألم يومًا بعد يوم. كانت أبحاثي تعدني بإعادة بناء الملامح العامّة لڤايس شيئًا فشيئًا، في السنوات الخمس عشرة الأخيرة. مرّ زمن طويل منذ أن بدأ غرًّا في صفوف النظام. ومع مرور الوقت، وبفضل علاقاته الطيّبة، شهد الدون ماوريسيو ڤايس على تحقيق أمنياته، وصار نجمًا ساطعًا في سماوات إسبانيا الفنيّة والأدبيّة؛ هذا إذا صدقتِ الصحفُ بما تقول (الأمر الذي يقارنه فيرمين بتصديق أنّ مشروب الفانتا آتٍ من عصير البرتقال البلنسيّ الطازج).

وكان من المستحيل الوقوف في وجه طموحه الصاعد. فاعتبارًا من العام ١٩٤٤ أخذ يتقلّد المناصب والمهام الرسميّة ذات الأهميّة البارزة في عالم المؤسسات الأكاديميّة والثقافيّة في هذا البلد. وتضاعفت أعداد مقالاته وخطاباته وإصداراته. فلا وجود لمنافسة أو مناظرة أو ندوة ثقافيّة محترمة إلّا وكانت مشاركة الدون ماوريسيو وحضوره ضروريّين فيها. وفي العام ١٩٤٧، أنشأ الشركة العامة

للمطبوعات «أريادنا»، مع شريكين اثنين، وافتتح مكاتبها في مدريد وبرشلونة، وباتت الصحافة لا تجد حرجًا في تطويبها علامةً فارقةً ومرموقةً في الأدب الإسبانيّ.

عام ١٩٤٨، أخذت الصحافة ذاتها تشير إلى ماوريسيو ڤايس اعتياديًّا بصفته «المفكّر الأكثر تألّقًا وإجلالًا في إسبانيا الجديدة». وبدا أنّ المفكّرين المزيّفين في البلد، وأولئك الذين يتطلعون لدخول تلك الدائرة، بدا أنّهم يعيشون قصّة حبّ مؤثّرة مع الدون ماوريسيو. وكان الصحفيّون في الأقسام الثقافيّة يذوبون امتداحًا وتزلّفًا، طلبًا لهباته، وللتعاون مع داره الناشرة - إن كانوا محظوظين - لإصدار أحد أعمالهم المهملة في الأدراج، لعلّهم يصبحون جزءًا من المخدع الرسميّ ليتسنّى لهم تذوّق العسل الثمين، طالما تعلّق الأمر بالفتات.

تعلَّم ڤايس قواعد اللعبة، وكان من القلائل الذين هيمنوا على الرقعة. وفي بداية الخمسينيّات، اجتازت شهرتُه الدوائر الرسميّة، وبدأ تأثيره يخترق ما يسمّى بالمجتمع المدنيّ وموظّفيه الكبار. وأصبحت شعارات ماوريسيو ڤايس رمزًا للحقائق الساطعة التي تبنّاها، وردّدها كالتلاميذ المثابرين، المواطنون المنتمون جميعًا إلى الطبقة الضيّقة المؤلّفة من ثلاثة أو أربعة آلاف إسبانيّ ممّن يتلهّفون التباهي بأنّهم مثقّفون كي ينظروا إلى مواطنيهم الآخرين باستعلاء.

وعلى امتداد صعوده نحو القمّة، جمّع ڤايس حوله دائرة ضيّقة من الشخصيّات الرفيعة يعتاشون من يده ثمّ يتربّعون على هرم المؤسسات ومناصب السلطة. وإذا تجرّأ أحدهم على وضع كلمات ڤايس أو قيمته موضع نقاش، انبرى الصحفيّون في مهاجمته وتعذيبه بلا هوادة. وبعد تقبيح المسكين والتشهير به، كانوا يهمّشونه ليغدو

منبوذًا غيرَ جديرٍ بالذكر، متسوِّلًا تُصفَق الأبوابُ في وجهه، بحيث لا يتبقّى أمامه من مصائر ممكنة سوى النسيان أو المنفى.

قضيتُ ساعات لا تنتهي في القراءة، بين السطور وفوقها، وقارنتُ كثيرًا من القصص والنسخ بعضها ببعض، وصنّفتها بحسب التواريخ وخرجتُ بلائحةٍ من النجاحات والجثث المخفيّة في الخزائن. لو كان موضوع دراستي أنثروبولجيًا صرفًا، في ظروف مغايرة، لرفعتُ القبعة للدون ماوريسيو على براعته الفذّة في اللعب. ما من سبيلٍ لإنكار مهارته في قراءة قلوب مواطنيه ونفوسهم، وفي العزف على الأوتار التي تهيّج غرائزهم وآمالهم وتصوّراتهم.

وإن تبقّى لديّ شيء، بعد أيّام متواصلة من الغوص في النسخة الرسميّة لحياة ڤايس، فهو اليقين بأنّ آليّة تشييد إسبانيا الجديدة كانت في طور الاكتمال، وأنّ ظاهرة ارتقاء الدون ماوريسيو لهرم السلطة وهياكلها كانت تمثّل نموذجًا بارزًا يبدو أنّه سيستمرّ في المستقبل وسيبقى حيًا بلا شكّ حتّى لو سقط النظام، بل كان من شأنه أن يرسّخ جذوره العميقة والوطيدة على كامل التراب الوطنيّ لعقود آتية.

اعتبارًا من العام ١٩٥٢، بلغ ڤايس القمّة، متقلّدًا منصب الوزير، الذي استغلّه بغية تعزيز هيمنته وتثبيت أزلامه في المفاصل النادرة التي لم يتمكّنوا بعد من الوصول إليها. اتّسمت نبرته في الاستعراض على الملأ برتابةٍ لامعة. وباتت كلماته تُقتَبس على أنّها منهلٌ للمعرفة واليقين. وصار حضوره واجبًا في لجان التحكيم والمحاكم وشتّى أنواع الهيئات الرفيعة. وكانت ترسانته من الشهادات وأكاليل الغار والنياشين تنمو بلا توقّف.

وفجأةً، يحدث أمرٌ غريب.

لم ألحظه في القراءات الأولى. إذ كان سيل الإشادات والأخبار عن الدون ماوريسيو ينساب بلا عوائق، ولكن ابتداءً من العام ١٩٥٦، يُلحَظ تفصيلٌ صغير، مدفون تحت كلّ تلك المعلومات، ويتناقض مع ما نُشِر منها قبل ذلك التاريخ. لم تتغيّر نبرة المقالات ولا محتواها، لكنّني من فرط قراءتها مرارًا والمقارنة بينها، انتبهتُ إلى ذلك التفصيل.

لم يعد الدون ماوريسيو ڤايس يظهر على العلن.

ظلّ محافظًا على رواج اسمه ومكانته وشهرته. هناك قطعة ناقصة لا غير: شخصه. لم تعد تظهر له صور أو إشارات على حضوره أو مراجعات مباشرة لمشاركته في الفعاليّات العامة، منذ العام ١٩٥٦.

الخبر الأخير الذي يتمّ فيه التنويه لحضور ماوريسيو ڤايس كان بتاريخ الثاني من نوفمبر ١٩٥٦، عندما تسلّم جائزة أفضل دار نشر في تلك السنة، خلال حفل تكريم مهيب في منتدى الفنون الجميلة في مدريد، بحضور مدراء من أعلى المستويات في السلطة وشخصيّات مدنيّة بارزة في تلك الآونة. كان نصّ المقالة يتّبع المفاهيم المعتادة والمتوقّعة من ذلك النوع، معتمدًا بالأساس على خبرٍ رسميّ منوطٍ بتعليق هيئة التحرير. غير أنّ الأمر الأكثر أهميّة يكمن في الصورة المشفوعة بالمقالة، الأخيرة التي يطلّ منها ڤايس للعيان، قبل أن يتمّ عامه الستّين بقليل. يظهر فيها مرتديًا زيًّا أنيقًا مكوّنًا من بذلة فاخرة الخياطة، متبسّمًا وهو يتلقّى استحسان الجمهور بكلّ تواضعٍ واحترام. وكان معه أشخاص معتادون في ذلك النمط من الفعاليّات، وهناك رجلان وراءه، بعيدان عن الأضواء المسلّطة نسبيًا، متمترسان خلف عدسات غامقة وبذلة سوداء، ويتّسمان بمظهر جدّيّ وحازم. لا يبدو أنّهما يشاركان في الحفل، بل كانت

تصرّفاتهما توحي بالصرامة، على هامش تلك المهزلة. حرسٌ خاصّ.

لم يعد أحدٌ يصوّر الدون ماوريسيو ڤايس أو يراه في العلن بعد تلك الأمسية في منتدى الفنون الجميلة. وعلى الرغم من بحثي الدؤوب، لم أتمكّن من العثور على أيّ ظهور آخر له. تعبتُ من الاستكشاف في دروب ميّتة، فعدتُ إلى البداية لأعيد بناء الشخصيّة كي أستطيع حفظها في الذاكرة كما لو كانت شخصيّتي. كنت أقتفي أثره آملًا بالعثور على موطئ أو دلالة تتيح لي التوصّل إلى حيث يوجد ذلك الرجل الذي يبتسم في الصور ويتجوّل مختالًا بغروره على صفحات كثيرة تكشف عن جوقةٍ خدومة ومتعطّشة لطلب المعروف. كنت أبحث عن الرجل الذي قتل والدتي لأخفي العار الذي على الرغم من أنّه واضح وجليّ، لا يبدو أنّ أحدًا كان قادرًا على الإقرار به.

تعلّمتُ الحقد في تلك الأمسيات التي قضيتها منعزلًا في المكتبة القديمة للجامعة حيث لم ينقضِ زمنٌ طويل على تكريس مخاوفي في مسائل أكثر نقاءً، مثل حبّي الأوّل والمستحيل، كلارا العمياء، أو ألغاز خوليان كاراكس وروايته «ظلّ الريح». وكلّما تبيّنتُ صعوبة تعقُّب أثر ڤايس، ازددتُ إصرارًا على عدم السماح له بحريّة الاختفاء ومحو اسمه من التاريخ. من تاريخي. كنت بحاجة إلى معرفة ما الذي آل إليه. كنت بحاجة إلى النظر في عينيه، حتّى لو كانت الغاية الوحيدة من ذلك تذكيرَه بأنّ أحدًا ما، الوحيد في هذه الدنيا، يعرف من أيّ طينةٍ هو حقًّا وله عِلمٌ بما اقترفت يداه.

٨

في عصر أحد الأيّام، ألغيتُ حجوزاتي في قسم الأرشيف، بعد أن تعبتُ من تعقُّب الأشباح، وخرجتُ للتنزّه مع بيا وخوليان في مدينة برشلونة التي صفا جوُّها وأشرقتْ شمسُها وكدتُ أنسى بهاءها ذاك. ذهبنا سيرًا على الأقدام من البيت إلى منتزه سوداديلا. جلستُ على أحد المقاعد ونظرتُ إلى خوليان وهو يلعب مع أمّه على المرج. وردّدتُ في سرّي كلمات فيرمين، وأنا أرنو إليهما. أنا، دانيال سيمبيري، رجلٌ محظوظ. رجلٌ محظوظٌ سمح لحقدٍ أعمى بالنموّ في سريرته حتّى انتابه الغثيان من نفسه.

حدّقتُ إلى ابني وهو يسلّم أمره لإحدى هواياته: يحبو حتّى يضيِّع وجهته. كانت بيا تتبعه عن قرب، فيما يتوقّف خوليان بين الحين والآخر وينظر صوبي. هبَّت الريح بغتةً فرفعتْ تنورة بيا فضحك خوليان. صفَّقتُ على المشهد، فرمقتني بيا بنظرة امتعاض. تلاقت عيناي بعيني ولدي، وفكّرتُ أنّه في القريب سيبدأ ينظر إليّ على أنّني الرجل الأكثر حكمةً وطيبةً في العالم، الرجل الذي يجيب عن كلّ الأسئلة. فقلت لنفسي آنذاك إنّه لا ينبغي لي ذِكر اسم ماوريسيو ڤايس ثانيةً، ولا تتبُّع ظلّه أبدًا.

جاءت بيا لتجلس بجانبي. فلحق بها خوليان وهو يحبو حتّى

المقعد. وعندما وصل إلى قدميّ، حملتُه بين ذراعيّ، فنظّف يديه بأكمام سترتي.

- لقد خرجتْ توًّا من المصبغة. - قالت بيا.

أبديتُ عدم اكتراثي وسلّمتُ أمري. استندت بيا إليّ وأمسكت بيدي.

- ما أجمل ساقيكِ. - قلت.

- لا أرى أيّ شيء يبعث على الضحك. ثمّ إنّ ابنك يتعلّم. لحسن الحظ أنّه لم يكن هناك أحد .

- حسنٌ، كان هناك جدٌّ لطيف، مختبئٌ خلف جريدة، وأعتقد أنّه كاد يموت بخفقة القلب.

قرّر خوليان أنّ عبارة «خفقة القلب» هي أكثر عبارة مسلّية سمعها في حياته، وقضينا جزءًا كبيرًا من رحلة العودة إلى البيت ونحن ندمدم «خف - قة/ خف - قة»، بينما كانت بيا ساخطةً تسبقنا بخطوات.

في مساء ذلك اليوم، العشرين من يناير، وضعت بيا خوليان في سريره، ثمّ غفت بجواري على الديوان، فيما كنت للمرّة الثالثة أقرأ رواية قديمة لدافيد مارتين، تلك التي عثر عليها فيرمين في شهور منفاه بعد هربه من السجن واحتفظ بها طوال تلك السنوات. كان يعجبني تذوُّق مسارها، وتجزئة بنيان كلّ جملة فيها، مقتنعًا بأنّني إذا فكّكتُ شيفرة موسيقى ذلك النثر، قد أكتشف شيئًا ما عن ذلك الرجل الذي لم أتعرّف عليه إطلاقًا، في حين أكّد لي الجميع أنّه ليس والدي. لكنّني لم أنجح في ذلك خلال تلك الأمسية. فقبل أن أنهي الجملة، كانت أفكاري تنأى عن الصفحة، بحيث لا أرى أمامي إلّا

رسالة بابلو كاسكوس بويندیا التي يحدِّد فيها موعدًا مع زوجتي في فندق ريتز في الساعة الثانية من اليوم القادم.

أغلقتُ الكتاب في النهاية، ونظرتُ إلى بيا تغفو بقربي، فتراءى لي فيها ألف سرٍّ يربو على أسرار قصص مارتين ومدينته المشؤومة، مدينة الملاعين. تجاوزت الساعة منتصف الليل عندما فتحت بيا عينيها ووجدتني متلبّسًا بمراقبتها. فابتسمت لي، مع أنّ شيئًا ما في تعابير وجهي أيقظ فيها ظلال الريبة.

- فيم تفكّر؟ - سألتْ.

- أفكّر كم أنا محظوظ. - أجبتُ.

حدّقت إليّ طويلًا، والشكّ يغلي في نظراتها.

- لا تبدو مقتنعًا بكلامك.

نهضتُ ومددتُ يدي نحوها.

- فلنذهب إلى السرير. - دعوتُها.

أخذت يدي وتبعتني في الممرّ حتّى الغرفة. استلقيتُ على السرير ونظرتُ إليها بصمت.

- تتصرّف بطريقة غريبة يا دانيال. ما الذي دهاك؟ هل قلتُ ما يزعجك؟

نفيتُ، وعرضتُ عليها ابتسامة بيضاء، ناصعة كالكذب. فأومأت بيا ونزعت ثيابها ببطء. لم تكن تولي إليّ ظهرها عندما تنزع ثيابها، ولم تكن تختبئ في الحمّام أو خلف الباب كما تنصح كتب الطهارة الزوجيّة التي عمّمها النظام. نظرتُ إليها صافي النفس، أقرأ ثنيّات جسدها. كانت بيا تنظر في عينيّ. تسربلت بالثوب الذي كنت أكرهه، واندسّت في السرير، موليةً إليّ ظهرها.

- ليلة سعيدة. - قالت بصوتٍ تشغله الحيرةُ، ومن لا يعرفها جيّدًا قد يحسَب تلك النبرة حادّة.

- ليلة سعيدة. - غمغمتُ.

بالاستماع إلى أنفاسها، فهمتُ أنّها استغرقت أكثر من نصف ساعة في ولوج النوم، لكنّ التعب في النهاية غلب سلوكي الغريب. بقيتُ هناك بجانبها، محتارًا إن كان عليّ إيقاظها لأعتذر منها، أم لأقبّلها ببساطة. لم أفعل أيّ شيء. بقيتُ متسمّرًا أنظر إلى انحناء ظهرها، وأسمع ذاك الصوت المشؤوم في باطني يهمس لي بأنّ بيا كانت ستذهب بعد ساعات قليلة للقاء خطيبها السابق، وأنّ تينك الشفتين وهذا الجسد سيكون مِلكًا لرجلٍ آخر، مثلما لمّح في رسالته العاطفيّة.

كانت بيا قد ذهبت عندما استيقظتُ. لم أتمكّن من النوم إلّا عند الفجر، وعندما دقّت أجراس الكنيسة للساعة التاسعة، نهضتُ واثبًا وارتديتُ ما وجدتُه أمامي من ثياب. كان في انتظاري يومُ اثنين باردٌ يتناثر فيه غبار الثلج حائمًا في الجوّ ليلتصق على المارّة فيجعلهم أشبه بعناكب مضيئة ومعلّقة على خيوطٍ لا تراها العين. دخلتُ إلى المكتبة، فوجدتُ والدي يعتلي سلّمًا كان يصعد عليه كلّ يوم ليغيّر تاريخ التقويم. ٢١ يناير.

- لم تعد في الخامسة عشرة من عمرك كي تبقى أسير الأغطية يا دانيال. - قال - كان اليوم دورك في فتح المكتبة.

- المعذرة، كانت ليلة شنيعة. لن تتكرّر ثانيةً.

قضيتُ ساعتين وأنا أحاول أن أشغل بالي ويديّ بمهام المكتبة، لكنّ تلك الرسالة الملعونة أبت إلّا أن تخيّم على فكري، وما فتئتُ

أعيدها في سرّي مرارًا. اقترب منّي فيرمين على غفلة من والدي في آخر الصباح، وعرض عليّ حبّة من سكاكر السوغوس.

- الموعد هذا اليوم، أليس كذلك؟

- اسكت يا فيرمين. - قاطعتُه بحدّةٍ فوجئ بها والدي.

التجأتُ إلى المستودع وسمعتهما يغمغمان. جلستُ إلى منضدة والدي ونظرتُ إلى الساعة: الواحدة وعشرون دقيقة. أملتُ أن تمرّ الدقائق، لكنّ عقارب الساعة كانت تتحرّك بصعوبة. وعندما عدت إلى المحلّ، نظر إليّ والدي وفيرمين بقلق.

- دانيال، لعلّك لا تريد العمل بقيّة النهار. - اقترح والدي - سنتدبّر أمرنا فيرمين وأنا.

- شكرًا. أعتقد ذلك. لم أنم البارحة إطلاقًا، ولا أشعر أنّني على ما يرام.

لم أتملك من الشجاعة للنظر إلى فيرمين بينما كنت ألوذ بالفرار من جهة المستودع. صعدتُ الطوابق الخمسة كأنّ الرصاصَ وقودُ قدميّ. وعندما فتحتُ باب البيت، سمعتُ هدير الماء في الحمّام. جرجرتُ نفسي إلى الغرفة وتوقّفتُ عند العتبة. كانت بيا جالسةً على حافة السرير. لم ترني أدخل ولا سمعتْ خطواتي. وجدتُها تغلّ ساقيها بالجوارب الحرير، وترتدي ثيابها وعيناها مثبّتتان على المرآة. ولم تنتبه لوجودي إلّا بعد دقيقتين.

- لم أكن أدري أنّك هنا. - قالت بنبرة تتراوح بين المفاجأة والامتعاض.

- هل تخرجين؟

أومأت وهي تمرّر الأحمر على شفتيها.

- إلى أين تذهبين؟

- عليّ أن أقوم ببعض المعاملات.

- لقد تزيَّنتِ كثيرًا.

- لا أحبّ الخروج مهمَلة المظهر.

حدّقتُ إليها وهي تضيف الكحل على جفنيها. «يا لك من رجل محظوظ» صاح الصوت في داخلي، متهكِّمًا.

- أيُّ معاملات؟ - سألتها.

التفتت بيا ونظرت إليّ.

- ماذا؟

- سألتُك عن أيِّ معاملاتٍ عليك القيام بها.

- عدّة أشياء.

- وماذا عن خوليان؟

- جاءت والدتي واصطحبته معها للتنزّه.

- حقًّا.

اقتربت منّي، وتخلّت عن امتعاضها لتنظر إليّ بتوجُّس.

- دانيال، ما بك؟

- لم تغمض لي عين هذه الليلة.

- لم لا تغفو بقيلولة؟ ستساعدك.

أومأتُ بنعم.

- فكرة جيّدة.

ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجهها ورافقتني إلى الجانب الذي أنام عليه في السرير. وساعدتني على الاستلقاء، ورتّبت اللحاف وقبّلت جبيني.

- سأعود في وقت متأخر. - قالت.

نظرتُ إليها وهي تذهب.

- بيا. . .

توقّفت في منتصف الممرّ والتفتت.

- هل تحبّينني؟ - سألتها.

- أحبّك طبعًا. ما أغباه من سؤال!

سمعتُ الباب يُغلق، ثمّ سمعتُ طرق كعبيها الناعم يضيع على السلالم نزولًا. أمسكتُ بسمّاعة الهاتف، وانتظرتُ صوت موظّف الاتصالات.

- فندق ريتز، من فضلك.

حصلتُ على الاتصال بعد مرور ثوانٍ.

- *مساء الخير من فندق ريتز. كيف بإمكاني مساعدتك يا سيّدي؟*

- هل يمكنني التحقّق من وجود نزيلٍ لديكم، لو سمحت؟

- *هلّا أعطيتني اسمه يا سيّدي. . .*

- كاسكوس. بابلو كاسكوس بويندِيا. لا بدّ أنّه قد وصل البارحة. . .

- *لحظة من فضلك.*

دقيقةٌ طويلةٌ من الانتظار، همهمةُ أصوات، أصداءٌ على الخطّ.

- *سيّدي؟*

- أجل.

- *لا أجد أيّ حجزٍ باسم الشخص الذي أعطيتني إيّاه حتّى هذه اللحظة. . .*

غمرني شعورٌ هائلٌ بالرضا.

- ألا يمكن أن يكون الحجز مسجّلًا باسم مؤسسة؟

- *دقيقة واحدة كي أتحقّق.*

كان الانتظار قصيرًا هذه المرّة.

- *بالفعل، حضرتك على حقّ. السيّد كاسكوس بوينديا. ها هو. جناح كونتيننتال. الحجز على اسم دار النشر «أريادنا».*

- ماذا قلت؟!

- *كنت أقول إنّ السيّد كاسكوكس بوينديا حجز على حساب دار النشر «أريادنا». هل ترغب في أن أوصلك بالغرفة يا سيّدي؟*

انزلقت السمّاعة من بين يديّ. «أريادنا» هي دار النشر التي أسّسها ماوريسيو ڤايس قبل أعوام.

كاسكوس يعمل لمصلحة ڤايس.

خبطتُ السمّاعة لإنهاء المكالمة، وخرجتُ للحاق بزوجتي، وبات قلبي فريسةً للشكوك.

٩

لا أثر لبيا في زحام الناس بين باب الملاك وساحة كتالونيا في تلك الساعة. كان حدسي يخبرني بأنّ زوجتي ستختار تلك الطريق للذهاب إلى فندق ريتز، ولكن من الصعب التكهّن بقرارات بيا. إذ إنّها كانت تحبّ أن تجرّب طرقًا مختلفة لبلوغ أيّ غاية. توقّفتُ عن البحث عنها بعد قليل، وتصوّرتُ أنّها استقلّت سيّارة أجرة، فهي الوسيلة الأكثر تلاؤمًا مع الهندام الذي اختارته لتلك المناسبة.

استغرق منّي الوصول إلى الفندق ربع ساعة. ورغم أنّ حرارة الطقس كانت لا تعلو على العشر درجات، فإنّني كنت أتصبّب عرقًا منقطع الأنفاس. توجّه إليّ البوّاب بنظرة ارتياب، لكنّه فتح لي الباب وعبّر بانحناءة طفيفة. تشوّش ذهني عندما دخلتُ الردهة، التي توحي بسيناريوهات من طبيعةٍ تآمريّة وجاسوسيّة ممزوجة بقصّة حبّ عظيمة. ولم تساعدني خبرتي الضحلة بالفنادق الفاخرة على إدراك ما يحيط بي. تراءت لي مصطبة يقف خلفها موظّف دؤوب يرمقني بخليطٍ من الفضول والريبة. اقتربتُ منه وتوجّهتُ إليه بابتسامةٍ لم تحرّك فيه شيئًا.

- المطعم، من فضلك؟

تفحّصني الموظّف باحترامٍ يخفي شكوكه.

- هل السيّد قد حجز طاولة؟

- لديّ موعد مع أحد النزلاء في الفندق.

ابتسم الموظّف بفتور وهزّ رأسه.

- المطعم في نهاية ذلك الممرّ.

- ألف شكر.

مشيتُ وقلبي صار في جواربي. لم تكن لديّ فكرة عمّا كنت سأقوله أو أفعله إذا وجدتُ بيا صحبة ذلك الرجل. تقدَّم كبير الخدم نحوي واعترض طريقي بابتسامة مصفّحة. كانت نظراته تنمّ عن عدم استحسانه للباسي.

- هل لدى السيّد حجزٌ ما؟ - سأل.

نحّيتُه بيدي ودخلتُ إلى الصالة. كان القسم الأعظم من الطاولات فارغًا. ثمّة زوجٌ من العجزة، يبدو أنّهما من المومياءات، وأساليبهما تذكّر بتقاليد القرن التاسع عشر، توقّفا عن تذوّق حساء الخضار المهيب لينظرا إليّ باحتقار. وثمّة جلساء على طاولة أخرى، يبدو من مظهرهم أنّهم رجال أعمال، ومعهم نساءٌ كلّف اصطحابُهنّ فاتورة باهظة كنفقاتٍ لحسن التمثيل. لا أثر لكاسكوس أو بيا.

سمعتُ خطوات كبير الخدم وأزلامه من النُّدُل خلف ظهري. التفتُّ ورسمتُ على وجهي ابتسامةً رقيقة.

- ألم يحجز السيّد كاسكوس طاولة على الساعة الثانية؟ - سألتُ.

- السيّد طلب أن نقدِّم له الغداء في جناحه. - أعلمني كبير الخدم.

نظرتُ إلى الساعة: الثانية وعشرون دقيقة. فمشيتُ نحو الممرّ. كان أحد البوّابين يراقبني وجاء نحوي، إلّا أنّني اندسستُ في

المصعد قبل أن يصل إليّ. ضغطتُ على أحد أزرار الطوابق العليا، ولم يخطر في بالي أن لا فكرةَ لديّ عن مكان جناح كونتيننتال.

«ابدأ من الأعلى»، قلت لنفسي.

نزلتُ عند الطابق السابع، ورحت أطوف في ممرّات باهرة ومقفرة. وبعد قليل، وجدتُ بابًا يؤدّي إلى سلّم مضادّ الحرائق فنزلتُ منه إلى الطابق الأسفل. وبحثت عن جناح كونتيننتال من بابٍ إلى آخر دون أن يحالفني الحظّ. وجدتُ نادلة في الطابق الخامس، كانت تجرّ عربةً فيها معاطف وصابون ومناشف، وسألتها عن مكان ذلك الجناح. نظرت إليّ مرتاعة، لكنّي عمدتُ إلى إخافتها بما فيه الكفاية لتشير نحو الأعلى.

- الطابق الثامن.

آثرتُ تجنُّب المصاعد، لعلّ موظّفو الفندق بدأوا باقتفاء أثري. وبعد ثلاثة سلالم وممرّ طويل، وجدتُني عند باب جناح كونتيننتال، وأنا مبلّلٌ بعرقي. بقيتُ هناك حوالى الدقيقة، أحاول أن أتخيّل ما الذي يحدث في الجانب الآخر من ذلك الباب الخشبيّ النفيس، متسائلًا عمّا إذا كان التعقُّل سيسعفني لمغادرة المكان. بدا لي أنّ أحدًا يراقبني من الطرف الآخر للممرّ، وخشيتُ أن يكون أحد البوّابين. ولكنّي ما إن أنفذتُ بصري حتّى توارى الطيف خلف الزاوية، وتخيّلتُ أن يكون أحدَ نزلاء الفندق. طرقتُ الجرس في النهاية.

١٠

سمعتُ خطواتٍ تقترب من الباب. وتجلّت في ذهني صورة بيا وهي تعقد أزرار قميصها. دارَ القفلُ. شددتُ قبضتيّ. فُتِح الباب. رأيتُ رجلًا، مغطّس الشعر بالدهن اللمّاع، يرتدي لباسًا منزليًّا أبيض، وينتعل خفًّا ذا خمس نجوم. لا تُنسى الوجوهُ التي يُصمِّم المرء على كرهها، مهما انقضى من زمن.

- سيمبيري؟ - سأل مشدوهًا.

سدّدتُ لكمةً على وجهه، بين شفته العليا وأنفه. وأحسستُ باللحم والغضروف يُهرسان تحت براجم يدي. حمل كاسكوس يديه إلى وجهه وتلوّى. تسرّبت دماؤه من بين أصابعه. فدفعته بقوّة حتّى اصطدم بالجدار، وتقدّمتُ في الغرفة. شعرتُ أنّ كاسكوس يتداعى على الأرض خلف ظهري. كان السرير مرتّبًا، وثمّة طبق ساخن على الطاولة الموجّهة قبالة الشرفة التي تطلّ على شارع غران فيا. كانت الطاولة مُعدَّةً لشخص واحد. استدرتُ وواجهتُ كاسكوس الذي كان يحاول النهوض متشبّثًا بأحد الكراسي.

- أين هي؟ - سألتُ.

تشوّه وجهه من شدّة الألم. وكانت الدماء تسيل على وجهه وصدره. لقد هشّمتُ شفته، وأنفه أغلب الظنّ. تنبّهتُ إلى الحرق

الشديد على براجم يدي، وعندما نظرتُ إلى يدي رأيتُ أنّ جزءًا من بشرته ظلّ عالقًا عليها حينما حطّمتُ أنفه. لكنّني لم أشعر بالندم إطلاقًا.

- لم تأتِ. هل ارتحتَ الآن؟ - انفجر قائلًا.

- منذ متى تتفرّغ لكتابة الرسائل لزوجتي؟

بدا لي أنّه يضحك، فهاجمتُه من جديد قبل أن أعطيه الفرصة بالكلام. سدّدتُ إليه لكمةً أخرى بكلّ ما اختزنتُ من غيظٍ ونقمة. حطّمت الضربة أسنانه وأفقدتني الإحساس بيدي. توجّع كاسكوس وسقط على الكرسي الذي كان يستند إليه. رآني أنحني صوبه فغطّى وجهه بذراعيه. ثبتتْ يداي على عنقه، وشددتُ أصابعي كما لو كنت أنوي هرس حلقه.

- ما مدى علاقتك بڤايس؟

نظر إليّ كاسكوس بعينين مذعورتين، وبات مقتنعًا بأنّني سأقتله. تعتع بكلماتٍ غير مفهومة، فتلطّخت يداي بلعابه ودمه اللذين يقطران من فمه. فضغطتُ بقوّةٍ كبرى.

- ماوريسيو ڤايس. ما مدى علاقتك به؟

كاد وجهي يلامس وجهه، حتّى إنّي رأيتُ انعكاسي في بؤبؤ عينيه. كادت الشعيرات تنفجر تحت القرنيّة فيما فتحت شبكةٌ من خيوط سوداء طريقها نحو القزحيّة. انتبهتُ أنّني كنت أقتله، فتركتُه على حين غرّة. أصدر كاسكوس نحيبًا بلعوميًّا وهو يشهق، وحمل يديه إلى عنقه. فجلستُ على السرير قبالته. وكانت يداي ترتعشان ملطّختين بدمائه. ذهبتُ إلى الحمّام وغسلتُهما. بلّلتُ وجهي وشعري بالماء البارد. وعندما رأيتُني في المرآة، عرفتُني بالكاد. إذ كنت أوشك على قتل إنسان.

١١

عندما عدتُ إليه، كان كاسكوس ما يزال منهارًا على الكرسيّ، متقطّع الأنفاس. ملأتُ كأسًا من الماء وأعطيتها له. فصدّ مجدَّدًا، حين رآني أقترب، خوفًا من لكمة أخرى.

- خذ. - قلت.

فتح عينيه، وتردّد بضع ثوانٍ لمّا رأى الكأس.

- خذ. - أعدتُ - إنّها ماءٌ ليس إلّا.

أخذها منّي بيد مرتجفة وحملها إلى شفتيه. رأيتُ حينذاك أنّني حطّمتُ عددًا من أسنانه. توجّع كاسكوس وفاضت عيناه بدموع الألم حين تماسّت المياه الباردة مع لثّته تحت مينا السنّ. ومرّت دقيقةٌ في صمت.

- هل أستدعي لك طبيبًا؟ - سألته في النهاية.

رفع عينيه وهزّ رأسه.

- اذهب من هنا قبل أن أستدعي لك الشرطة.

- قلْ لي ما طبيعة العلاقة التي تجمعك بماوريسيو ڤايس، كي أنصرف.

ركّزتُ أنظاري الجامدة عليه.

- إنّه. . . إنّه أحد الشركاء في دار النشر التي أعمل فيها.

- هل طلب منك كتابة تلك الرسالة؟

تردّد كاسكوس. فنهضتُ وتقدّمتُ خطوةً تجاهه. وأمسكتُ بشعره وشددتُ بعنف.

- أرجوك، لا تضربني ثانيةً!

- هل طلب منك كتابة تلك الرسالة؟

تحاشى كاسكوس النظر في عينيّ مباشرةً.

- ليس هو. - استطاع أن يقول.

- فمن إذن؟

- أرميرو. أحد العاملين في مكتبه.

- من؟

- باكو أرميرو. موظّف في دار النشر. قال لي بأن أستعيد التواصل مع بياتريز. وإن فعلتُها، ثمّة مكافأة بانتظاري.

- ولماذا تستعيد التواصل مع بيا؟

- لا أدري.

تظاهرتُ بأنّني سأصفعه.

- لا أدري. - توجّع كاسكوكس - إنّها الحقيقة.

- ألهذا أعطيتها موعدًا هنا؟

- أنا ما زلت أحبّها.

- يا لها من طريقة جميلة لإظهار ذلك. أين ڤايس؟

- لا أدري.

- كيف لا تعرف أين يكون مديرك؟

- لأنّني لا أعرفه. أتفهمني؟ لم أره يومًا. لم أتحدّث معه إطلاقًا.

- فسِّرْ أكثر.

- بدأتُ العمل في أريادنا منذ عام ونصف، في مقرّ الدار في مدريد. ولم أره قطّ خلال كلّ ذلك الوقت. لم يره أحد.

نهض ببطء واتّجه نحو الهاتف. لم أوقفه. رفع السمّاعة، ورماني بنظرة حاقدة.

- سأتّصل بالشرطة...

- لا ضرورة لذلك.

كان الصوت آتيًا من ممرّ الغرفة. التفتُّ فرأيتُ فيرمين: يرتدي ما تخيّلتُ أنّه أحد ثياب والدي، ويرفع إلى الأعلى وثيقةً توحي بأنّها بطاقة رسميّة.

- المحقّق فيرمين روميرو دي توريس. شرطة. تلقّينا إبلاغًا بالإزعاج. من منكما يستطيع تلخيص ما جرى؟

لا أعرف من تشتّت ذهنه أكثر من الآخر، كاسكوس أم أنا.

انتهز فيرمين الفرصة لينزع السمّاعة برفق من يده.

- اسمح لي، حضرتك. - قال وهو يزيحه جانبًا - سأبلّغ المخفر.

تظاهر بأنّه يؤلّف رقمًا وابتسم لنا.

- المخفر، لو سمحت. أجل، شكرًا.

انتظر بضع ثوان.

- أجل يا ماري بيلي، أنا روميرو دي توريس. مرِّرْ لي بالاسيوس. حسنٌ، سأنتظر.

وبينما تظاهر فيرمين بالانتظار وغطّى السمّاعة بيده، أشار إلى كاسكوس.

- هل اصطدمت حضرتك بباب الحمّام، أم هنالك ما تودّ التصريح عنه؟

- لقد تهجَّم عليّ هذا المتوحّش وحاول قتلي. أريد أن أتقدّم بشكوى ضدّه مباشرة. سيدفع ثمنها غاليًا.

نظر إليّ فيرمين بتعبيرٍ جدّيّ وهز رأسه.

- بالفعل. غاليًا جدًّا.

تظاهر بأنّه يصغي إلى شيء ما في الهاتف وأشار لكاسكوس بالسكوت.

- أجل يا بالاسيسوس. في فندق ريتز. ٤٢٤. جريح واحد. في وجهه تحديدًا. بين بين. أرى أنّه أشبه بخارطة جغرافيّة. موافق. سألقي القبض متلبّسًا على المشكوك فيه.

أغلق الخطّ.

- حُلَّتِ المشكلة.

اقترب منّي فيرمين، ومسكني من ذراعي بحزمٍ وألزمني السكوت.

- لا تفتح فمك. فما ستقوله قد يتمّ استخدامه للزجّ بك في السجن حتّى عيد كلّ القدّيسين على الأقلّ. هيّا، فلنذهب!

كان كاسكوس، الذي أذهله الألم، وزاد حضور فيرمين من ارتباكه، كان يراقب المشهد كأنّه لا يصدّق ما يرى.

- ألن تقيِّده؟

- هذا فندق محترم. سنكبّل يديه بالحديد حالما نضعه في سيّارة الشرطة.

لم يقتنع كاسكوكس فاعترض طريقنا، وما لبث ينزف دمًا، وربّما اختلّ بصره أيضًا.

- هل أنت متأكد من أنّك شرطيّ؟

- كتيبة سريّة. سأطلب من المطبخ أن يأتوك حالًا بشريحة من اللحم النيّئ كي تستعملها قناعًا على وجهك. يدي تبارك الرضوض من مسافة قريبة. سيعرّج زملائي لاحقًا ليسجّلوا شهادتك ويحضّروا الشكوى. - ارتجل فيرمين وهو يبعد ذراع كاسكوس ويدفعني نحو الباب بأقصى سرعة.

١٢

ركبنا سيّارة أجرة عند مدخل الفندق وألقى الصمت ظلاله علينا ونحن نسلك شارع غران فيا.

- يا يسوع ويوسف ومريم! - انفجر فيرمين - هل جننت؟ أنظر إليك ولا أتعرّف عليك... ما الذي كنت تريد فعله؟ هل كنت تنوي قتل ذلك المغفّل؟

- إنّه يعمل لمصلحة ماوريسيو ڤايس. - سارعتُ إلى الردّ.

جحظت عينا فيرمين.

- دانيال، هوسك الجديد هذا يكاد يخرج عن أيّ سيطرة. اللعنة عليّ حين رويت لك ما رويت... هل أنت بخير؟ أرني يدك...

أريته قبضتي.

- رحماكِ أيّتها العذراء.

- كيف عرفت...؟

- لأنّني أعرفك جيّدًا كما لو كنت أباك، مع أنّني في بعض الأيّام أندم على ذلك. - قال غاضبًا.

- لا أعرف ما الذي دهاني...

- أمّا أنا فأعرف جيّدًا. وهذا الأمر لا يروق لي. لا يروق لي

البتّة. هذا ليس دانيال الذي أعرفه. ولا حتّى دانيال الذي أريد أن أكون صديقه.

كانت يدي تؤلمني، لكنّني تألّمتُ بشدّة إذ أدركت أنّني خذلته.

- فيرمين، لا تغضب منّي.

- لا طبعًا. هل يريد الطفل الشاطر ميداليّة على ما فعل؟

بقينا صامتين بعض الوقت، كلٌّ منّا ينظر إلى الطريق من جانبه.

- لحسن الحظ أنّك أتيت. - قلت في النهاية.

- ما الذي كنتَ تتوقّعه، أن أتركك بمفردك؟

- لن تخبر بيا بشيء، أليس كذلك؟

- إن شئتَ، كتبتُ رسالة إلى مدير تحرير جريدة الطليعة لأقصّ عليه فعلتك.

- لا أعلم ما الذي جرى لي، لا أعلم...

نظر إليّ بصرامة، لكنّه رقّ في النهاية، وربّت على يدي. فابتلعتُ الألم.

- لن نفكّر في الأمر ثانيةً. أتصوّر أنّني كنت سأفعل الشيء ذاته لو كنتُ مكانك.

نظرتُ إلى برشلونة وهي تنساب خلف نافذة السيّارة.

- لمن تلك البطاقة؟

- ماذا قلت؟

- بطاقة الشرطيّ التي أظهرتها... لمن هي؟

- هذه بطاقة اشتراك الخوريّ في نادي البارسا.

- كنتَ على حقّ يا فيرمين. إنّني غبيٌّ إذ شككتُ في بيا.

- أنا على حقّ دومًا. لقد ولدتُ كذلك.

استسلمتُ للبداهة ولزمتُ الصمت، فلقد تفوّهتُ بما لا حصر له من هراء في ذلك اليوم. كان فيرمين يبالغ في صمته، وبدا أنّه يتمعّن في أمر ما. تأسّفتُ لأنّني قد خذلتُه حتّى لم يعد قادرًا على قول شيء.

- فيرمين، فيم تفكّر؟

التفت ونظر إليّ متوجّسًا.

- كنت أفكّر في ذلك الرجل.

- كاسكوس؟

- بل ڤايس. أفكر في ما قاله لك ذلك الغبيّ. أفكّر في مغزى كلامه.

- إلام تشير؟

حدّق إليّ فيرمين عابسًا.

- أشير إلى أنّ ما كان يقلقني حتّى تلك اللحظة هو أنّك أردتَ البحث عن ڤايس.

- والآن؟

- ثمّة ما يقلقني أكثر يا دانيال.

- ما هو؟

- أنّ ڤايس هو الذي يبحث عنك الآن.

تبادلنا نظرة صامتة.

- هل بوسعك أن تتخيّل السبب؟

هزّ فيرمين رأسه ببطء، وهو الذي لطالما أجاب عن كلّ سؤال، وحاد أنظاره عنّي.

أكملنا المشوار بصمت. وعندما وصلتُ، صعدتُ إلى البيت

مباشرة. تحمّمتُ وابتلعتُ أربع حبّات من الأسبيرين. ثمّ أخفضتُ مصاريع النوافذ، وعانقتُ الوسادة التي تكتنز عطر بيا، وغفوتُ بكل حماقتي، متسائلًا أين تلك المرأة التي من أجلها لا يهمّني إذا أصبحتُ أغبى رجلٍ في القرن.

١٣

- أبدو كالقنفذ. - صرّحت برناردا وهي تنظر إلى صورتها المضاعفة ألف مرّة في صالة المرايا في موداس سانتا إولاليا.

هنالك خيّاطتان جاثمتان عند قدميها، تواصلان دسّ عشرات من الدبابيس في فستان العرس، على مرأى بيا وانتباهها، وهي تطوف في دائرة حول برناردا وتتحرّى كلّ طيّةٍ ورتقٍ كما لو أنّها تراهن على حياتها. وكانت برناردا، التي بسطت ذراعيها على شكل الصليب، تكاد لا تجرؤ على التنفّس، لكنّ عينيها اللتين تفتّشان عن أيّ دلالة على انتفاخ البطن، كانتا مأخوذتين بتعدّد زوايا النظر إلى شكلها بفضل الصالة المسدّسة والمكسوّة بالمرايا.

- هل أنتِ واثقة من أنّ لا شيء واضحٌ للعيان يا سيّدة بيا؟

- لا شيء. بطنكِ مسطّحةٌ مثل لوح المكواة. أمّا في الأماكن التي ينبغي إبرازها، فهي واضحة للعيان.

- آه، لا أدري، لا أدري...

امتدّت آلام برناردا وانهماك الخيّاطات في الترتيب والتعديل أكثر من نصف ساعة. وعندما بدا أنّ العالم نفد من الدبابيس اللازمة لدسّها في برناردا المسكينة، أعلن كبير الخيّاطين - وصانع تلك التحفة - عن قدومه بتحريك الستارة. وبعد تحليلٍ عاجل، وإضافة

بعض التصويبات على باطن التنّورة الحريريّ، أعرب الخيّاط عن استحسانه وطقطق بأصابعه ليأمر مساعِدتَيه بالانصراف سرًّا في الخفاء.

- ولا حتّى برتيغاث العظيم كان سيجعلكِ تبدين بكلّ هذا البهاء. - صرّح راضيًا.

فابتسمت برناردا وهزّت برأسها.

تقدَّم المصمّم القدير، والرشيق، ذو الأسلوب المتكلّف والسلوك المتواضع، والذي كان يردّ بكلّ بساطة على من يناديه باسم إفاريستو، تقدَّم وطبع قبلة على خدّ برناردا.

- أنتِ أفضل عارضة في العالم. وأكثرهنّ صبرًا وتوافرًا. كانت العمليّة شاقّة، لكنّها استحقّت العناء.

- وهل تعتقد يا سيّدي العزيز أنّني قادرة على التنفّس بهذا الفستان الضيّق؟

- يا حبيبتي، أنتِ بوساطة أمّنا الكنيسة المقدّسة، ستتزوّجين بفحلٍ إسبانيّ. انتهى زمن التنفّس، ها قد بلّغتكِ. اعلمي أنّ فستان العروس مثل بذلة الغطّاس: لا يُستخدَمان حيث يسهل التنفّس، ولا يبدأ الترفيه إلّا بعد نزعهما.

صلّت برناردا بالتثليث لتصدّ عنها إغراءات المصمّم.

- والآن أطلب منك أن تنزعي الفستان بأقصى درجات الانتباه، لأنّ الرتوق ما تزال مؤقّتة، وأخشى من هذه الدبابيس الكثيرة أن أراكِ تصعدين إلى المذبح وأنتِ أشبه بالغربال. - قال إفاريستو.

- سأساعدكِ بنفسي. - تطوّعت بيا.

ألقى إفاريستو نظرةً على بيا، وصوّرها شعاعيًّا من رأسها إلى قدميها.

- وأنتِ يا غالية، متى سيتسنّى لي نزع ثيابكِ وإلباسكِ؟ - سأل وهو ينسحب خلف الستارة بخروجٍ مسرحيّ.

- يا لنظرته الثاقبة التي رماكِ بها هذا النذل. - قالت برناردا - ثمّ يقولون إنّه يمشي على الرصيف الآخر[1].

- يبدو لي أنّ إفاريستو يمشي على كلّ الأرصفة.

- هل هذا معقول؟ - سألتها برناردا.

- هيّا، دعينا نرى إن كان من الممكن إخراجكِ من دون إسقاط دبّوس واحد.

وبينما كانت بيا تحرّر برناردا شيئًا فشيئًا من سجنها، كانت الأخيرة تغمغم بينها وبين نفسها.

دخلت برناردا في نوبة توتّر منذ أن علمت بسعر ذلك الفستان، الذي التزم ربّ عملها، الدون غوستابو، بدفعه على نفقته الخاصّة.

- ما كان ينبغي للدون غوستابو أن ينفق كلّ ذلك المبلغ الكبير. وقد أصرّ على أن أشتريه من هنا، أغلى محلّ خياطة في برشلونة قاطبةً، وأصرّ أن يصمّمه إفاريستو بنفسه، وهو من قرابته البعيدة أو شيء كهذا. تصوّري أنّه يقول: إذا لم تكن الأقمشة آتيةً من كاسا غراتاكوس، فإنّها تسبّب له الحساسيّة الأنفيّة. وهذا أقلّ ما يبذّره.

- اهنئي بالهديّة يا برناردا. . . ثمّ إنّ الدون غوستابو، يطيب له أن يراكِ عروسًا في موكبٍ إمبراطوريّ. لقد خُلِق هكذا.

- أمّا أنا فكنت سأتزوّج بفستان والدتي، مع إجراء تعديلات طفيفة عليه. كما أنّ فيرمين لا يبالي، فكلّما أريته فستانًا جديدًا، أراد

---

(١) تعبير إسبانيّ للدلالة على الرجل ذي الميول الجنسيّة المغايرة للرجال الذين يفضّلون النساء. المترجم.

أن ينزعه عنّي. . . وهكذا نقضي أروع الأوقات، فليغفر لي الربّ. - قالت برناردا وهي تضرب بيدها على بطنها.

- برناردا، أنا أيضًا تزوّجتُ وكنتُ حاملًا، وإنّني واثقة من أنّ الربّ لديه أمورٌ أكثر أهميّة ينشغل بها.

- هذا ما يقوله فيرمين أيضًا، ولكنّني لا أدري. . .

- اسمعي لكلام فيرمين ولا تشغلي بالك بأيّ شيء.

استرخت برناردا على الأريكة والتقطت أنفاسها، بثيابها الداخليّة، بعد أن أنهكها الوقوف على الكعبين وبسط الذراعين طوال ساعتين.

- آه، لكنّ المسكين فَقَدَ الكثير من وزنه، حتّى صار شبحًا. . . بالي مشغول جدًّا عليه.

- سترين كيف يستعيد قواه من الآن فصاعدًا. الرجال هكذا، مثل زهرة الخبّيزة. كلّما أوشكوا على الذبول، استعادوا نضارتهم.

- لا أدري يا سيّدة بيا، إنّي أراه محبطًا للغاية. لا يكفّ عن تأكيد نيّته الزواج بي، لكنّني أحيانًا أغدو عرضةً لبعض الشكوك. . .

- كيف وهو متيَّم بك؟

أعربت برناردا عن عدم اكتراثها.

- أنا لست غبيّة كما أبدو. لم أعمل بشيء في حياتي سوى تنظيف المنازل منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري. ثمّة أشياء كثيرة لا أفهمها، لكنّني أعرف أنّ عزيزي فيرمين قد طاف العالم ولديه مشاكله الخاصّة. إنّه لا يحدّثني بشيء عن حياته ما قبل تعارفنا، لكنّني واثقة من أنّه صاحَبَ كثيرًا من النساء واختلى بأكثرهنّ.

- ثمّ انتهى به المطاف لاختيارِكِ أنتِ من بينهنّ جميعًا. ألا ترين ذلك؟

- لكنّه يحبّ الفتيات حتّى الجنون... عندما نذهب للتنزّه أو الرقص، تنطلق عيناه في كلّ الاتجاهات، وقد يصاب بالحول يومًا ما.

- هذا أفضل من أن تنطلق يداه... تبيّنتُ من مصدر موثوق أنّ فيرمين حافظ على إخلاصه لكِ دائمًا.

- أعرف. ولكن، أتعلمين ما أخشاه يا سيّدة بيا؟ أن أكون أقلّ من تطلّعاته. فعندما أراه ينظر إليّ مفتونًا، ويقول لي إنّه لا يريد إلّا أن يشيخ إلى جانبي، فضلًا عن المغازلات التي يتفوّق بالتفنُّن بها، أفكّر دائمًا أنّه قد يستيقظ ذات صباح، ويراني فيصيح: «من أين سقطت على رأسي هذه الحمقاء؟».

- أعتقد أنّك تخطئين يا برناردا. فيرمين لن يفكّر في شيء كهذا أبدًا. سيضعكِ عاليًا.

- لكنّ هذا أيضًا لا يطيب لي... انظري، لقد عرفتُ الكثير من الرجال الذي يرفعون المرأة عاليًا بمصاف العذراء، ثمّ يهمّون بالركض خلف أوّل ماكرةٍ يصادفونها، مثل الكلاب المتهيِّجة. لا تتخيّلين كم مرّةً رأيته هكذا، بهذين العينين هبةِ الربّ لي.

- لكنّ فيرمين ليس هكذا يا برناردا. فيرمين ينتمي إلى فئة الطيّبين. القلائل. لأنّ الرجال مثل حبّات الكستناء التي يبيعونكِ إيّاها في الطريق: تكون ساخنة وعطرة عندما تشترينها، ثمّ ما إن تقشّريها حتّى تبرد وسرعان ما تكتشفين أنّ أغلبها فاسدة.

- لا تقصدين السيّد دانيال بكلامكِ، أليس كذلك؟

تأخّرت بيا في الردّ لحظات.

- لا، لا بالتأكيد.

نظرت إليها برناردا خلسةً.

- هل الأمور على ما يرام في البيت يا سيّدة بيا؟

أخذت بيا تلهو بثنيّة الكتف الناتئة من لباس برناردا الداخليّ.

- أجل، طبعًا. سوى أنّنا - أنا وأنتِ - ذهبنا للبحث عن زوجين لدى كلٍّ منهما شؤونه وأسراره.

هزّت برناردا رأسها موافقةً.

- أحيانًا يبدوان كالأطفال.

- رجالٌ... انسي أمرهم.

- لكنّهم يعجبونني. - قالت برناردا - وأعرف أنّ هذا حرام.

ضحكت بيا.

- وأيّ صنفٍ يعجبكِ منهم؟ إفاريستو، مثلًا؟

- كلا، يا إلهي. إنّه يستهلك المرآة، لشدّة النظر فيها إلى نفسه. الرجل الذي يتطلّب وقتًا أكثر منّي في ارتداء ملابسه، يعطيني انطباعًا بـ... لا أدري كيف. أنا أحبّ الرجال الخشنين نوعًا ما. ماذا تريدين أن تعرفي؟ لا شكّ أنّ فيرمين ليس بالذي يوصف بالوسيم. لكنّني أراه وسيمًا وطيّبًا. رجلٌ كثيرًا. وهذا ما يهمّ في المحصّلة: أن يكون الرجلُ طيّبًا وصادقًا. وأن يتسنّى لكِ أن تشبكيه في ليلةٍ شتويّة كي ينجلي البرد عن عظامكِ.

ابتسمت بيا متفهّمةً.

- آمين. مع أنّ العصفورة أخبرتني أنّكِ كنتِ معجبة بكيري غرانت حقًّا.

احمرّ وجه برناردا خجلًا.

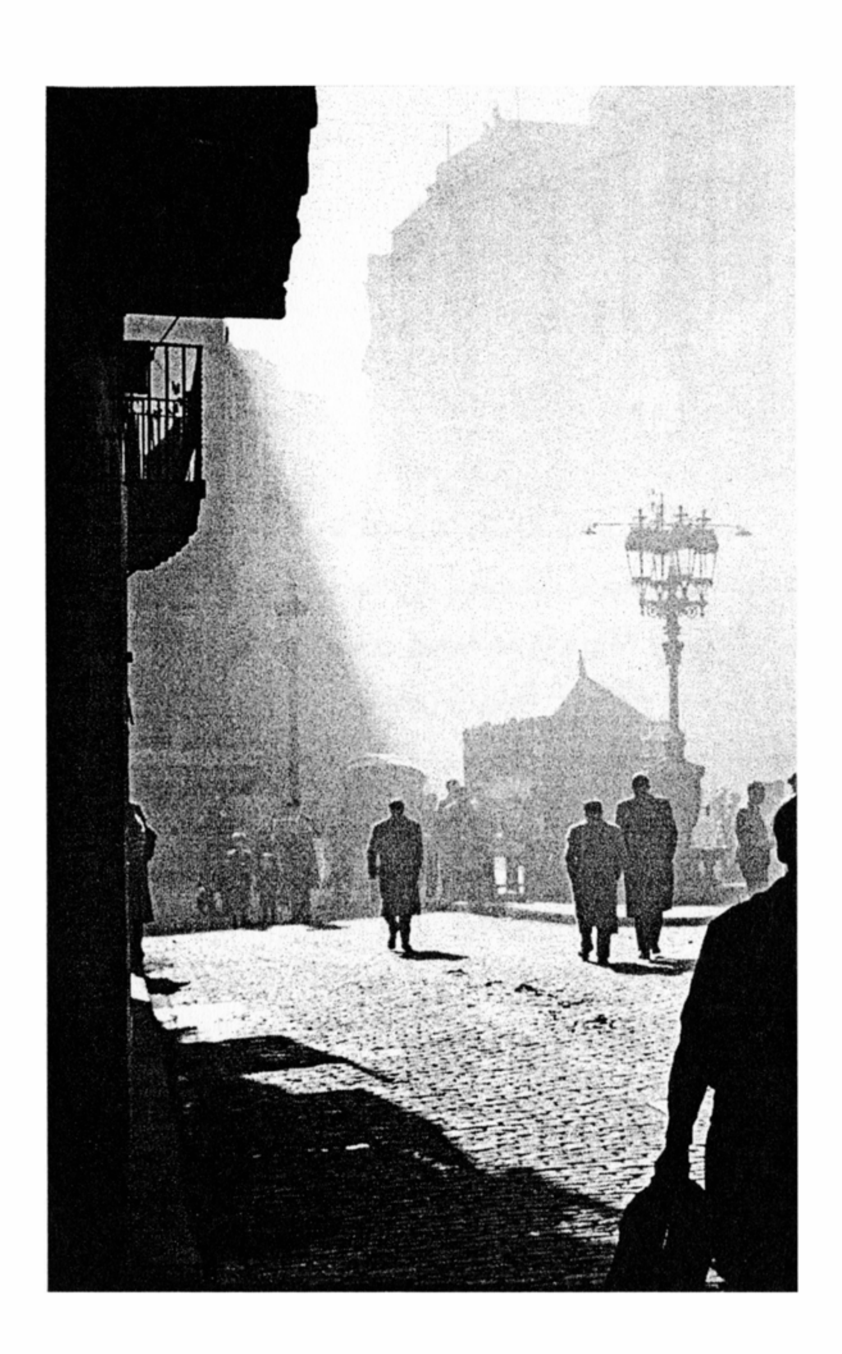
- ولم يكن يعجبكِ؟ لا للزواج به، ها، فليكن واضحًا! إذ يبدو لي أنّه أغرم بنفسه في أوّل مرّةٍ نظر فيها إلى المرآة. لكنّ السرّ يبقى بيننا، وليغفر لي الربّ، لم أكن لأرفض نزوة عابرة...

- ما الذي سيقوله فيرمين إن سمعك يا برناردا؟

- سيقول ما يقوله دائمًا: «إنّنا، في النهاية، سيأكلنا الدود»...

الفصل الخامس

اسم البطل



١

برشلونة، ١٩٥٨

بعد مرور سنوات طويلة، كان الثلاثة والعشرون مدعوًّا إلى تلك المناسبة سيتوجّهون بأبصارهم إلى الماضي، ويتذكّرون عشيّة ذلك اليوم التاريخيّ الذي ودّع فيه فيرمين روميرو دي توريس حياة العزوبة.

- نهاية حقبة. - أعلن البروفسور ألبوركركي وهو يرفع كأس الشمبانيا، ملخِّصًا أفضل من غيره ما كنّا نشعر به جميعًا.

حفل وداع عزوبة فيرمين، حدثٌ كانت تأثيراته على سكّان المدينة من النساء مطابقةً لتأثيرات وفاة رودولفو فالينتينو، بحسب توصيف الدون غوستابو برسلوه. أقيم الحفل خلال أمسية صافية من شهر فبراير عام ١٩٥٨، في صالة الرقص الكبرى لابالوما، وتضمّنت سيناريوهاتٍ كان فيها العريس بطلًا لرقصات التانغو المميتة، ولحظاتٍ كانت ستشكِّل، منذ ذلك الحين فصاعدًا، جزءًا من الأرشيف السرّيّ لمسيرةٍ حافلةٍ في خدمة الأبديّة النسويّة.

جنَّد والدي - الذي استطعنا لمرّة وحيدةٍ في الحياة أن نخرجه من البيت - جنَّد فرقة «لا هابانا دل بايكس يوبرغات»، وهي الأوركسترا شبه الاحترافيّة المتخصّصة في عزف الأنغام الراقصة،

والتي وافق أعضاؤها على العزف بسعرٍ معقول، فأسعدونا باختياراتهم الموفّقة من موسيقى المامبو والغواراتشا والسونس مونتونوس الكوبيّة، إذ أعادوا العريسَ إلى أيّامه الخالية في دنيا المكائد والغواية الدوليّة داخل أكبر المراقص والملاهي في كوبا المنسيّة. تخلّى الجميع عن الوقار، بنسبٍ متفاوتة، واندفعوا إلى خشبة الرقص لخضخضة عظامهم على شرف فيرمين.

برسلوه أقنع والدي بأنّ كؤوس الفودكا التي زوَّده إيّاها كانت مجرّد مياه معدنيّة، مضافٌ إليها قطراتٍ من مشروب أعشاب مونتسيرات الروحيّ. الأمر الذي جعلنا نشاهد العرض الاستثنائيّ لوالدي وهو يرقص معانقًا إحدى الفتيات اللواتي جئن لترطيب الأجواء، بناءً على طلب روسيتو، الروح التي بثّت الحياة في تلك السهرة.

- يا إلهي. - غمغمتُ وأنا أنظر إلى والدي وهو يرجرج جانبيه، ويضبط على إيقاع الموسيقى صِدامَ قفاه بمؤخّرة إحدى جنديّات الليل.

وكان برسلوه يطوف بين المدعوّين ويوزِّع عليهم السيجار وصورًا تذكاريّة أمر بنسخها في مطبعة متخصّصة بذكريات المناولة الأولى والمعموديّات والجنائز. وعلى إحدى تلك البطاقات الفاخرة والثخينة، يظهر رسمٌ كاريكاتوريٌّ لفيرمين، وهو على هيئة ملاك صغير، مضموم اليدين للدعاء، إضافةً إلى العبارة التالية:

فيرمين روميرو دي توريس

١٩؟؟ - ١٩٥٨

رجل الإغواء العظيم يحال إلى التقاعد

١٩٥٨ - ١٩؟؟

ربّ الأسرة يباشر أعماله

وكان فيرمين سعيدًا ومبتهجًا، للمرّة الأولى منذ وقت طويل. إذ رافقتُه قبل نصف ساعة من بدء الحفل، إلى خان يويس، حيث أكّد لنا البروفسور ألبوركركي بأنّه ذهب في الصباح إلى مكتب الدولة المدنيّة، محمَّلًا بملفّ الأوراق والوثائق التي أعدَّها الأستاذ القدير أزڤالدو داريو دي مورتنسن ومساعده لويسيتو.

- فيرمين يا صديقي. - صرّح البروفسور - أرحِّب بك رسميًّا في عالم الأحياء، وأسلِّمك - بشهادة الدون دانيال سيمبيري والأصدقاء في خان يويس - بطاقتك الشخصيّة الجديدة والنظاميّة.

عاين فيرمين بطاقته الجديدة، وقد نالت منه العواطف.

- كيف استطعتم القيام بهذه المعجزة؟

- من الأفضل أن نوفِّر عليك الجانب التقنيّ. ما يهمّ أنّ كلّ شيء ممكن تقريبًا إذا كان هناك صديقٌ حقيقيّ، مستعدٌّ للمجازفة وتحريك الأرض والسماء لتزويجك بطريقة قانونيّة، ويؤذِن لك بالدخول إلى عالم إنجاب الأولاد الذين بفضلهم ستستمرّ سلالة روميرو دي توريس. - قال البروفسور.

نظر إليّ فيرمين، والدموع في عينيه، وعانقني بقوّةٍ حتّى ظننتُ أنّه سيطحنني. لا أشعر بالعار إذا اعترفتُ بأنّ تلك اللحظة كانت من أسعد اللحظات في حياتي.

٢

مرّت ساعة ونصف من الموسيقى والمشروب والرقصات الماجنة، عندما سمحتُ لنفسي بقسط من الراحة وذهبتُ إلى مصطبة البار بحثًا عن مشروب لا يحتوي على الكحول، فلم أكن أظنّ أنّني قادرٌ على تجرُّع قطرة إضافيّة من الرمْ بالليمون، المشروب الرسميّ لتلك السهرة. سكب لي النادل كأسًا من الماء البارد، فأسندتُ ظهري إلى المصطبة لأشاهد تلك البلبلة. لم أكن قد انتبهتُ إلى وجود روسيتو هناك، في الطرف الآخر من الصالة. كانت تحمل في يديها كأس الشمبانيا وتراقب بنظراتها التعيسة أجواءَ الحفلة التي نظّمتْها. وفقًا لما رواه لي فيرمين، حَسَبْتُ أن تكون روسيتو على وشك إتمام عامها الخامس والثلاثين، إلّا أنّ عشرين سنة من تلك المهنة قد ألقت ظلالها على ملامحها بشكل واضح، وبدت لي ملكة شارع إسكوديرس أكبر سنًّا، حتّى تحت تلك الظلمة الملوّنة.

اقتربتُ منها وابتسمتُ لها.

- روسيتو، تبدين أكثر جمالًا من أيّ وقت مضى. - كذبتُ.

كانت قد لبست أبهى ما لديها من فساتين، كما أنّ عمل أمهر الحلّاقين في شارع كوندي دل آسالتو كان ملحوظًا، ورغم ذلك بدت لناظريّ أنّها أكثر تعاسةً من أيّ وقت مضى.

- هل أنتِ بخير يا روسيتو؟

- أنظر إليه، يا للمسكين، لقد غدا جلدًا على عظم، وما زالت لديه رغبة في الرقص.

كانت عيناها مفتونتين بفيرمين. ففهمتُ أنّها كانت ما تزال ترى فيه البطل الذي أنقذها من براثن القوّاد الرخيص، وأنّه - بعد عشرين عامًا من عملها في الشوارع - ما تزال تراه الرجل الذي يستحقّ العناء من بين كثيرٍ من الرجال الذين عرفتْهم.

- يا سيّد دانيال، لم أشأ إخبار فيرمين بقراري. لن آتي إلى الزفاف غدًا.

- ما الذي تقولينه يا روسيتو؟ لقد حجز لكِ فيرمين منصّة الشرف...

طأطأت روسيتو رأسها.

- أعرف، لكنّني لا أستطيع الحضور.

- لماذا؟ - سألتُ رغم أنّني كنت أتخيّل الجواب.

- لأنّ الأمر يحزنني، في حين أريد لفيرمين كلّ السعادة مع امرأته.

أجهشت روسيتو بالبكاء. واحترتُ بما أقول لها، فعانقتُها.

- هل تعرف أنّني لطالما أحببتُه؟ منذ أن عرفتُه. أعلم أنّني لست المرأة المناسبة له، وأنّه يراني على أنّني... حسنٌ، على أنّني روسيتو.

- فيرمين يكنّ لكِ كلّ المحبّة، عليكِ ألّا تنسي ذلك.

تنحّت روسيتو ومسحت دموعها، ملء نفسها الخجل. ابتسمت لي وأعربت عن تفهّمها.

- المعذرة، إنّني غبيّة، وعندما أرتشف قطرتين من الكحول، أقول كلامًا حتّى أنا نفسي لا أفهم مغزاه.

- لا عليكِ.

أعطيتُها كأس الماء فأخذتْها.

- في يومٍ ما، نتفطّن أنّ الشباب ولّى، وأنّ القطار فاتنا، أليس كذلك؟

- ثمّة قطارات أخرى دائمًا. دائمًا.

أومأت روسيتو بنعم.

- لهذا السبب لن آتي إلى الزفاف غدًا يا سيّد دانيال. تعرّفتُ منذ عدّة شهور على رجلٍ من ريوس. رجلٌ طيّب. أرمل. والدٌ صالح. لديه محلّ لبيع الخردة، وكلّما جاء إلى برشلونة عرّج إلى زيارتي. طلب منّي الزواج. لا أحد منّا يكذب على نفسه، صحيح؟ ما أصعب أن يشيخ المرء وحيدًا. وأنا أعي أنّ جسدي لم يعد صالحًا للعمل في الطرقات. طلب منّي خاوميت - الرجل الذي من ريوس - أن أرافقه في رحلة ما. فلقد عمل طوال حياته، وأبناؤه قد هجروا المنزل. يقول إنّه يودّ رؤية العالم قبل أن يرحل عنه؛ لذا طلب منّي أن أرافقه. . . كزوجة، لا كامرأة يستهلكها ثمّ يرميها. ستنطلق السفينة في ساعة مبكّرة جدًّا من صباح الغد. يقول خاوميت إنّ قبطان السفينة لديه كامل الصلاحيّة لإقامة حفلات الزواج في وسط البحر، وإلّا بحثنا عن خوريٍّ في أحد الموانئ.

- هل عرف فيرمين بذلك؟

وكما لو أنّه سمعنا من مسافة بعيدة، توقّف فيرمين في منتصف خشبة الرقص ونظر إلينا. لوّح بساعديه صوب روسيتو، وافتعل وجه المدلّل المحتاج إلى الغنج، ولطالما جاءه ذلك الوجه بنتائج مُرضِية.

فضحكت روسيتو، وهزّت برأسها، وقبل أن تصعد إلى الخشبة لتنضمّ إلى حبّ حياتها لأداء رقصة البوليرو الأخيرة، التفتت إليّ وقالت: - «اعتنِ به يا دانيال. ليس هناك إلّا فيرمين واحد».

صمتت الأوركسترا، وأخلِيت الخشبة لاستقبال روسيتو. فأمسكها فيرمين من يدها. انطفأت أضواء لابالوما شيئًا فشيئًا، وانبلجت من الظلام حزمةٌ ضوئيّة رسمتْ دائرةً من الضوء المعشّق بالبخار عند أقدام ذلك الثنائيّ. تنحّى الراقصون الآخرون، وبدأت الأوركسترا بعزف أشدّ مقطوعات البوليرو حزنًا تمّ تأليفها على الإطلاق. فشبك فيرمين خصر روسيتو بذراعه. رقص العاشقان متعانقين للمرّة الأخيرة، والعينان في العينين، في إحدى صور برشلونة التي لن تعود أبدًا. وعندما تلاشت الموسيقى، قبّل فيرمين شفتيها، فيما داعبت روسيتو خدّه وهي تدمع. ثمّ ابتعدتْ نحو المخرج، دون أن تودّع أحدًا.

٣

استأنفت الأوركسترا عزفها، بمقطوعة إسعافيّة راقصة، وقام أزڤالدو داريو دي مورتنسن بتشجيع الحاضرين على العودة إلى الخشبة - وهو الذي أمسى موسوعةً للأحزان لفرط ما ألّف من رسائل حبّ - وشدّد عليهم بالتظاهر بأنّهم لم يروا أيّ شيء. أمّا فيرمين، وقد ساوره الأسى، فاقترب من المصطبة وجلس على أحد مقاعدها الطولانيّة، بجانبي.

- هل أنت بخير يا فيرمين؟

هزّ رأسه بضعف.

- أعتقد أنّني بحاجة إلى استنشاق هواء نظيف يا دانيال.

- انتظرني هنا لأعود بالمعاطف.

كنّا نمشي في شارع تايرس باتّجاه لاس رامبلاس، عندما تراءى لنا طيف مألوف يتقدّم أمامنا ببطء، على مسافة خمسين مترًا.

- ها يا دانيال، أليس ذلك والدك؟

- شخصيًّا. سكران أكثر من الزقّ.

- آخر شيء كنت أتوقّع رؤيته. - قال فيرمين.

- فما بالك بي إذن.

أسرعنا الخطى حتّى بلغناه. وعندما رآنا، ابتسم لنا بعينين زجاجيّتين.

- كم الساعة؟ - سأل.

- متأخّرة كثيرًا.

- بدا لي ذلك. اسمع يا فيرمين، الحفلة خرافيّة. وما أجمل الفتيات فيها! كان هناك أطيازٌ تندلع من أجلها الحروب.

جحظتْ عيناي. فأخذ فيرمين والدي تحت ذراعه وقاد خطواته.

- سيّد سيمبيري، لم أكن أتوقّع يومًا أن أقول لك التالي: حضرتك تعاني من تسمُّمٍ كحوليّ، ومن الأفضل أن لا تقول شيئًا قد تندم عليه لاحقًا.

أومأ والدي، مقهورًا على غفلة منه.

- اللوم يقع على الجنّيّ برسلوه، لا أدري ماذا أشربني، وأنا لست معتادًا على شرب...

- لم يحدث شيء. ستتناول الآن جرعة من البيكربون، ثمّ تغفو في نومٍ هانئ. وستعود في الغد يانعًا مثل زهرة، وسنتظاهر بأنّ شيئًا لم يقع.

- أعتقد أنّني على وشك التقيّؤ.

ثبّتنا وقفته، فيرمين وأنا، ريثما فرَّغ المسكينُ كلَّ ما شربه. وضعتُ يدي على جبينه الرطب بالعرق، وعندما تبيّن أنّ معدته خوت حتّى من الأغذية التي تناولها صغيرًا، أجلسناه بعض الوقت على عتبات أحد المباني.

- تنفَّسْ بعمق وببطء، يا سيّد سيمبيري.

هزّ والدي رأسه مغمض العينين. فتبادلنا النظرات فيرمين وأنا.

- ألم تكن تريد الزواج؟

- بعد ظهر الغد.

- تهانينا إذن.

- شكرًا يا سيّد سيمبيري. ما قولك، هل بإمكاننا الذهاب نحو البيت على أقلّ من مهلنا؟

أومأ والدي بنعم.

- هيّا إذن، لقد وصلنا تقريبًا.

هبّت رياح منعشة وجافّة استطاعت أن تهزّ والدي. وعندما دخلنا شارع سانتا آنا، بعد عشر دقائق، كان قد استعاد وعيه فأحسّ بالحياء. ومن الوارد أنّه لم يسكر في حياته كلّها إطلاقًا.

- أرجوكما ألّا تنبسا ببنت شفة، لأيّ أحد. - توسّل إلينا.

وإذ كنّا على مسافة عشرين مترًا من المكتبة، انتبهتُ إلى أحدٍ ما كان جالسًا أمام بوّابة البناية. وكان الفانوس الكبير لمنزل خوربا، عند منعطف باب الملاك، يرسم جسد فتاة شابّة والحقيبة على ركبتيها. وما إن رأتنا حتّى نهضت.

- لدينا رفاق هنا. - غمغم فيرمين.

رآها والدي للمرّة الأولى. لاحظتُ شيئًا غريبًا يكسو ملامح وجهه، يشبه الهدوء الحذر، كما لو أنّه استردّ وقاره فجأة. تقدَّم نحو الفتاة، ثمّ توقّف بغتةً، وتحجّر في مكانه.

- إيزابيلا؟! - سمعتُه يقول.

خشيتُ أن تشوّش الفودكا رشده ثانيةً فيغمى عليه هناك، على قارعة الطريق، فتقدَّمتُ نحوه بضع خطوات. وكان حينذاك إذ رأيتُها.

٤

لا شكّ أنّها لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها بعد. أطلّت بمحيّاها تحت ضياء الفانوس المعلّق على واجهة المبنى، ورسمت على وجهها ابتسامة خجولة، وهي ترفع يدها بما يشبه التحيّة.

- أنا صوفيا. - قالت بلكنةٍ خفيفة في صوتها.

كان والدي ينظر إليها مصدومًا، كما لو أنّه يرى شبحًا. ابتلعتُ ريقًا وأحسستُ بالقشعريرة تجتاح جسدي. كانت تلك الفتاةُ النسخةَ الحيّة لصورة والدتي في ألبوم الصور الذي يحتفظ به والدي في مكتبه.

- أنا صوفيا. - ردّدت الفتاة بارتباك - قريبتكم. من نابولي...

شاءت العناية الإلهيّة أن يكون فيرمين هناك ليتولّى زمام المبادرة. فبعد أن نفض الرعب عنّي بخضّةٍ من يده، شرح للفتاة أنّ السيّد سيمبيري كان في ظرف حرج نوعًا ما.

- نحن عائدون من حفلٍ لتذوُّق الخمور، والمسكين يتوعّك أساسًا من كأس مياهٍ معدنيّة. لا تشغلي بالًا يا آنسة، فهو لا يبدو مندهشًا إلى هذا الحدّ في الحالة الطبيعيّة.

وجدنا برقيّةً تحت الباب، مدسوسةً هناك أثناء فترة غيابنا، برقيّةً عاجلة من الخالة لاورا، والدة الفتاة، أرسلتْها لتعلِمنا بوصول ابنتها.

وعندما دخلنا البيت، هيّأ فيرمين جلسة والدي على الديوان، وأمرني بتحضير فنجان قهوة مكثّفة للغاية. وفي أثناء ذلك، راح يخاطب الفتاة، ويسألها عن الرحلة ويدردش معها في شتّى أنواع التوافه ريثما كان والدي يعود إلى الحياة شيئًا فشيئًا.

روت الفتاة على مسامعنا، بلكنتها الرقيقة وأسلوبها العنفوانيّ، أنّها وصلت في الساعة العاشرة إلى محطة فرنسا. استقلّت سيّارة أجرة إلى ساحة كتالونيا. وعندما لم تجد أحدًا في البيت، التجأت إلى أحد المقاهي في الجوار ومكثت فيه إلى أن أغلق أبوابه. فعادت للانتظار وجلست أمام البوّابة، واثقةً بأنّ أحدًا ما سيأتي عاجلًا أم آجلًا. كان والدي يتذكّر الرسالة التي أفادت من خلالها والدتها بأنّ صوفيا ستأتي إلى برشلونة، لكنّه لم يتوقّع قدومها مبكّرًا.

- يؤسفني أنّكِ اضطررتِ للانتظار في الشارع. - قال - أنا في طبيعة الحال لا أخرج أبدًا، لكنّنا احتفلنا هذا المساء بتوديع فيرمين للعزوبة و. . .

ذُهِلتْ صوفيا بالخبر، فنهضت وطبعت قبلة تهنئة على خدّ فيرمين. فلم يتمالك نفسه، رغم انسحابه من أرض المعركة، ودعاها مباشرةً إلى حفل الزفاف.

وكنّا ندردش منذ نصف ساعة عندما كانت بيا تصعد السلالم، عائدةً من حفل توديع برناردا للعزوبة، فسمعت همهماتنا وطرقت الباب. وحين دخلت إلى الصالة ورأت صوفيا، اصفرّ وجهها ورمتني بنظرة جارحة.

- هذه صوفيا، ابنة خالتي، من نابولي. - أعلنتُ - جاءت لتدرس في برشلونة وستعيش هنا بعض الوقت. . .

حاولت بيا أن تخفي توجّساتها وسلّمت عليها في منتهى العفويّة.

- وهذه زوجتي، بياتريز.

- بيا، أرجوك. لا أحد يناديني ببياتريز.

قلّص الوقت واحتساء القهوة صدمة وصول صوفيا رويدًا رويدًا، حتّى اقترحت بيا أنّ المسكينة لا بدّ أنّها منهكة من السفر، وأنّ خيرَ ما نفعله لأجلها هو السماح لها بالذهاب إلى النوم، فالغد يحمل يومًا جديدًا حتّى لو كان يوم الزفاف. تقرَّر أن تهيِّئ صوفيا إقامتها في ما كانت غرفتي عندما كنت صغيرًا. وإذ تحقّق فيرمين من أنّ والدي لن يقع في غيبوبة ثانية، أرسله إلى النوم أيضًا. ووعدت بيا صوفيا بأنّها ستعيرها أحد فساتينها للحفل. فكاد فيرمين - برائحة فمه التي تفوح شمبانيا - أن يتفوّه بتعليق غير لائق، حول أوجه الشبه والفروق في القطع والمقاسات، فأخرستُه بوكزةٍ من مرفقي.

كانت صورة والديّ، في يوم عرسهما، تراقبنا من على الرفّ. بقينا نحن الثلاثة جالسين في صالة الطعام ننظر إليها، ولم نكفّ عن التعجّب.

- متشابهتان مثل قطرتين من الماء. - غمغم فيرمين.

كانت بيا تنظر إليّ شزرًا، تحاول أن تستشفّ أفكاري. أمسكت يدي واتّخذت تعبيرًا ممازحًا، وتقصَّدتْ تغيير الموضوع.

- ها، كيف كانت حفلتكم الصاخبة؟ - سألتْ.

- حفلة مؤدّبة. - أكّد فيرمين - وماذا عن حفلتكنّ؟

- حفلتنا لم تكن مؤدّبة إطلاقًا.

نظر إليّ فيرمين جادًّا.

- كنت قد قلت لك إنّ النساء، في هذه الأشياء، أكثر وقاحةً منّا.

لغَزتْ بيا ابتسامتَها.

- عمّن قلتَ «أكثر وقاحة» يا فيرمين؟

- فلتعذرني السيّدة بياتريز على رعونتي التي لا تُغتَفر، فإنّ شمبانيا البينيديس الذي استشرى في عروقي، يتحدّث نيابةً عنّي ويقوّلني كثيرًا من الترّهات. فالربّ عليمٌ بأنّكِ مثالٌ عن الفضيلة والرزانة؛ أمّا الداعي، عِوَضَ أن يلمّح إلى أصغر أمارات العيب في شخصكِ الكريم، فإنّه يفضّل أن يظلّ أخرس ويقضي بقيّة أيّامه في زنزانةٍ منفردة نادمًا على ما قال.

- لن نحظى بسعادة الحظ هذه. - أثبتُّ وجودي.

- من الأفضل عدم التعمّق في الموضوع. - ختمتْ بيا، وهي تنظر إلينا كما لو كنّا طفلين - والآن، أتصوّر أنّكما ستقومان بنزهة ما قبل الزفاف التقليديّة عند حاجز الأمواج.

تبادلنا النظرة أنا وفيرمين.

- هيّا، اذهبا! هذا خيرٌ لكما، ففي الغد ستكونان في الكنيسة على الموعد المحدَّد...

٥

إل كسامبانيت، الحانة الوحيدة التي وجدناها مُشرَّعة الأبواب في تلك الساعة، في شارع منوتكادا. لا بدّ أنّ شكلنا أثار الشفقة، إذ سمحوا لنا بالجلوس قليلًا بينما كانوا ينظّفون. وعند الإغلاق، عندما عرف صاحب الحانة أنّ فيرمين سيصبح رجلًا متزوّجًا، توجّه إليه بأحرّ التعازي وأهدانا قارورة دواء منزليّ.

- تشجَّع وواجهِ الثور! - نصحه.

تسكّعنا في أزقّة حيّ ريبيرا، ونحن نرتِّب العالم على وقع ضرب المطارق، كما كنّا نفعل دائمًا، حتّى صُبِغَت السماء بلونٍ قرمزيٍّ طفيف، فأدركنا أنّ الساعة قد حانت كي يمضي العريس وإشبينه - أنا - إلى حاجز الأمواج، لاستقبال الفجر مرّةً أخرى أمام أدهى أعجوبةٍ جادت بها الدنيا: برشلونة التي تستيقظ لتتّخذ من مياه المرفأ مرآةً لها.

تموضعنا هناك، نؤرجح سيقاننا من على رصيف الموج، ونتقاسم القنيّنة التي أهداها لنا صاحب الحانة. ورحنا نتأمّل المدينة، يكتنفنا الصمت، بين رشفة نبيذ وأخرى، نتتبع تحليق سربٍ من النوارس فوق قبّة كنيسة الرحمة، مشكّلًا قوسًا بين أبراج مبنى البريد.

وفي البعيد، أعلى هضبة مونتويك، هناك القلعة القاتمة والبارزة مثل طائرٍ خرافيٍّ يتحرّى المدينة الرابضة تحت قدميه.

مزّقت صفّارةُ الإبحار الصمتَ، ورأينا في الجانب الآخر للمرفأ الوطنيّ سفينة سياحيّة تفكّك مراسيها وتتهيّأ للانطلاق. انفصلت عن الرصيف، وتوجّه رأسها نحو المنفذ، بدفعة المدسرة التي خلّفت خطًّا كبيرًا على مياه المرفأ. فأطلّ عشرات من الركّاب من مؤخّرة السفينة، وأخذوا يلوّحون بأياديهم مودِّعين. تساءلتُ إن كانت روسيتو بينهم، بجانب الرجل الخريفيّ الأنيق بيّاع الخردة القادم من ريوس. كان فيرمين يحدّق إلى السفينة منشغل البال.

- هل تظنّ أنّها ستكون سعيدة يا دانيال؟

- وأنت يا فيرمين؟ هل ستكون سعيدًا؟

نظرنا إلى السفينة تبتعد ووجوه المسافرين تصغر حتّى تلاشت.

- فيرمين، ثمّة ما يثير فضولي. لماذا لم تقبل هدايا الزواج من أحد؟

- لا أحبّ إحراج الناس. ثمّ ما الذي سيفعله المتزوّجون بكؤوسٍ وملاعقَ نُقِشَتْ عليها شعاراتُ إسبانيا؟

- لكنّني سأكون مسرورًا لو أهديتُكَ شيئًا ما.

- لقد أهديتني أعظم هديّة ممكنة يا دانيال.

- تلك لا قيمة لها. أتحدّث عن هديّةٍ لاستخدام شخصيّ بغية الترفيه.

نظر إليّ مستغربًا.

- على ألّا تكون تمثالًا خزفيًّا للعذراء أو الصليب! فلدى برناردا تشكيلة واسعة من تلك الأشياء، لدرجة أنّني لا أعرف أين سيتسنّى لنا الجلوس.

- لا تقلق. لسنا بصدد غرضٍ ما.

- على ألّا تكون نقودًا...

- أنت تعرف أنّني مفلس، لسوء الحظّ. أمّا الثريّ فهو والد زوجتي، لكنّه لا يتنازل عن شيء.

- هم هكذا، الفرانكيّون في هذا الزمان، منغلقون مثل ثمر الصنوبر.

- والد زوجتي رجلٌ طيّب يا فيرمين. لا تؤاخذه!

- فلنسدلِ الستار على سيرته، ولكن لا تغيِّر الموضوع، فلقد حمّستني كثيرًا. ما الهديّة؟

- خمِّن!

- علبة من سكاكر السوغوس.

- ابتعدتَ كثيرًا.

قوّس فيرمين حاجبيه، ميّتًا من الفضول. ثمّ لمعت عيناه فجأةً.

- لا... هل حان الوقت؟

- كلٌّ في أوانه. اسمعني جيّدًا. إيّاك أن تخبر أحدًا بما ستراه اليوم يا فيرمين. أبدًا...

- ولا حتّى برناردا؟

٦

كان مطلع ضوء النهار ينصبّ كالنحاس السائل على تيجان المباني في حيّ رامبلا دي سانتا مونيكا. كنّا في صباح يوم الأحد، والطرقات مقفرةٌ يعتريها السكون. دخلنا في الزقاق الضيّق عند قوس المسرح، وانطفأ خيط الضوء الفَزِعِ، المتسرّب من لاس رامبلاس، عند مرورنا. وعندما وصلنا إلى البوّابة الخشبيّة الكبيرة كنّا قد غطسنا في مدينةٍ من ظلال.

صعدتُ بعض العتبات وحرّكتُ المطرقة، فسمعتُ الصدى يتوه في الداخل كموجةٍ تذوي في حوضٍ مستنقع. نظر إليّ فيرمين بقلق، وقد اعترى ملامحه الصمتُ الوقور، ليبدو فتًى يُقْبِلُ على إتمام أوّل طقوسه الدينيّة.

- أليس الوقت مبكّرًا للزيارة؟ - سأل - ماذا لو تضايق الحارس...

- هذا ليس أحد المتاجر الكبرى. لا وجود للمواعيد هنا. - طمأنته - والحارس يدعى إسحاق. لا تتفوّه بحرف أمامه ما لم يتوجّه إليك بسؤال.

أومأ فيرمين متحمّسًا.

- لن أفتح فمي.

بعد دقيقتين، تناهت إلى مسامعي رقصة المتاريس المتشابكة والمسنّنات والروافع التي تؤمّن إقفال البوّابة، ونزلتُ إلى مستوى الطريق. فُتِح الباب بضعة سنتمترات، وأطلّ إسحاق مونفورت بوجهه الصقريّ، ونظرته الفولاذيّة المعتادة. استقرّت عيناه عليّ أوّلًا، وبعد فحصٍ موجز، انتقلتا لتعاين فيرمين بتصويرٍ شعاعيّ وتصنيفٍ مبدأيّ وتثقيبِ دؤوب.

- لا بدّ أنّه فيرمين روميرو دي توريس الممجَّد. - غمغم.

- في خدمة حضرتك والربّ و...

أخرسته بوكزة من مرفقي وابتسمتُ للحارس الصارم.

- صباح الخير يا إسحاق.

- الخير سيأتي في صباحٍ لا تدقّ فيه بابي أوّل الفجر، عندما أكون في الحمّام أو في احتفال دينيّ، يا سيمبيري! - ردّ إسحاق - هيّا، إلى الداخل!

فتح لنا البوّابة بضعة سنتمترات أخرى، وسمح لنا بالولوج. وعندما أغلِقت البوّابة خلف ظهورنا، رفع إسحاق الشعلة عن الأرض، فاستطاع فيرمين أن يتمعّن في ذلك الأرابيسك الميكانيكيّ الذي تتألّف منه عُدّة الإقفال، ينثني بعضها على بعض مثل أحشاء أكبر ساعة على وجه الأرض.

- لا شكّ أنّ العواقب وخيمة على اللصوص إذا دخلوا هنا. - ارتجل قائلًا.

زجرتُه بنظرة منّي، وسرعان ما التزم الصمت.

- استلام أم تسليم؟ - سألنا إسحاق.

- في الحقيقة، كنت أودّ منذ زمن أن آتي بفيرمين ليتعرّف

شخصيًّا على هذا المكان. وقد حدّثتُك عنه غير مرّة. إنّه صديقي الأفضل، وسيتزوّج اليوم، عند منتصف النهار. - فصَّلتُ.

- تبارك الربّ. - قال إسحاق - يا للمسكين. أمتأكدٌ من أنّه لن يطلب اللجوء الزوجيّ هنا؟

- فيرمين من الرجال الذين يتزوّجون على اقتناع يا إسحاق.

نظر إليه الحارس من أعلى إلى أسفل. فأرسل إليه فيرمين ابتسامة العذر على الوقاحة.

- يا للشجاعة!

اقتادنا على امتداد الممرّ الطويل حتّى مدخل الردهة التي تفضي إلى الصالة الكبرى. تركتُ فيرمين يسبقني بخطوتين، لتكون عيناه هما اللتان تكتشفان تلك الرؤية المستحيلُ وصفها بالكلمات.

غطس جسده النحيل في غمرة الضوء المتساقط من قبّة الزجاج في العلى. كان الضياء ينهمر مثل شلّالٍ من بخارٍ على مجاهل المتاهة الضخمة، المكوّنة من ممرّاتٍ وأنفاق وسلالم وأقواسٍ وقناطرَ لكأنّها تنبثق من الأرض مثل جذع شجرةٍ شاسعةٍ قوامُها الكتبُ، باسقةٍ نحو السماء بهندسةٍ إعجازيّة. توقّف فيرمين عند مدخل أحد المماشي المتغلغل كالجسر على قاعدة المبنى، يتأمّل المشهد بفم مفتوح. دنوتُ منه بحذر ووضعتُ يدي على كتفه.

- أهلًا بك في مقبرة الكتب المنسيّة يا فيرمين.

٧

بحسب خبرتي الشخصيّة، أعرف أنّ المرء عندما يكتشف ذلك المكان، تأتي ردّة فعله ملؤها الفتنة والتعجّب. كما أنّ الجمال والغموض يُغرِقان الزائرَ بالصمت، ويدفعانه للتبصُّر والحلم. أمّا مع فيرمين، فالأمور ستجري على نحوٍ مغاير بطبيعة الحال. إذ قضى أوّل نصف ساعة مخدَّرًا، يتجوّل مثل الممسوسين بين الزوايا السريّة للغز الذي تتألّف منه تلك المتاهة الكبيرة. وكان يطرق ببراجم يديه على الأعمدة والأقواس المتسلّقة، كأنّه يشكّ في متانتها. ثمّ يتوقّف عند الزوايا والإطلالات، رافعًا يديه على هيئة منظار، محاولًا أن يتوصّل إلى المنطق الذي بُني على أساسه المكان. ويسبر محور المكتبات بأنفه المعتبر على بُعد سنتمتر واحد من لانهايات الجوانب المصفوفة في مسارات بلا نهاية، متفحّصًا العناوين ومصنِّفًا اكتشافاته. كنت أتبعه على مسافة خطوات قصيرة، بين توجُّسٍ وحيرة.

بدأتُ أشكّ أنّ إسحاق كان سيطردنا ركلًا، عندما اصطدمتُ به على أحد الجسور المعلّقة بين قناطر الكتب. لكنّي فوجئتُ بأنّ وجهه لا ينضح بمعالم الاستياء إطلاقًا، بل كان يبتسم مرحِّبًا وهو يراقب تقدُّم فيرمين في استكشافه الأوّل لمقبرة الكتب المنسيّة.

- صديقك هذا نموذجيٌّ واستثنائيٌّ بما فيه الكفاية. - قال.

- لا تتخيّل إلى أيّ حدّ.

- لا عليك، دعه يفعل ما يحلو له. سيهبط من بين الغمام عاجلًا أم آجلًا.

- ماذا لو ضلّ الطريق؟

- أراه لبيبًا. سيتدبّر أمره.

لم أكن متأكدًا من ذلك، لكنّني لم أشأ أن أعارض إسحاق. رافقته إلى الغرفة التي كانت تؤدّي دور المكتب، وقبلتُ فنجان قهوة أعطاني إيّاه.

- هل شرحت القواعد لصديقك؟

- فيرمين والقواعد فكرتان لا تتعايشان في الجملة نفسها. لكنّني أجملتُ له النقاط الأساسيّة فأجابني بكلّ اقتناع: «هذا بديهيّ. أتحسبني مغفّلًا؟».

وبينما كان إسحاق يصبّ القهوة بفنجاني مجدّدًا، رآني وأنا أنظر إلى صورة ابنته نوريا على المنضدة.

- عمّا قريب، سيمرّ عامان على رحيلها. - قال بحزنٍ يمزّق الهواء.

طأطأتُ رأسي متألمًا. قد يمرّ مئة عام، لكنّ موتها سيبقى ماثلًا في ذاكرتي، يرافق يقيني بأنّها لو لم تعرفني، لبقيتْ على قيد الحياة. كان إسحاق يداعب الصورة بنظراته.

- إنّني أتقدّم في السنّ يا سيمبيري. لقد آن الأوان ليأخذ أحدٌ غيري مكاني.

كدت أحتجّ على ذلك البهتان، فإذا فيرمين يدخل منهكًا، مقطوع الأنفاس، كما لو أنّه خرج للتوّ من الماراتون.

- والآن؟ - سأله إسحاق - ما رأيك؟

- عظيمة. مع أنّني لاحظتُ عدم وجود الحمّامات. على حدّ بصري على الأقلّ.

- آمل أنّك لم تتبوّل في إحدى الزوايا.

- لقد صمدتُ بما يفوق طاقة الإنسان حتّى وصلتُ إلى هنا.

- ذلك الباب، جهة اليسار. عليك أن تشدّ السلسلة مرّتين، إذ لا تستجيب من الشدّة الأولى.

وبينما كان فيرمين يقضي حاجته، صبّ له إسحاق فنجانًا ساخنًا في انتظار عودته.

- لديّ مجموعة من الأسئلة أودّ طرحها عليك يا دون إسحاق.

- فيرمين، لا أظنّ أنّ. . . - تدخّلتُ

- اسأل، اسأل. - قاطعني إسحاق.

- القسم الأوّل مرتبطٌ بتاريخ هذا المكان. والثاني ذو طبيعة تقنيّة ومعماريّة. والثالث ببليوغرافيّ بشكلٍ جوهريّ. . .

ضحك إسحاق. لم أره يضحك يومًا في حياته كلّها، ولم أفهم ما إذا كانت تلك بشارةً من السماء أم نذيرَ كارثة وشيكة.

- في المقام الأوّل، عليك أن تختار كتابًا تودّ إنقاذه. - قال إسحاق.

- وقعت عيناي على أكثر من كتاب، لكنّني سمحتُ لنفسي باختيار هذا، حتّى لو كان الاعتماد على القيمة العاطفيّة فقط.

أخرج من جيبه كتابًا مجلّدًا بجلدٍ أحمر، وعنوانه من حروف مذهّبة، وثمّة جمجمة منقوشة على الغلاف.

- آه. «مدينة الملاعين»، الحلقة ١٣، «دافني والسلالم المستحيلة»، لدافيد مارتين. . . - قرأ إسحاق.

- صديقٌ قديم. - فسّر فيرمين.

- حقًّا؟ كان غالبًا ما يأتي إلى هذه الأنحاء في الفترات السابقة.

- ربّما قبل الحرب. - حدّدتُ.

- لا، لا... بعدها أيضًا.

تبادلتُ وفيرمين نظرة. وتساءلتُ إن كان إسحاق يعي ما يقول أم إنّه صار بالفعل عجوزًا على ذلك المكان.

- لا أودّ معارضتك يا سيّد، لكنّ هذا مستحيل. - قال فيرمين.

- لماذا مستحيل؟ فسِّرْ أكثر...

- دافيد مارتين فرّ خارج البلد قبل الحرب. - شرحتُ - وفي بدايات العام ١٩٣٩، أي نحو نهاية النزاع، اجتاز حدود البيريني مرّة أخرى، وألقي القبض عليه بعد أيّام قصيرة في بويغسيردا. وظلّ في السجن حتّى العام ١٩٤٠ وهو العام الذي قُتِل فيه.

نظر إلينا إسحاق مصدومًا.

- صدِّقْ يا سيّد. - أكّد فيرمين - مصادرنا موثوقة.

- بوسعي أن أضمن لكما أنّ دافيد مارتين جلس هنا، على كرسيّك نفسه يا سيمبيري، وتحادثنا مطوّلًا.

- هل أنت متأكد يا إسحاق؟

- لم أكن متأكدًا من شيء في حياتي كلّها أكثر من هذا الأمر. - ردّ الحارس - أذكر جيّدًا لأنّني كنت لم ألتقِ به منذ أعوام. وكان في حالٍ يرثى لها، وبدا مريضًا.

- هل تذكر التاريخ الذي جاء فيه؟

- بالتمام. الليلة الأخيرة من عام ١٩٤١. عشيّة رأس السنة. وكانت آخر مرّة أراه فيها.

سرحتُ أنا وفيرمين بحساباتنا.

- هذا يثبت صحّة ما رواه السجّان بيبو للمحامي بريانس. في

الليلة التي أمر فيها ڤايس باقتياد مارتين إلى الفيلا المجاورة لمنتزه غويل لقتله فيها... بيبو قال إنّه سمع الرماة لاحقًا يتهامسون ما بينهم، بأنّ خللًا ما قد وقع هناك، وأنّ رجلًا آخر كان موجودًا في الفيلا... واستطاع الرجل أن يمنعهم من قتل مارتين... - ارتجلتُ.

كان إسحاق يصغي إلى تلك التخاريف بهيئةٍ مذعورة.

- ما الذي تقولانه؟ من أراد أن يقتل مارتين؟

- قصّة طويلة. - قال فيرمين - تحوي أطنانًا من التعقيبات.

- سنرى إن كنتما سترويانها لي يومًا ما...

- هل بدا لك مارتين سليم العقل؟ - سألته.

أنهض إسحاق كتفيه.

- بخصوص مارتين، يصعب التأكّد من الأمر... كانت روحه معذَّبة. عندما نوى المغادرة، تطوَّعتُ لمرافقته إلى القطار، لكنّه قال إنّ في الخارج سيّارةً في انتظاره.

- سيّارة؟

- مرسيدس - بينز، دفعةً واحدة. من أملاك رجلٍ يسمّيه «ربّ العمل»، ومن المفترض أنّه كان ينتظره على الباب. لكنّني عندما خرجتُ بصحبته، لم يكن هناك وجود لسيّارة أو ربّ عمل أو أيّ شيء آخر...

- لا تؤاخذني يا سيّد، أليس من الممكن أنّك قد أفرطتَ في تجرُّع النبيذ والخمور، بما أنّها كانت ليلة رأس السنة، وقد داخ رأسك بسبب أناشيد الميلاد ونسبة السكّريات المرتفعة في حلويات توروني دي خيخونا، فانفتح المدى أمام مخيّلتك؟ - تقصّى فيرمين.

- بما يتعلّق ببند الخمور، أنا لا أتعاطى إلّا المشروبات

الغازيّة، وأقصى ما أحويه هنا قنّينة من السائل المعقَّم. - حدّد إسحاق، من دون إبداء أيّ شعور بالإهانة.

- اعذرني على الشكوك. مجرّد أسئلة شكليّة.

- أستوعب ذلك. ولكن صدِّقْني عندما أقول إنّ مارتين حيٌّ مثلي ومثلكما، اللهم إلّا إذا تراءى لي شبحه تلك الليلة، ولا أعتقد ذلك لأنّ أذنه كانت نازفة، وكان مرتعش اليدين بسبب الحمّى، دع عنك أنّه ابتلع كلّ ظروف السكّر التي كانت في الخزانة.

- ألم يقل لك ما الذي جاء به بعد مرور زمن طويل؟

هزّ إسحاق رأسه.

- قال إنّه جاء ليترك عندي شيئًا ما، وإنّه سيعود ليأخذه في حال استطاع ذلك. هو بنفسه، أو قد يرسل أحدًا من طرفه...

- وما الذي تركه عندك؟

- علبةٌ ملفوفة بالورق ومعقودة بالحبل. لا أعرف ما الذي فيها.

مضغتُ ريقًا.

- وهل ما تزال عندك؟ - سألتُ.

٨

أخرج إسحاق العلبة من قاع الخزانة، ووضعها على منضدته. وعندما تلمّستُها بأصابعي، هبّ شريط الغبار الذي كان يغطّيها، متناثرًا بسحابةٍ من جزيئات متلألئة تحت نور الشعلة التي أسندها إسحاق إلى يميني. وكان فيرمين، إلى يساري، قد شحذ سكّينه ومرّره إليّ. ونظر كلٌّ منّا إلى الآخر.

- فلتُنفَّذْ إرادة الربّ! - قال فيرمين.

مرّرتُ السكّين تحت الحبل المعقود على الورق وقطعته. وعرّيتُ العلبة، بحرصٍ شديد، ممّا يغلّفها، إلى أن ظهر المحتوى للعيان. مخطوط. كانت صفحاته متّسخة، ومبقّعة بالشمع والدماء. وكان العنوان مكتوبًا على الصفحة الأولى بخطٍّ شيطانيّ.

El Juego del Ángel
por David Martín

لعبة الملاك

لـ دافيد مارتين

- إنّه الكتاب الذي ألّفه أثناء حبسه في البرج. - غمغمتُ - يبدو أنّ بيبو استطاع أن يحفظه.

- ثمّة شيء ما تحته يا دانيال... - قال فيرمين.

كانت زاويةُ ورقةٍ ثخينةٍ تنتأ من تحت صفحات المخطوط. سحبتُها فإذا هي ظرف. ظرفٌ مختومٌ بالشمع الأحمر بدمغةٍ على شاكلة ملاك. وفوقها، كلمة واحدة بالحبر الأحمر:

Daniel

دانيال

أحسستُ بالبرد يتغلغل في يديّ. اتّجه إسحاق نحو الباب، وكان قد تابع المشهد متراوحًا بين التعجّب والجزع، ولحق به فيرمين.

- دانيال. - قال فيرمين بعذوبة - سنتركك على راحتك كي تفتح الظرف بعناية وخصوصيّة.

سمعتُ خطواتهما تبتعد ببطء، واستطعتُ بالكاد أن أسمع مطلع المحادثة بينهما.

- اسمع يا سيّد، لقد أنستني هذه العواطف أن أخبرك بأنّني، أثناء دخولي، لم أستطع إلّا أن أسمع حضرتَك تقول إنّك بحاجة إلى التقاعد وترك المكان.

- هذا صحيح. إنّني هنا منذ أعوام طويلة يا فيرمين. لماذا تسأل؟

- حسنٌ، أعرف أنّنا تعارفنا للتوّ، لكنّني قد أكون مهتمًّا...

تلاشت أصوات فيرمين وإسحاق في أصداء متاهة مقبرة الكتب المنسيّة. وإذ بقيتُ بمفردي، جلستُ على ديوان الحارس، ونزعتُ دمغة الشمع. كانت في الظرف ورقة مطويّة مصفرّة اللون. فتحتُها وأخذتُ أقرأها.

برشلونة، ٣١ ديسمبر ١٩٤١

عزيزي دانيال،

أكتب هذه الكلمات آملًا ومتيقّنًا من أنّك ستكتشف هذا المكان يومًا ما، «مقبرة الكتب المنسيّة»، المكان الذي غيّر حياتي مثلما أنا واثقٌ من أنّه سيغيّر حياتك. يدفعني هذا الأمل إلى الاعتقاد بأنّ أحدًا ما، عندما لا أكون موجودًا هنا، سيحدّثك عنّي وعن الصداقة التي جمعتني بوالدتك. وأعرف أنّك في الحين الذي ستتمكّن من قراءة هذه الكلمات، ستكون في جعبتك شكوكٌ عديدة وأسئلةٌ تضنيك. ستجد إحدى الإجابات في هذا المخطوط الذي حاولتُ فيه أن أصيغ قصّتي كما أذكرها، آخذًا بالحسبان أنّ صفاء ذهني بات معدود الأيّام، وأنّني غالبًا ما أتذكّر أشياءَ لم تقع إطلاقًا.

أعرف أيضًا أنّه، عندما ستتلقّى هذه الرسالة، سيكون الزمن قد بدأ بمحو آثار ما حدث. أعرف أنّ الشكوك ستسكنك وأنّك - إن توصّلتَ لمعرفة الحقيقة حول الأيّام الأخيرة لوالدتك - ستقاسمني الغضب والتعطّش للانتقام. يقال إنّ العفوَ ناتجُ الحكمةِ والصواب، لكنّني أعرف أنْ لا طاقة لي على ذلك. روحي مدانةٌ أساسًا، ولا أمل في إنقاذها إطلاقًا. أعرف أنّني سأكرّس كلّ تنهيدة، من الأنفاس المتبقّية لديّ في هذه

الدنيا، في محاولة الثأر لوفاة إيزابيلا. هذا قدري، لكنّه ليس قدرك.

لم تكن والدتك لتتمنّى لك حياة مثل حياتي، على الإطلاق. بل كانت تريد لك حياة مليئة، لا حقد فيها أو نقمة. فمن أجلها، أطلب منك أن تقرأ هذه القصّة وأن تمزّقها حالما تنتهي منها، وأن تنسى كلّ ما سمعتَه عن ماضٍ لم يعد موجودًا، وأن تطهّر قلبك من الغضب، وأن تعيش الحياة التي أرادت والدتك أن تعطيك إيّاها، وأن تنظر إلى الأمام دومًا.

وإن جثوتَ يومًا ما على ركبتيك عند قبرها، وشعرتَ بنار البغضاء تسعى للاستيلاء عليك، تذكَّرْ أنّ قصّتي، كما قصّتك، كان فيها ملاكٌ لديه كلّ الأجوبة.

صديقك

دافيد مارتين

قرأتُ الكلمات التي بعثها إليّ دافيد مارتين، عبر الزمن، مرارًا. كلماتٌ بدت لي مفعمة بالندم والجنون، كلماتٌ لم أتمكّن من استيعابها كليًّا. أبقيتُ الرسالة بين يديّ عدّة لحظات، ثمّ قرّبتُها من لهيب الشعلة ونظرتُ إليها تحترق.

وجدتُ إسحاق وفيرمين في قاعدة المتاهة، منهمكين في الدردشة كأنّهما صديقان قديمان. وحين ظهرتُ عليهما، انقطعت أصواتهما ونظرا إليّ بترقُّب.

- فحوى الرسالة يخصّك أنت وحدك يا دانيال. لستَ مضطرًا لإخبارنا بشيء.

أومأتُ. وتسرّب صدى أحد الأجراس عبر الجدران. نظر إلينا إسحاق ثمّ إلى الساعة.

- ها، أليس عليكما الذهاب إلى حفلة الزفاف اليوم؟

٩

كانت العروس بفستانها الأبيض. ورغم أنّ هندامها كان متواضعًا، ولا يزدهي بالزينة أو المجوهرات، لم يكن في العالم كلّه في عيون العريس امرأةٌ أجمل من برناردا في ذلك اليوم من فبراير ذي الشمس المشرقة وسط ساحة كنيسة سانتا آنا. وكان برسلوه، الذي اشترى عمليًّا كلّ الأزهار في برشلونة ليُغرِق بها مدخل المعبد، كان قد بكى مثل المجدليّة، وفوجئ الجميع بالخوريّ صديق العريس، يلقي خطبة باهرة أبكت الحاضرين بمن فيهم بيا التي لم يكن من السهل إبكاؤها.

أمّا أنا فكدت أوقع الخواتم، لكنّنا نسينا كلّ شيء عند نهاية المقدّمات، إذ دعا الخوريّ فيرمين لتقبيل العروس. وكان حينذاك إذ التفتُّ وخُيِّل إليّ أنّني أرى طيفًا في آخر صفٍّ من الكنيسة، رجل مجهول ينظر إليّ متبسّمًا. لا يسعني قول السبب، لكنّني لوهلةٍ كنت متيقنًا من أنّ الرجل هو سجين السماء. وعندما نظرتُ مرّة أخرى، لم أجده. عانق فيرمين برناردا بقوّة، إلى جانبي، فما كان منها إلا أن تخلّت عن وساوسها ولثمت ثغره، حتّى ضجّت الكنيسة بهتافٍ قاده الخوريّ.

وعندما رأيت صديقي يقبّل المرأة التي يحبّ، خطر في بالي أنّ

تلك اللحظة، الهاربة من الزمن والربّ، تُعادل كلّ أيّام الشقاء التي أوصلتنا حتّى هناك، وكلّ أولئك الذين كانوا بالتأكيد في انتظارنا ما إن يعودوا إلى الحياة. فكّرتُ في أنّ كلّ شيء صادق وواضح ونقيّ في هذه الدنيا، وأنّ كلّ ما يستحقّ العناء كان ماثلًا في شفاه ذينك المحظوظين، وأيديهما ونظراتهما، وأدركتُ أنّهما سيبقيان جنبًا إلى جنب حتى آخر يوم من عمرهما.

خاتمة

١٩٦٠

رجلٌ شابّ، وقد وخط الشيب شعره، والظلّ يسكن نظراته، يمشي بين شواهد المقبرة، تحت شمس منتصف النهار المرفوعة في سماءٍ غارقة في زرقة البحر.

يحمل بين ذراعيه طفلًا بالكاد يفهم ما يقول، لكنّه يبتسم كلّما تلاقت نظراتهما. يقتربان معًا من قبر متواضع، شبه معزول عند سياجٍ معلّقٍ على البحر المتوسّط. يجثو الرجل على ركبتيه، أمام القبر، ويمرّر يد الطفل على الحروف المنقوشة في الصخرة.

إيزابيلا سيمبيري

١٩١٧ - ١٩٣٩

يلتزم الرجل صمته، مغمض الجفنين للجم الدموع.

يردّه صوتُ الطفل إلى الحاضر. وعندما يفتح عينيه، يرى أنّ الطفل يشير إلى غرضٍ صغير يبرز من بين بتائل الزهور اليابسة في ظلّ إناءٍ زجاجيّ عند أطراف الشاهدة. واثقٌ من أنّه لم ير الإناء في آخر زيارة قام بها إلى القبر. ينبّش بيده بين الأزهار، فيُخرج تمثالًا من

الجصّ، صغيرًا إلى حدّ احتوائه بقبضة اليد. ملاك. فإذا بالكلمات، التي ظنّ أنّه نسيها، تتفتّح في ذاكرته على شاكلة جرحٍ قديم.

وإن جثوتَ يومًا ما على ركبتيك عند قبرها، وشعرتَ بنار البغضاء تسعى للاستيلاء عليك، تذكَّرْ أنّ قصّتي، كما قصّتك، كان فيها ملاكٌ لديه كلّ الأجوبة...

يحاول الطفل سحب التمثال من يد والده، فيدفع التمثالَ عن غير قصد. يسقط الملاك على الرخام ويتحطّم. فيراها حينذاك. رسالةٌ صغيرة الحجم، مدفونةٌ في داخل الجصّ. ورقةٌ ناعمة، تكاد تكون شفّافة. يفتحها بأصابعه فيتعرّف على صاحب الخطّ مباشرةً:

ماوريسيو ڤايس

إل بينار

شارع مانويل آرنوس

برشلونة

ينهض النسيمُ البحريُّ بين الشواهد، فتلامس أنفاسُ اللعنة وجهَه. يضع الورقة في جيبه. ثمّ يترك وردة بيضاء على الشاهدة، ويعود بالطفل بين ذراعيه نحو درب أشجار السرو، حيث تنتظرهما أمُّ الولد. يمتزج الثلاثة في عناق، وعندما تنظر المرأة في عينيه، تكتشف شيئًا لم يكن فيهما قبل لحظاتٍ قصيرة. شيئًا ما ينمّ عن الغموض والريبة، يبثّ الرعب في قلبها.

- هل أنت بخير يا دانيال؟

ينظر إليها طويلًا ويبتسم.

- أحبّكِ. - يقول، ويقبِّلها، وهو على علمٍ بأنّ القصّة، قصّته، لم تنتهِ.

إنّما بدأتْ توًّا.

هذا الكتاب

لعلّ القارئ الذي هام في «ظلّ الريح»، وتاه في «لعبة الملاك»، سيستغرب من دخوله زنزانة **«سجين السماء»**. إلّا أنّه سيتعرَّف باكرًا على لمسة **كارلوس زافون** وبراعته في تطويع مختلف التقنيّات السرديّة لِما يتوافق مع رؤيته. فإذا صوَّر لنا الكاتبُ مدينتَه برشلونة بين رومانسيّة الظلّ النوستالجيّة، ودوّامات اللعبة المتشابكة؛ فها هو في هذه المحطّة الثالثة، ينتقل بنا إلى عوالم السجين الداخليّة ليصف برشلونة ما تحت الأرض، برشلونة الخارجة من رهاب الحرب. لا شيء يحدث عن طريق الصدفة... عنوان هذه الحلقة التي سيكتشف القارئُ من خلالها أنّه في عودةٍ متواصلةٍ إلى الحلقتين السابقتين، لا تقلّ متعةً وإثارةً وتشويقًا، ليعثر على حلولٍ لأكثر المسائل التي أبقاها زافون غامضةً ومبهمةً. سيطّلع القارئ هنا على تاريخ فيرمين؛ وسيلتقي بطيف إيزابيلا. حتّى إذا أجاب زافون على التساؤلات، عاد وخلط الأوراق مرّة أخرى، ممهّدًا لقرّائه انطلاقةً جديدة نحو دهاليز «متاهة الأرواح»، آخر المحطّات في ملحمة **«مقبرة الكتب المنسيّة»**.

الغلاف : سكينة صلوّن



